سلسلة تفسير القرآن
17

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الثّامن عشر

ندقيق
أسعد جمعة

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الثّامن عشر

سورة ص

سُورَةُ الصَّفِّ

مَدَنِيَّةٌ،

وَآيَاتُهَا 14

نَزَلَتْ بَعْدَ [التَّغَابُنِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[1]

﴿لِمْ﴾[2] هِيَ لَامُ الْإِضَافَةِ دَاخِلَةٌ عَلَى مَا الِاسْتِفْهَامِيَّةِ كَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا غَيْرُهَا مِنْ حُرُوفِ الْجَرِّ فِي قَوْلِكَ: بِمَ، وَفِيمَ، وَمِمَّ، وَعَمَّ، وَإِلَامَ، وَعَلَامَ.

وَإِنَّمَا حُذِفَتِ الْأَلِفُ، لِأَنَّ مَا وَالْحَرْفَ كَشَيْءٍ وَاحِدٍ، وَوَقَعَ اسْتِعْمَالُهُمَا كَثِيرًا فِي كَلَامِ الْمُسْتَفْهِمِ، وَقَدْ جَاءَ اسْتِعْمَالُ الْأَصْلِ قَلِيلًا وَالْوَقْفُ عَلَى زِيَادَةِ هَاءِ السَّكْتِ أَوِ الْإِسْكَانِ.

وَمَنْ أَسْكَنَ فِي الْوَصْلِ فَلِإِجْرَائِهِ مَجْرَى الْوَقْفِ، كَمَا سُمِعَ: ثَلَاثَهْ، أَرْبَعَهْ: بِالْهَاءِ وَإِلْقَاءِ حَرَكَةِ الْهَمْزَةِ عَلَيْهَا مَحْذُوفَةً، وَهَذَا الْكَلَامُ يَتَنَاوَلُ الْكَذِبَ وَإِخْلَافَ الْمَوْعِدِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَرُوِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرُوا بِالْقِتَالِ: لَوْ نَعْلَمُ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى– لَعَمِلْنَاهُ وَلَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا وَأَنْفُسَنَا، فَدَلَّهُمُ اللَّهُ –تَعَالَى– عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، فَوَلَّوْا يَوْمَ أُحُدٍ فَعَيَّرَهُمْ.

وَقِيلَ: لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِثَوَابِ شُهَدَاءِ بَدْرٍ قَالُوا: لَئِنْ لَقِينَا قِتَالًا لَنُفْرِغَنَّ فِيهِ وُسْعَنَا، فَفَرُّوا يَوْمَ أُحُدٍ وَلَمْ يَفُوا.

وَقِيلَ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ: قَتَلْتُ وَلَمْ يَقْتُلْ، وَطَعَنْتُ وَلَمْ يَطْعَنْ، وَضَرَبْتُ وَلَمْ يَضْرِبْ، وَصَبَرْتُ وَلَمْ يَصْبِرْ.

وَقِيلَ: كَانَ قَدْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ وَنَكَى فِيهِمْ، فَقَتَلَهُ صُهَيْبٌ وَانْتَحَلَ قَتْلَهُ آخَرُ، فَقَالَ عُمَرُ لِصُهَيْبٍ: أَخْبِرِ النَّبِيَّ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– أَنَّكَ قَتَلْتَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا قَتَلْتُهُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَتَلَهُ صُهَيْبٌ، قَالَ: كَذَلِكَ يَا أَبَا يَحْيَى؟ قَالَ: نَعَمْ، فَنَزَلَتْ فِي الْمُنْتَحِلِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ. وَنِدَاؤُهُمْ بِالْإِيمَانِ: تَهَكُّمٌ بِهِمْ وَبِإِيمَانِهِمْ، هَذَا مِنْ أَفْصَحِ كَلَامٍ وَأَبْلَغِهِ فِي مَعْنَاهُ قَصَدَ فِي "كَبُرَ" التَّعَجُّبَ مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ كَقَوْلِهِ:

غَلَتْ نَابٌ كَلَيْبٌ بَوَاءَهَا .....

وَمَعْنَى التَّعَجُّبِ: تَعْظِيمُ الْأَمْرِ فِي قُلُوبِ السَّامِعِينَ، لِأَنَّ التَّعَجُّبَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْ نَظَائِرِهِ وَأَشْكَالِهِ، وَأُسْنِدَ إِلَى أَنْ تَقُولُوا. وَنَصَبَ "مَقْتًا" عَلَى تَفْسِيرِهِ، دَلَالَةً عَلَى أَنَّ قَوْلَهُمْ مَا لَا يَفْعَلُونَ مَقْتٌ خَالِصٌ لَا شَوْبَ فِيهِ، لِفَرْطِ تَمَكُّنِ الْمَقْتِ مِنْهُ، وَاخْتِيرَ لَفْظُ الْمَقْتِ لِأَنَّهُ أَشَدُّ الْبُغْضِ وَأَبْلَغُهُ.

وَمِنْهُ قِيلَ: نِكَاحُ الْمَقْتِ، لِلْعَقْدِ عَلَى الرَّابَّةِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ جَعَلَ الْبُغْضَ كَبِيرًا، حَتَّى جُعِلَ أَشَدَّهُ وَأَفْحَشَهُ.

و﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾[1] أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ كِبَرُ مَقْتِهِ عِنْدَ اللَّهِ فَقَدْ تَمَّ كِبَرُهُ وَشِدَّتُهُ وَانْزَاحَتْ عَنْهُ الشُّكُوكُ. وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: حَدِّثْنَا، فَسَكَتَ ثُمَّ قِيلَ لَهُ: حَدِّثْنَا، فَقَالَ: تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ، فَأَسْتَعْجِلُ مَقْتَ اللَّهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾[1] عَقِيبَ ذِكْرِ مَقْتِ الْمُخَلَّفِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَقْتَ قَدْ تَعَلَّقَ بِقَوْلِ الَّذِينَ وَعَدُوا الثَّبَاتَ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ فَلَمْ يَفُوا.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: يُقَاتَلُونَ بِفَتْحِ التَّاءِ.

وَقُرِئَ: "يَقْتُلُونَ" "صَفًّا" صَافِّينَ أَنْفُسَهُمْ أَوْ مَصْفُوفِينَ "كَأَنَّهُمْ" فِي تَرَاصِّهِمْ مِنْ غَيْرِ فُرْجَةٍ وَلَا خَلَلٍ "بُنْيَانٌ" رُصَّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ وَرُصِفَ.

وَقِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ اسْتِوَاءَ نِيَّاتِهِمْ فِي الثَّبَاتِ حَتَّى يَكُونُوا فِي اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ الْقِتَالِ رَاجِلًا، لِأَنَّ الْفُرْسَانَ لَا يَصْطَفُّونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ﴾[2] حَالَانِ مُتَدَاخِلَتَانِ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[3]

﴿وَإِذْ﴾[4] مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ اذْكُرْ. أَوْ: وَحِينَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ كَانَ كَذَا وَكَذَا.

﴿تُؤْذُونَنِي﴾[5]: كَانُوا يُؤْذُونَهُ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى مِنَ انْتِقَاصِهِ وَعَيْبِهِ فِي نَفْسِهِ، وَجُحُودِ آيَاتِهِ، وَعِصْيَانِهِ فِيمَا تَعُودُ إِلَيْهِمْ مَنَافِعُهُ، وَعِبَادَتِهِمُ الْبَقَرَ، وَطَلَبِهِمْ رُؤْيَةَ اللَّهِ جَهْرَةً، وَالتَّكْذِيبِ الَّذِي هُوَ تَضْيِيعُ حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّهِ.

﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾[6] فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: تُؤْذُونَنِي عَالِمِينَ عِلْمًا يَقِينًا ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾[7]، وَقَضِيَّةُ عِلْمِكُمْ بِذَلِكَ وَمُوجِبُهُ تَعْظِيمِي وَتَوْقِيرِي، لَا أَنْ تُؤْذُونِي وَتَسْتَهِينُوا

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

بِي، لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَظَمَتَهُ عَظَّمَ رَسُولَهُ، عِلْمًا بِأَنَّ تَعْظِيمَهُ فِي تَعْظِيمِ رَسُولِهِ، وَلِأَنَّ مَنْ آذَاهُ كَانَ وَعِيدُ اللَّهِ لَاحِقًا بِهِ.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾[1] عَنِ الْحَقِّ ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] بِأَنْ مَنَعَ أَلْطَافَهُ عَنْهُمْ.

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[3]: لَا يَلْطُفُ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ اللُّطْفِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى "قَدْ" فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾[4]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ التَّوْكِيدُ كَأَنَّهُ قَالَ: وَتَعْلَمُونَ عِلْمًا يَقِينًا لَا شُبْهَةَ لَكُمْ فِيهِ.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[5]

قِيلَ: إِنَّمَا قَالَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" وَلَمْ يَقُلْ: يَا قَوْمِ كَمَا قَالَ مُوسَى، لِأَنَّهُ لَا نَسَبَ لَهُ فِيهِمْ فَيَكُونُوا قَوْمَهُ.

وَالْمَعْنَى: أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ فِي حَالِ تَصْدِيقِي مَا تَقَدَّمَنِي ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[6] وَفِي حَالِ تَبْشِيرِي ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾[7]، يَعْنِي: أَنَّ دِينِيَ التَّصْدِيقُ بِكُتُبِ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ جَمِيعًا مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ.

وَقُرِئَ: "مِنْ بَعْدِي"، بِسُكُونِ الْيَاءِ وَفَتْحِهَا، وَالْخَلِيلُ وَسِيبَوَيْهِ يَخْتَارَانِ الْفَتْحَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَعَنْ كَعْبٍ: أَنَّ الْحَوَارِيِّينَ قَالُوا لِعِيسَى: يَا رُوحَ اللَّهِ، هَلْ بَعْدَنَا مِنْ أُمَّةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ أُمَّةُ أَحْمَدَ حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، كَأَنَّهُمْ مِنَ الْفِقْهِ أَنْبِيَاءُ، يَرْضَوْنَ مِنَ اللَّهِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الرِّزْقِ، وَيَرْضَى اللَّهُ مِنْهُمْ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ مُصَدِّقًا وَمُبَشِّرًا؟ أَبِمَا فِي الرَّسُولِ مِنْ مَعْنَى الْإِرْسَالِ أَمْ بِإِلَيْكُمْ؟

قُلْتُ: بَلْ بِمَعْنَى الْإِرْسَالِ، لِأَنَّ "إِلَيْكُمْ" صِلَةٌ لِلرَّسُولِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَعْمَلَ شَيْئًا، لِأَنَّ حُرُوفَ الْجَرِّ لَا تَعْمَلُ بِأَنْفُسِهَا، وَلَكِنْ بِمَا فِيهَا مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، فَإِذَا وَقَعَتْ صِلَاتٍ لَمْ تَتَضَمَّنْ مَعْنَى فِعْلٍ، فَمِنْ أَيْنَ تَعْمَلُ؟

وَقُرِئَ: "هَذَا سَاحِرٌ مُبِينٌ".

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]

وَأَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ ظُلْمًا مِمَّنْ يَدْعُوهُ رَبُّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ إِلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي لَهُ فِيهِ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ، فَيَجْعَلُ مَكَانَ إِجَابَتِهِ إِلَيْهِ افْتِرَاءَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ بِقَوْلِهِ لِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ دُعَاءُ عِبَادِهِ إِلَى الْحَقِّ: هَذَا سِحْرٌ، لِأَنَّ السِّحْرَ كَذِبٌ وَتَمْوِيهٌ.

وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ: "وَهُوَ يَدَّعِي"، بِمَعْنَى دَعَاهُ وَادَّعَاهُ، نَحْوَ: لَمَسَهُ وَالْتَمَسَهُ. وَعَنْهُ: يَدَّعِي، بِمَعْنَى يَدْعُو، وَهُوَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2]

أَصْلُهُ: "يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا" كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ [بَرَاءَةَ]، وَكَأَنَّ هَذِهِ اللَّامَ زِيدَتْ مَعَ فِعْلِ الْإِرَادَةِ تَأْكِيدًا لَهُ، لِمَا فِيهَا مِنْ مَعْنَى الْإِرَادَةِ فِي قَوْلِكَ: جِئْتُكَ لِإِكْرَامِكَ، كَمَا زِيدَتِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

اللَّامُ فِي: لَا أَبَا لَكَ، تَأْكِيدًا لِمَعْنَى الْإِضَافَةِ فِي: لَا أَبَاكَ، وَإِطْفَاءُ نُورِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ: تَهَكُّمٌ بِهِمْ فِي إِرَادَتِهِمْ إِبْطَالَ الْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِمْ فِي الْقُرْآنِ: هَذَا سِحْرٌ، مُثِّلَتْ حَالُهُمْ بِحَالِ مَنْ يَنْفُخُ فِي نُورِ الشَّمْسِ بِفِيهِ لِيُطْفِئَهُ.

"وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ"، أَيْ: مُتِمُّ الْحَقِّ وَمُبْلِغُهُ غَايَتَهُ. وَقُرِئَ: بِالْإِضَافَةِ.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾[2] الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ "لِيُظْهِرَهُ" لِيُعْلِيَهُ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[3] عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ.

وَلَعَمْرِي لَقَدْ فَعَلَ! فَمَا بَقِيَ دِينٌ مِنَ الْأَدْيَانِ إِلَّا وَهُوَ مَغْلُوبٌ مَقْهُورٌ بِدِينِ الْإِسْلَامِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: إِذَا نَزَلَ عِيسَى لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا دِينُ الْإِسْلَامِ.

وَقُرِئَ: "أَرْسَلَ نَبِيَّهُ".

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]

﴿تُنْجِيكُمْ﴾[5] قُرِئَ مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلًا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَ﴿تُؤْمِنُونَ﴾[1] اسْتِئْنَافٌ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ نَعْمَلُ؟ فَقَالَ: تُؤْمِنُونَ، وَهُوَ خَبَرٌ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ، وَلِهَذَا أُجِيبَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾[2].

وَتَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جِيءَ بِهِ عَلَى لَفْظِ الْخَبَرِ؟ قُلْتُ: لِلْإِيذَانِ بِوُجُوبِ الِامْتِثَالِ، وَكَأَنَّهُ امْتَثَلَ فَهُوَ يُخْبِرُ عَنْ إِيمَانٍ وَجِهَادٍ مَوْجُودَيْنِ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الدَّاعِي: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، وَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ: جُعِلَتِ الْمَغْفِرَةُ لِقُوَّةِ الرَّجَاءِ، كَأَنَّهَا كَانَتْ وَوُجِدَتْ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِقَوْلِ الْقُرَّاءِ أَنَّهُ جَوَابُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾[3] وَجْهٌ؟

قُلْتُ: وَجْهُهُ أَنَّ مُتَعَلِّقَ الدَّلَالَةِ هُوَ التِّجَارَةُ، وَالتِّجَارَةُ مُفَسَّرَةٌ بِالْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: هَلْ تَتَّجِرُونَ بِالْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ يَغْفِرُ لَكُمْ؟

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ قِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: "تُؤْمِنُوا... وَتُجَاهِدُوا"؟

قُلْتُ: وَجْهُهَا أَنْ تَكُونَ عَلَى إِضْمَارِ لَامِ الْأَمْرِ، كَقَوْلِهِ:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ أَمْرٍ تَبَالَا

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ لَعَمِلْنَاهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَمَكَثُوا مَا شَاءَ اللَّهُ يَقُولُونَ: لَيْتَنَا نَعْلَمُ مَا هِيَ، فَدَلَّهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾[4].

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾[5] كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَعَلَى أَنَّ الْأَمْرَ الْوَارِدَ عَلَى النُّفُوسِ بَعْدَ تَشَوُّفٍ وَتَطَلُّعٍ مِنْهَا إِلَيْهِ: أَوْقَعُ فِيهَا وَأَقْرَبُ مِنْ قَبُولِهَا لَهُ مِمَّا فُوجِئَتْ بِهِ.

﴿ذَلِكُمْ﴾[6]، يَعْنِي مَا ذُكِرَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾[7] مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ كَانَ خَيْرًا لَكُمْ حِينَئِذٍ، لِأَنَّكُمْ إِذَا عَلِمْتُمْ ذَلِكَ وَاعْتَقَدْتُمُوهُ أَحْبَبْتُمُ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ فَوْقَ مَا تُحِبُّونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، فَتُخْلِصُونَ وَتُفْلِحُونَ.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾[2]: وَلَكُمْ إِلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمَذْكُورَةِ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالثَّوَابِ فِي الْآجِلَةِ نِعْمَةٌ أُخْرَى عَاجِلَةٌ مَحْبُوبَةٌ إِلَيْكُمْ، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[3]، أَيْ: عَاجِلٌ، وَهُوَ فَتْحُ مَكَّةَ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: فَتْحُ فَارِسَ وَالرُّومِ.

وَفِي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾[4] شَيْءٌ مِنَ التَّوْبِيخِ عَلَى مَحَبَّةِ الْعَاجِلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ قَوْلَهُ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[5]؟

قُلْتُ: عَلَى ﴿تُؤْمِنُونَ﴾[6]، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: آمِنُوا وَجَاهِدُوا يُثِبْكُمُ اللَّهُ وَيَنْصُرْكُمْ، وَبَشِّرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نَصَبَ مَنْ قَرَأَ: نَصْرًا مِنَ اللَّهِ وَفَتْحًا قَرِيبًا؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُنْصَبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ. أَوْ عَلَى تُنْصَرُونَ نَصْرًا، وَيَفْتَحُ لَكُمْ فَتْحًا. أَوْ عَلَى: يَغْفِرْ لَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ، وَيُؤْتِكُمْ أُخْرَى نَصْرًا مِنَ اللَّهِ وَفَتْحًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1]

قُرِئَ: "كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ وَأَنْصَارًا لِلَّهِ".

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "كُونُوا أَنْتُمْ أَنْصَارَ اللَّهِ". وَفِيهِ زِيَادَةُ حَتْمٍ لِلنُّصْرَةِ عَلَيْهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ صِحَّةِ التَّشْبِيهِ وَظَاهِرُهُ تَشْبِيهُ كَوْنِهِمْ أَنْصَارًا بِقَوْلِ عِيسَى – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ–: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[2]؟

قُلْتُ: التَّشْبِيهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى، وَعَلَيْهِ يَصِحُّ.

وَالْمُرَادُ: كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا الْحَوَارِيُّونَ أَنْصَارُ عِيسَى حِينَ قَالَ لَهُمْ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[4]؟

قُلْتُ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ مُطَابِقًا لِجَوَابِ الْحَوَارِيِّينَ: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾[5].

وَالَّذِي يُطَابِقُهُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: مِنْ جُنْدِي مُتَوَجِّهًا إِلَى نُصْرَةِ اللَّهِ، وَإِضَافَةُ "أَنْصَارِي" خِلَافُ إِضَافَةِ "أَنْصَارِ اللَّهِ"، فَإِنَّ مَعْنَى: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾[6]: نَحْنُ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ.

وَمَعْنَى ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾[7]: مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ يَخْتَصُّونَ بِي، وَيَكُونُونَ مَعِي فِي نُصْرَةِ اللَّهِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: مَنْ يَنْصُرُنِي مَعَ اللَّهِ، لِأَنَّهُ لَا يُطَابِقُ الْجَوَابَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: "مِنْ أَنْصَارِ اللَّهِ".

وَالْحَوَارِيُّونَ أَصْفِيَاؤُهُ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، وَحَوَارِيُّ الرَّجُلِ: صَفِيُّهُ وَخُلْصَانُهُ مِنَ الْحَوَارِ، وَهُوَ الْبَيَاضُ الْخَالِصُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَالْحَوَارِيُّ: الدَّرْمَكُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "الزُّبَيْرُ ابْنُ عَمَّتِي وَحَوَارِيِّي مِنْ أُمَّتِي"، وَقِيلَ: كَانُوا قَصَّارِينَ يُحَوِّرُونَ الثِّيَاب يُبَيِّضُونَهَا.

وَنَظِيرُ الْحَوَارِيِّ فِي زِنَتِهِ: الْحَوَالِيِّ: الْكَثِيرُ الْحِيَلِ.

﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ﴾[1] مِنْهُمْ بِعِيسَى، ﴿وَكَفَرَتْ﴾[2] بِهِ ﴿طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا﴾[3] مُؤْمِنِيهِمْ عَلَى كُفَّارِهِمْ، فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: كَانَ ظُهُورُهُمْ بِالْحُجَّةِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الصَّفِّ كَانَ عِيسَى مُصَلِّيًا عَلَيْهِ مُسْتَغْفِرًا لَهُ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفِيقُهُ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

سورة السجدة

سورة الجمعة

مَدَنِيَّةٌ،
وَآيَاتُهَا 11
نَزَلَتْ بَعْدَ [الصَّفِّ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1]

قُرِئَتْ صِفَاتُ اللَّهِ –عَزَّ وَعَلَا– بِالرَّفْعِ عَلَى الْمَدْحِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ، وَلَوْ قُرِئَتْ مَنْصُوبَةً لَكَانَ وَجْهًا، كَقَوْلِ الْعَرَبِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلِ الْحَمْدِ.

الْأُمِّيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَى أُمَّةِ الْعَرَبِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَءُونَ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ.

وَقِيلَ: بَدَأَتِ الْكِتَابَةُ بِالطَّائِفِ، أَخَذُوهَا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ، وَأَهْلُ الْحِيرَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْبَارِ.

وَمَعْنَى: ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ﴾[2]: بَعَثَ رَجُلًا أُمِّيًّا فِي قَوْمٍ أُمِّيِّينَ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ شَعْيَاءَ: أَنِّي أَبْعَثُ أَعْمَى فِي عُمْيَانٍ، وَأُمِّيًّا فِي أُمِّيِّينَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[1]]التَّوْبَةِ: 128]. يَعْلَمُونَ نَسَبَهُ وَأَحْوَالَهُ.

وَقُرِئَ: "فِي الْأُمِّينَ"، بِحَذْفِ يَاءَيِ النَّسَبِ.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[2]: يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِمْ مَعَ كَوْنِهِ أُمِّيًّا مِثْلَهُمْ لَمْ تُعْهَدْ مِنْهُ قِرَاءَةٌ وَلَمْ يُعْرَفْ بِتَعَلُّمٍ، وَقِرَاءَةُ أُمِّيٍّ بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ آيَةٌ بَيِّنَةٌ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾[3]: وَيُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَخَبَائِثِ الْجَاهِلِيَّةِ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[4]: الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ.

وَ﴿إِنْ﴾ فِي ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾[5] هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاللَّامُ دَلِيلٌ عَلَيْهَا، أَيْ: كَانُوا فِي ضَلَالٍ لَا تَرَى ضَلَالًا أَعْظَمَ مِنْهُ؟

"وَآخَرِينَ" مَجْرُورٌ، عُطِفَ عَلَى الْأُمِّيِّينَ، يَعْنِي: أَنَّهُ بَعَثَهُ فِي الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ عَلَى عَهْدِهِ، وَفِي آخَرِينَ مِنَ الْأُمِّيِّينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ بَعْدُ وَسَيَلْحَقُونَ بِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-.

وَقِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: "لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ".

وَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَطْفًا عَلَى الْمَنْصُوبِ فِي "وَيُعَلِّمُهُمْ" أَيْ: يُعَلِّمُهُمْ وَيُعَلِّمُ آخَرِينَ، لِأَنَّ التَّعْلِيمَ إِذَا تَنَاسَقَ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَانَ كُلُّهُ مُسْتَنِدًا إِلَى أَوَّلِهِ، فَكَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى كُلَّ مَا وُجِدَ مِنْهُ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[6] فِي تَمْكِينِهِ رَجُلًا أُمِّيًّا مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَتَأْيِيدِهِ عَلَيْهِ، وَاخْتِيَارِهِ إِيَّاهُ مِنْ بَيْنِ كَافَّةِ الْبَشَرِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿ذَلِكَ﴾[1] الْفَضْلُ الَّذِي أَعْطَاهُ مُحَمَّدًا وَهُوَ أَنْ يَكُونَ نَبِيَّ أَبْنَاءِ عَصْرِهِ، وَنَبِيَّ أَبْنَاءِ الْعُصُورِ الْغَوَابِرِ؛ هُوَ ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[2] إِعْطَاءَهُ وَتَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[3]

شَبَّهَ الْيَهُودَ – فِي أَنَّهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَاةِ وَقُرَّاؤُهَا وَحُفَّاظُ مَا فِيهَا، ثُمَّ إِنَّهُمْ غَيْرُ عَامِلِينَ بِهَا وَلَا مُنْتَفِعِينَ بِآيَاتِهَا، وَذَلِكَ أَنَّ فِيهَا نَعْتَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْبِشَارَةَ بِهِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ – بِالْحِمَارِ حَمَلَ أَسْفَارًا، أَيْ كُتُبًا كِبَارًا مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ، فَهُوَ يَمْشِي بِهَا وَلَا يَدْرِي مِنْهَا إِلَّا مَا يَمُرُّ بِجَنْبَيْهِ وَظَهْرِهِ مِنَ الْكَدِّ وَالتَّعَبِ.

وَكُلُّ مَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ، فَهَذَا مَثَلُهُ، وَبِئْسَ الْمَثَلُ "بِئْسَ" مَثَلًا ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[4]، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَمَعْنَى: ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾[5]: كُلِّفُوا عِلْمَهَا وَالْعَمَلَ بِهَا، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾[6]، ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْمِلُوهَا.

وَقُرِئَ: "حَمَلُوا التَّوْرَاةَ"، أَيْ: حَمَلُوهَا ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا فِي الْحَقِيقَةِ لِفَقْدِ الْعَمَلِ.

وَقُرِئَ: "يَحْمِلُ الْأَسْفَارَ".

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿يَحْمِلُ﴾[7] مَا مَحَلُّهُ؟ قُلْتُ: النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ، أَوِ الْجَرُّ عَلَى الْوَصْفِ، لِأَنَّ الْحِمَارَ كَاللَّئِيمِ فِي قَوْلِهِ:

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]

هَادَ يَهُودُ: إِذَا تَهَوَّدَ ﴿أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾[2] كَانُوا يَقُولُونَ. نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، أَيْ: إِنْ كَانَ قَوْلُكُمْ حَقًّا وَكُنْتُمْ عَلَى ثِقَةٍ.

﴿فَتَمَنَّوْا﴾[3] عَلَى اللَّهِ أَنْ يُمِيتَكُمْ وَيَنْقُلَكُمْ سَرِيعًا إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِأَوْلِيَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾[4] بِسَبَبِ مَا قَدَّمُوا مِنَ الْكُفْرِ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقُولُهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا غُصَّ بِرِيقِهِ".

فَلَوْلَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُوقِنِينَ بِصِدْقِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَتَمَنَّوْا، وَلَكِنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَوْ تَمَنَّوْا لَمَاتُوا مِنْ سَاعَتِهِمْ وَلَحِقَهُمُ الْوَعِيدُ، فَمَا تَمَالَكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَمَنَّى، وَهِيَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ.

وَقُرِئَ: "فَتُمَنُّوا الْمَوْتَ" بِكَسْرِ الْوَاوِ، تَشْبِيهًا بِلَوِ اسْتَطَعْنَا. وَلَا فَرْقَ بَيْنَ "لَا" وَ"لَنْ" فِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نَفْيٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ، إِلَّا أَنَّ فِي "لَنْ" تَأْكِيدًا وَتَشْدِيدًا لَيْسَ فِي "لَا" فَأَتَى مَرَّةً بِلَفْظِ التَّأْكِيدِ ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾[5]] الْبَقَرَة: 95]. وَمَرَّةً بِغَيْرِ لَفْظِهِ ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾[6]]الْجُمُعَة: 7].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾[1]، وَلَا تَجْسُرُونَ أَنْ تَتَمَنَّوْهُ خِيفَةَ أَنْ تُؤْخَذُوا بِوَبَالِ كُفْرِكُمْ، لَا تَفُوتُونَهُ وَهُوَ مُلَاقِيكُمْ لَا مَحَالَةَ؛ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾[2] إِلَى اللَّهِ، فَيُجَازِيكُمْ بِمَا أَنْتُمْ أَهْلُهُ مِنَ الْعِقَابِ.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلَاقِيكُمْ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ. وَأَمَّا الَّتِي بِالْفَاءِ، فَلِتَضَمُّنِ الَّذِي مَعْنَى الشَّرْطِ، وَقَدْ جَعَلَ ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾[3] كَلَامًا بِرَأْسِهِ فِي قِرَاءَةِ زَيْدٍ، أَيْ: أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ، ثُمَّ اسْتُؤْنِفَ: إِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4]

﴿يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾[5] يَوْمُ الْفَوْجِ الْمَجْمُوعِ، كَقَوْلِهِمْ: ضِحْكَةٌ، لِلْمَضْحُوكِ مِنْهُ.

وَ"يَوْمَ الْجُمَعَةِ "بِفَتْحِ الْمِيمِ: يَوْمُ الْوَقْتِ الْجَامِعِ، كَقَوْلِهِمْ: ضِحْكَةٌ، وَلَعْنَةٌ، وَلِعْبَةٌ، وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ تَثْقِيلٌ لِلْجُمْعَةِ، كَمَا قِيلَ: عُسْرَةٌ فِي عُسْرٍ. وَقُرِئَ: بِهِنَّ جَمِيعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾[6] مَا هِيَ؟

قُلْتُ: هِيَ بَيَانٌ لِإِذَا وَتَفْسِيرٌ لَهُ. وَالنِّدَاءُ: الْأَذَانُ. وَقَالُوا: الْمُرَادُ بِهِ الْأَذَانُ عِنْدَ قُعُودِ الْإِمَامِ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُؤَذِّنٌ وَاحِدٌ، فَكَانَ إِذَا جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ أَذَّنَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَإِذَا نَزَلَ أَقَامَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ عُثْمَانُ وَكَثُرَ النَّاسُ وَتَبَاعَدَتِ الْمَنَازِلُ زَادَ مُؤَذِّنًا

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

آخَرَ، فَأَمَرَ بِالتَّأْذِينِ الْأَوَّلِ عَلَى دَارِهِ الَّتِي تُسَمَّى زَوْرَاءَ، فَإِذَا جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ: أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ الثَّانِي، فَإِذَا نَزَلَ أَقَامَ لِلصَّلَاةِ، فَلَمْ يُعَبْ ذَلِكَ عَلَيْهِ .

وَقِيلَ: أَوَّلُ مَنْ سَمَّاهَا "جُمْعَةً "كَعْبُ بْنُ لُؤَيٍّ، وَكَانَ يُقَالُ لَهَا: الْعَرُوبَةُ. وَقِيلَ: إِنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا: لِلْيَهُودِ يَوْمٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ كُلَّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَلِلنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ، فَهَلُمُّوا نَجْعَلْ لَنَا يَوْمًا نَجْتَمِعُ فِيهِ فَنَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ وَنُصَلِّي. فَقَالُوا: يَوْمُ السَّبْتِ لِلْيَهُودِ، وَيَوْمُ الْأَحَدِ لِلنَّصَارَى، فَاجْعَلُوا يَوْمَ الْعَرُوبَةِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَى أَسْعَدُ بْنِ زُرَارَةَ فَصَلَّى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ رَكْعَتَيْنِ وَذَكَّرَهُمْ، فَسَمَّوْهُ يَوْمَ الْجُمْعَةِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْجُمْعَةِ، فَهِيَ أَوَّلُ جُمْعَةٍ كَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا أَوَّلُ جُمْعَةٍ جَمَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَهِيَ: أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ مُهَاجِرًا نَزَلَ قُبَاءَ عَلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَأَقَامَ بِهَا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالثُّلَاثَاءَ وَالْأَرْبِعَاءَ وَالْخَمِيسَ، وَأَسَّسَ مَسْجِدَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ يَوْمَ الْجُمْعَةِ عَامِدًا الْمَدِينَةَ، فَأَدْرَكَتْهُ صَلَاةُ الْجُمْعَةِ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ فِي بَطْنِ وَادٍ لَهُمْ، فَخَطَبَ وَصَلَّى الْجُمْعَةَ.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: قَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ قَوْلَ الْيَهُودِ فِي ثَلَاثٍ: افْتَخَرُوا بِأَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، فَكَذَّبَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] وَبِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْعَرَبُ لَا كِتَابَ لَهُمْ؛ فَشَبَّهَهُمْ بِالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، وَبِالسَّبْتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُ، فَشَرَعَ اللَّهُ لَهُمُ الْجُمْعَةَ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمْعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمُ الْمَزِيدِ". وَعَنْهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "أَتَانِي جِبْرِيلُ وَفِي كَفِّهِ مِرْآةٌ بَيْضَاءُ وَقَالَ: هَذِهِ الْجُمْعَةُ يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ لِتَكُونَ لَكَ عِيدًا وَلِأُمَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْأَيَّامِ عِنْدَنَا، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ إِلَى الْآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ ". وَعَنْهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِنَّ لِلَّهِ –تَعَالَى– فِي كُلِّ جُمْعَةٍ سِتُّمِائَةِ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ.

وَعَنْ كَعْبٍ: إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَ مِنَ الْبُلْدَانِ: مَكَّةَ، وَمِنَ الشُّهُورِ: رَمَضَانَ، وَمِنَ الْأَيَّامِ: الْجُمُعَةَ. وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "مَنْ مَاتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَوُقِيَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ".

---

[1] سورة ، الآية .

وَفِي الْحَدِيثِ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمْعَةِ قَعَدَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ بِأَيْدِيهِمْ صُحُفٌ مِنْ فِضَّةٍ وَأَقْلَامٌ مِنْ ذَهَبٍ، يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ "وَكَانَتِ الطُّرُقَاتُ فِي أَيَّامِ السَّلَفِ وَقْتَ السَّحَرِ وَبَعْدَ الْفَجْرِ مُغْتَصَّةً بِالْمُبَكِّرِينَ إِلَى الْجُمْعَةِ يَمْشُونَ بِالسُّرُجِ.

وَقِيلَ: أَوَّلُ بِدْعَةٍ أُحْدِثَتْ فِي الْإِسْلَامِ: تَرْكُ الْبُكُورِ إِلَى الْجُمْعَةِ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ بَكَّرَ فَرَأَى ثَلَاثَةَ نَفَرٍ سَبَقُوهُ، فَاغْتَمَّ وَأَخَذَ يُعَاتِبُ نَفْسَهُ يَقُولُ: أَرَاكِ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ وَمَا رَابِعُ أَرْبَعَةٍ بِسَعِيدٍ. وَلَا تُقَامُ الْجُمْعَةُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– إِلَّا فِي مِصْرٍ جَامِعٍ، لِقَوْلِهِ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "لَا جُمْعَةَ وَلَا تَشْرِيقَ وَلَا فِطْرَ وَلَا أَضْحَى إِلَّا فِي مِصْرٍ جَامِعٍ " وَالْمِصْرُ الْجَامِعُ: مَا أُقِيمَتْ فِيهِ الْحُدُودُ وَنُفِّذَتْ فِيهِ الْأَحْكَامُ، وَمِنْ شُرُوطِهَا الْإِمَامُ أَوْ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، لِقَوْلِهِ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "فَمَنْ تَرَكَهَا وَلَهُ إِمَامٌ عَادِلٌ أَوْ جَائِرٌ... الْحَدِيثَ". وَقَوْلِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَرْبَعٌ إِلَى الْوُلَاةِ: الْفَيْءُ، وَالصَّدَقَاتُ، وَالْحُدُودُ، وَالْجُمُعَاتُ".

فَإِنْ أَمَّ رَجُلٌ بِغَيْرِ إِذْنِ الْإِمَامِ أَوْ مَنْ وَلَّاهُ مِنْ قَاضٍ أَوْ صَاحِبِ شُرْطَةٍ: لَمْ يَجُزْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الِاسْتِئْذَانُ فَاجْتَمَعُوا عَلَى وَاحِدٍ، فَصَلَّى بِهِمْ: جَازَ، وَهِيَ تَنْعَقِدُ بِثَلَاثَةٍ سِوَى الْإِمَامِ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ بِأَرْبَعِينَ. وَلَا جُمْعَةَ عَلَى الْمُسَافِرِينَ وَالْعَبِيدِ وَالنِّسَاءِ وَالْمَرْضَى وَالزَّمْنَى، وَلَا عَلَى الْأَعْمَى عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَلَا عَلَى الشَّيْخِ الَّذِي لَا يَمْشِي إِلَّا بِقَائِدٍ.

وَقَرَأَ عُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمْ: "فَامْضُوا".

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: "فَاسْعَوْا". فَقَالَ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذَا؟ قَالَ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَقَالَ: لَا يَزَالُ يَقْرَأُ بِالْمَنْسُوخِ، لَوْ كَانَتْ "فَاسْعَوْا" لَسَعَيْتُ حَتَّى يَسْقُطَ رِدَائِي.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ الْقَصْدُ دُونَ الْعَدْوِ، وَالسَّعْيُ: التَّصَرُّفُ فِي كُلِّ عَمَلٍ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾[1]]الصَّافَّاتِ: 102.[، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾[2]]النَّجْمِ: 39].

وَعَنِ الْحَسَنِ: لَيْسَ السَّعْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَلَكِنَّهُ عَلَى النِّيَّاتِ وَالْقُلُوبِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ –رَحِمَهُ اللَّهُ– فِي مُوَطَّئِهِ: أَنَّ عُمَرَ سَمِعَ الْإِقَامَةَ، وَهُوَ بِالْبَقِيعِ، فَأَسْرَعَ الْمَشْيَ. قَالَ مُحَمَّدٌ: وَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ مَا لَمْ يُجْهِدْ نَفْسَهُ.

﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] إِلَى الْخُطْبَةِ وَالصَّلَاةِ، وَلِتَسْمِيَةِ اللَّهِ الْخُطْبَةَ ذِكْرًا لَهُ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: إِنِ اقْتَصَرَ الْخَطِيبُ عَلَى مِقْدَارٍ يُسَمَّى ذِكْرًا لِلَّهِ كَقَوْلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ : جَازَ.

وَعَنْ عُثْمَانَ أَنَّهُ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَارْتُجَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا يُعِدَّانِ لِهَذَا الْمَقَامِ مَقَالًا، وَإِنَّكُمْ إِلَى إِمَامٍ فَعَّالٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَوَّالٍ، وَسَتَأْتِيكُمُ الْخُطَبُ، ثُمَّ نَزَلَ، وَكَانَ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ.

وَعِنْدَ صَاحِبَيْهِ وَالشَّافِعِيِّ: لَا بُدَّ مِنْ كَلَامٍ يُسَمَّى خُطْبَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُفَسَّرُ ذِكْرُ اللَّهِ بِالْخُطْبَةِ وَفِيهَا ذِكْرُ غَيْرِ اللَّهِ؟

قُلْتُ: مَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَى خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ وَأَتْقِيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ فَهُوَ فِي حُكْمِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ ذِكْرِ الظَّلَمَةِ وَأَلْقَابِهِمْ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالدُّعَاءِ لَهُمْ، وَهُمْ أَحِقَّاءُ بِعَكْسِ ذَلِكَ، فَمِنْ ذِكْرِ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَلَى مَرَاحِلَ، وَإِذَا قَالَ الْمُنْصِتُ لِلْخُطْبَةِ لِصَاحِبِهِ "صَهْ" فَقَدْ لَغَا، أَفَلَا يَكُونُ الْخَطِيبُ الْغَالِي فِي ذَلِكَ لَاغِيًا، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غُرْبَةِ الْإِسْلَامِ وَنَكَدِ الْأَيَّامِ.

أَرَادَ الْأَمْرَ بِتَرْكِ مَا يُذْهِلُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ مِنْ شَوَاغِلِ الدُّنْيَا.

وَإِنَّمَا خَصَّ الْبَيْعَ مِنْ بَيْنِهَا، لِأَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ يَهْبِطُ النَّاسُ فِيهِ مِنْ قُرَاهُمْ وَبَوَادِيهِمْ، وَيَنْصِبُونَ إِلَى الْمِصْرِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَوَقْتُ هُبُوطِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ وَاغْتِصَاصِ الْأَسْوَاقِ بِهِمْ إِذَا انْتَفَخَ النَّهَارُ وَتَعَالَى الضُّحَى وَدَنَا وَقْتُ الظَّهِيرَةِ، وَحِينَئِذٍ تَحَرُّ التِّجَارَةُ وَيَتَكَاثَرُ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ.

فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مَظِنَّةَ الذُّهُولِ بِالْبَيْعِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالْمُضِيِّ إِلَى الْمَسْجِدِ، قِيلَ لَهُمْ: بَادِرُوا تِجَارَةَ الْآخِرَةِ، وَاتْرُكُوا تِجَارَةَ الدُّنْيَا، وَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَنْفَعُ مِنْهُ وَأَرْبَحُ.

---

[1] سورة ، الآية .

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[1] الَّذِي نَفْعُهُ يَسِيرٌ وَرِبحُهُ مُقَارِبٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ الْبَيْعُ فِي هَذَا الْوَقْتِ مَأْمُورًا بِتَرْكِهِ مُحَرَّمًا، فَهَلْ هُوَ فَاسِدٌ؟

قُلْتُ: عَامَّةُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يُوجِبُ فَسَادَ الْبَيْعِ. قَالُوا: لِأَنَّ الْبَيْعَ لَمْ يَحْرُمْ لِعَيْنِهِ، وَلَكِنْ لِمَا فِيهِ مِنَ الذُّهُولِ عَنِ الْوَاجِبِ، فَهُوَ كَالصَّلَاةِ فِي الْأَرْضِ الْمَغْصُوبَةِ وَالثَّوْبِ الْمَغْصُوبِ، وَالْوُضُوءِ بِمَاءٍ مَغْصُوبٍ، وَعَنْ بَعْضِ النَّاسِ: أَنَّهُ فَاسِدٌ.

ثُمَّ أَطْلَقَ لَهُمْ مَا حُظِرَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ قَضَاءِ الصَّلَاةِ مِنَ الِانْتِشَارِ وَابْتِغَاءِ الرِّبْحِ، مَعَ التَّوْصِيَةِ بِإِكْثَارِ الذِّكْرِ، وَأَنْ لَا يُلْهِيَهُمْ شَيْءٌ مِنْ تِجَارَةٍ وَلَا غَيْرِهَا عَنْهُ، وَأَنْ تَكُونَ هِمَمُهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَأَوْقَاتِهِمْ مُوكَلَةً بِهِ لَا يَنْفَضُّونَ عَنْهُ، لِأَنَّ فَلَاحَهُمْ فِيهِ وَفَوْزَهُمْ مَنُوطٌ بِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمْ يُؤْمَرُوا بِطَلَبِ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، إِنَّمَا هُوَ عِيَادَةُ الْمَرْضَى وَحُضُورُ الْجَنَائِزِ وَزِيَارَةُ أَخٍ فِي اللَّهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: طَلَبُ الْعِلْمِ.

وَقِيلَ: صَلَاةُ التَّطَوُّعِ: وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ كَانَ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بَعْدَ الْجُمْعَةِ بِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا نَظَرًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[2]

رُوِيَ: أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَصَابَهُمْ جُوعٌ وَغَلَاءٌ شَدِيدٌ، فَقَدِمَ دَحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ بِتِجَارَةٍ مِنْ زَيْتِ الشَّامِ وَالنَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَامُوا إِلَيْهِ، خَشُوا أَنْ يُسْبَقُوا إِلَيْهِ، فَمَا بَقِيَ مَعَهُ إِلَّا يَسِيرٌ.

قِيلَ: ثَمَانِيَةٌ، وَأَحَدَ عَشَرَ، وَاثْنَا عَشَرَ، وَأَرْبَعُونَ، فَقَالَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ خَرَجُوا جَمِيعًا لَأَضْرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْوَادِيَ نَارًا"، وَكَانُوا إِذَا أَقْبَلَتِ الْعِيرُ اسْتَقْبَلُوهَا بِالطَّبْلِ وَالتَّصْفِيقِ، فَهُوَ الْمُرَادُ بِاللَّهْوِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: فَعَلُوا ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ مَقْدِمِ عِيرٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنِ اتَّفَقَ تَفَرُّقُ النَّاسِ عَنِ الْإِمَامِ فِي صَلَاةِ الْجُمْعَةِ كَيْفَ يَصْنَعُ؟

قُلْتُ: إِنْ بَقِيَ وَحْدَهُ أَوْ مَعَ أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ، فَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ: يَسْتَأْنِفُ الظُّهْرَ إِذَا نَفَرُوا عَنْهُ قَبْلَ الرُّكُوعِ. وَعِنْدَ صَاحِبَيْهِ: إِذَا كَبَّرَ وَهُمْ مَعَهُ مَضَى فِيهَا. وَعِنْدَ زُفَرَ: إِذَا نَفَرُوا قَبْلَ التَّشَهُّدِ بَطَلَتْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: "إِلَيْهَا" وَقَدْ ذَكَرَ شَيْئَيْنِ؟

قُلْتُ: تَقْدِيرُهُ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً انْفَضُّوا إِلَيْهَا، أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهِ، فَحَذَفَ أَحَدَهُمَا لِدَلَالَةِ الْمَذْكُورِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: "انْفَضُّوا إِلَيْهِ". وَقِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: "لَهْوًا أَوْ تِجَارَةً انْفَضُّوا إِلَيْهَا". وَقُرِئَ: "إِلَيْهِمَا".

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْجُمُعَةِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ أَتَى الْجُمُعَةَ وَبِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَأْتِهَا فِي أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ".

سورة المرأة ون

سورة المنافقون

مَدَنِيَّةٌ،
وَهِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْحَجِّ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾[1]

أَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾[2] شَهَادَةٌ وَاطَأَتْ فِيهَا قُلُوبُهُمْ أَلْسِنَتَهُمْ. فَقَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: قَالُوا ذَلِكَ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾[3] أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ: نَشْهَدُ، وَادِّعَائِهِمْ فِيهِ الْمُوَاطَأَةَ. أَوْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِيهِ، لِأَنَّهُ إِذَا خَلَا عَنِ الْمُوَاطَأَةِ لَمْ يَكُنْ شَهَادَةً فِي الْحَقِيقَةِ، فَهُمْ كَاذِبُونَ فِي تَسْمِيَتِهِ شَهَادَةً. أَوْ أَرَادَ: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾[4] كَذِبٌ وَخَبَرٌ عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ حَالُ الْمُخْبَرِ عَنْهُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾[1]؟

قُلْتُ: لَوْ قَالَ: قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمُ الْكَاذِبُونَ، لَكَانَ يُوهِمُ أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا كَذِبٌ، فَوَسَّطَ بَيْنَهُمَا قَوْلَهُ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾[2]؟ لِيُمِيطَ هَذَا الْإِيهَامَ.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾[3] يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ أَنَّ قَوْلَهُمْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ يَمِينٌ مِنْ أَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةِ، لِأَنَّ الشَّهَادَةَ تَجْرِي مَجْرَى الْحَلِفِ فِيمَا يُرَادُ بِهِ مِنَ التَّوْكِيدِ، يَقُولُ الرَّجُلُ: أَشْهَدُ وَأَشْهَدُ بِاللَّهِ، وَأَعْزِمُ وَأَعْزِمُ بِاللَّهِ فِي مَوْضِعِ أُقْسِمُ وَأُولِي.

وَبِهِ اسْتَشْهَدَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى أَنَّ "أَشْهَدُ" يَمِينٌ

. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِلْمُنَافِقِينَ فِي اسْتِجْنَانِهِمْ بِالْأَيْمَانِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِيمَانَهُمْ، أَيْ: مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِأَلْسِنَتِهِمْ. وَيُعَضِّدُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾[4].

﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5] مِنْ نِفَاقِهِمْ وَصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

وَفِي ﴿سَاءَ﴾[6] مَعْنَى التَّعَجُّبِ الَّذِي هُوَ تَعْظِيمُ أَمْرِهِمْ عِنْدَ السَّامِعِينَ.

"ذَلِكَ" إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[7]، أَيْ: ذَلِكَ الْقَوْلُ الشَّاهِدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ أَسْوَأُ النَّاسِ أَعْمَالًا بِسَبَبِ ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾[8] أَوْ إِلَى مَا وُصِفَ مِنْ حَالِهِمْ فِي النِّفَاقِ وَالْكَذِبِ وَالِاسْتِجْنَانِ بِالْأَيْمَانِ، أَيْ: ذَلِكَ كُلُّهُ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[9]: فَجَسَرُوا عَلَى كُلِّ عَظِيمَةٍ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: الْمُنَافِقُونَ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا عَلَى الْكُفْرِ الثَّابِتِ الدَّائِمِ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ﴾[1]؟

قُلْتُ: فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

- أَحَدُهَا: آمَنُوا، أَيْ: نَطَقُوا بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ وَفَعَلُوا كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ كَفَرُوا: ثُمَّ ظَهَرَ كُفْرُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَبَيَّنَ بِمَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ حَقًّا، فَنَحْنُ حَمِيرٌ، وَقَوْلِهِمْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: أَيَطْمَعُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ تُفْتَحَ لَهُ قُصُورُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ هَيْهَاتَ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾[2]]التَّوْبَةِ: 74]. أَيْ: وَظَهَرَ كُفْرُهُمْ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمُوا. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[3]]التَّوْبَةِ: 666].

- وَالثَّانِي: آمَنُوا، أَيْ نَطَقُوا بِالْإِيمَانِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ نَطَقُوا بِالْكُفْرِ عِنْدَ شَيَاطِينِهِمُ اسْتِهْزَاءً بِالْإِسْلَامِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[4] إِلَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[5]]الْبَقَرَةِ: 14]. أَنْ يُرَادَ أَهْلُ الرِّدَّةِ مِنْهُمْ.

وَقُرِئَ: "فَطَبَعَ قُلُوبَهُمْ"، وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: "فَطَبَعَ اللَّهُ".

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[6]

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ رَجُلًا جَسِيمًا صَبِيحًا، فَصِيحًا، ذَلِقَ اللِّسَانِ وَقَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي مِثْلِ صِفَتِهِ، وَهُمْ رُؤَسَاءُ الْمَدِينَةِ، وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَسَلَّمَ- فَيَسْتَنِدُونَ فِيهِ، وَلَهُمْ جَهَارَةُ الْمَنَاظِرِ وَفَصَاحَةُ الْأَلْسُنِ، فَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَنْ حَضَرَ يُعْجَبُونَ بِهَيَاكِلِهِمْ وَيَسْمَعُونَ إِلَى كَلَامِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾[1]؟

قُلْتُ: شُبِّهُوا فِي اسْتِنَادِهِمْ -وَمَا هُمْ إِلَّا أَجْرَامٌ خَالِيَةٌ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْخَيْرِ- بِالْخُشُبِ الْمُسَنَّدَةِ إِلَى الْحَائِطِ، وَلِأَنَّ الْخَشَبَ إِذَا انْتُفِعَ بِهِ كَانَ فِي سَقْفٍ أَوْ جِدَارٍ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ مَظَانِّ الِانْتِفَاعِ، وَمَا دَامَ مَتْرُوكًا فَارِغًا غَيْرَ مُنْتَفَعٍ بِهِ أُسْنِدَ إِلَى الْحَائِطِ، فَشُبِّهُوا بِهِ فِي عَدَمِ الِانْتِفَاعِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْخُشُبِ الْمُسَنَّدَةِ: الْأَصْنَامُ الْمَنْحُوتَةُ مِنَ الْخُشُبِ الْمُسَنَّدَةِ إِلَى الْحِيطَانِ، شُبِّهُوا بِهَا فِي حُسْنِ صُوَرِهِمْ وَقِلَّةِ جَدْوَاهُمْ.

وَالْخِطَابُ فِي ﴿رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ﴾[2] لِرَسُولِ اللَّهِ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ يُخَاطَبُ.

وَقُرِئَ: "يُسْمَعُ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَمَوْضِعُ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾[3] رَفْعٌ عَلَى: هُمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ. أَوْ هُوَ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ لَا مَحَلَّ لَهُ.

وَقُرِئَ: "خُشْبٌ" جَمْعُ خَشَبَةٍ، كَبَدَنَةٍ وَبُدْنٍ. وَخُشُبٌ، كَثَمَرَةٍ وَثُمُرٍ. وَخَشَبٌ، كَمَدَرَةٍ وَمَدَرٍ، وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَعَنِ الْيَزِيدِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي "خُشْبٍ": جَمْعِ خَشْبَاءَ، وَالْخَشْبَاءُ: الْخَشَبَةُ الَّتِي دُعِرَ جَوْفُهَا: شُبِّهُوا بِهَا فِي نِفَاقِهِمْ وَفَسَادِ بَوَاطِنِهِمْ.

﴿عَلَيْهِمْ﴾[4] ثَانِي مَفْعُولَيْ يَحْسَبُونَ، أَيْ: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ وَاقِعَةً عَلَيْهِمْ وَضَارَّةً لَهُمْ، لِجُبْنِهِمْ وَهَلَعِهِمْ وَمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ: إِذَا نَادَى مُنَادٍ فِي الْعَسْكَرِ أَوِ انْفَلَتَتْ دَابَّةٌ أَوْ أُنْشِدَتْ ضَالَّةٌ، ظَنُّوهُ إِيقَاعًا بِهِمْ.

وَقِيلَ: كَانُوا عَلَى وَجِلٍ مِنْ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِمْ مَا يَهْتِكُ أَسْتَارَهُمْ وَيُبِيحُ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ. وَمِنْهُ أَخَذَ الْأَخْطَلُ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

مَا زِلْتَ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلًا تَكِرُّ عَلَيْهِمُ وَرِجَالَا

يُوقَفُ عَلَى ﴿عَلَيْهِمْ﴾[1] وَيُبْتَدَأُ ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾[2]، أَيِ الْكَامِلُونَ فِي الْعَدَاوَةِ: لِأَنَّ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ الْعَدُوُّ الْمُدَاجِي، الَّذِي يُكَاشِرُكَ وَتَحْتَ ضُلُوعِهِ الدَّاءُ الدَّوِيُّ، ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾[3]: وَلَا تَغْتَرِرْ بِظَاهِرِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾[4] الْمَفْعُولَ الثَّانِيَ، كَمَا لَوْ طَرَحْتَ الضَّمِيرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَحَقُّهُ أَنْ يُقَالَ: هِيَ الْعَدُوُّ.

قُلْتُ: مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى الْخَبَرِ، كَمَا ذُكِرَ فِي ﴿هَذَا رَبِّي﴾[5]]الْأَنْعَامِ: 76]. وَأَنْ يُقَدَّرَ مُضَافٌ مَحْذُوفٌ عَلَى: يَحْسَبُونَ كُلَّ أَهْلِ صَيْحَةٍ.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾[6] دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ، وَطَلَبٌ مِنْ ذَاتِهِ أَنْ يَلْعَنَهُمْ وَيُخْزِيَهُمْ. أَوْ تَعْلِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْعُوا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[7]: كَيْفَ يَعْدِلُونَ عَنِ الْحَقِّ تَعَجُّبًا مِنْ جَهْلِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[8]

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾[9]: عَطَفُوهَا وَأَمَالُوهَا إِعْرَاضًا عَنْ ذَلِكَ وَاسْتِكْبَارًا. وَقُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ لِلتَّكْثِيرِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾[1] الِاسْتِغْفَارُ وَعَدَمُهُ، لِأَنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ وَلَا يَعْتَدُّونَ بِهِ لِكُفْرِهِمْ. أَوْ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ.

وَقُرِئَ: "اسْتَغْفَرْتَ" عَلَى حَذْفِ حَرْفِ الِاسْتِفْهَامِ، لِأَنَّ "أَمْ" الْمُعَادِلَةُ تَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ "آسْتَغْفَرْتَ"، إِشْبَاعًا لِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ لِلْإِظْهَارِ وَالْبَيَانِ، لَا قَلْبًا لِهَمْزَةِ الْوَصْلِ أَلِفًا، كَمَا فِي: آلسِّحْرُ، وَآللَّهُ.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]

رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– حِينَ لَقِيَ بَنِي الْمُصْطَلِقِ عَلَى الْمُرَيْسِيعِ، وَهُوَ مَاءٌ لَهُمْ، وَهَزَمَهُمْ وَقَتَلَ مِنْهُمْ: ازْدَحَمَ عَلَى الْمَاءِ جَهْجَاهُ بْنُ سَعِيدٍ أَجِيرٌ لِعُمَرَ يَقُودُ فَرَسَهُ، وَسِنَانٌ الْجُهَنِيُّ حَلِيفٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَاقْتَتَلَا، فَصَرَخَ جَهْجَاهٌ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ : وَسِنَانٌ : يَا لَلْأَنْصَارِ، فَأَعَانَ جَهْجَاهًا جَعَّالٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَلَطَمَ سِنَانًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِجَعَّالٍ . وَأَنْتَ هُنَاكَ، وَقَالَ: مَا صَحِبْنَا مُحَمَّدًا إِلَّا لِنَلْطُمَ، وَاللَّهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُهُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، عَنَى بِالْأَعَزِّ: نَفْسَهُ، وَبِالْأَذَلِّ: رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ثُمَّ قَالَ لِقَوْمِهِ: مَاذَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ؟ أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْ جَعَّالٍ وَذَوِيهِ فَضْلَ الطَّعَامِ لَمْ يَرْكَبُوا رِقَابَكُمْ، وَلَأَوْشَكُوا أَنْ يَتَحَوَّلُوا عَنْكُمْ فَلَا تُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِ مُحَمَّدٍ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَهُوَ حَدَثٌ، فَقَالَ: أَنْتَ وَاللَّهِ الذَّلِيلُ الْقَلِيلُ الْمُبْغَضُ فِي قَوْمِكَ، وَمُحَمَّدٌ فِي عِزٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ وَقُوَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: اسْكُتْ، فَإِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ، فَأَخْبَرَ زَيْدٌ رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ يَا رَسُولَ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

اللَّهِ، فَقَالَ: إِذَنْ تَرْعِدُ أُنُفٌ كَثِيرَةٌ بِيَثْرِبَ. قَالَ: فَإِنْ كَرِهْتَ أَنْ يَقْتُلَهُ مُهَاجِرِيٌّ، فَأْمُرْ بِهِ أَنْصَارِيًّا. فَقَالَ: فَكَيْفَ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؟ وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– لِعَبْدِ اللَّهِ: أَنْتَ صَاحِبُ الْكَلَامِ الَّذِي بَلَغَنِي؟ قَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا قُلْتُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّ زَيْدًا لَكَاذِبٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾[1]. فَقَالَ الْحَاضِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: شَيْخُنَا وَكَبِيرُنَا لَا تُصَدِّقْ عَلَيْهِ كَلَامَ غُلَامٍ، عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ وَهِمَ.

وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَهُ: لَعَلَّكَ غَضِبْتَ عَلَيْهِ، قَالَ: لَا، قَالَ: فَلَعَلَّهُ أَخْطَأَ سَمْعُكَ، قَالَ: لَا، قَالَ: فَلَعَلَّهُ شُبِّهَ عَلَيْكَ، قَالَ: لَا. فَلَمَّا نَزَلَتْ: لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ زَيْدًا مِنْ خَلْفِهِ فَعَرَكَ أُذُنَهُ وَقَالَ: وَفَتْ أُذُنُكَ يَا غُلَامُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ وَكَذَّبَ الْمُنَافِقِينَ.

وَلَمَّا أَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ: اعْتَرَضَهُ ابْنُهُ حَبَّابٌ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ غَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ اسْمَهُ، وَقَالَ: إِنَّ حَبَّابًا اسْمُ شَيْطَانٍ. وَكَانَ مُخْلِصًا وَقَالَ: وَرَاءَكَ، وَاللَّهِ، لَا تَدْخُلُهَا حَتَّى تَقُولَ: رَسُولُ اللَّهِ الْأَعَزُّ وَأَنَا الْأَذَلُّ، فَلَمْ يَزَلْ حَبِيسًا فِي يَدِهِ حَتَّى أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ بِتَخْلِيَتِهِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: لَئِنْ لَمْ تُقِرَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْعِزِّ لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، فَقَالَ: وَيْحَكَ، أَفَاعِلٌ أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا رَأَى مِنْهُ الْجِدَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِابْنِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ عَنْ رَسُولِهِ وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا، فَلَمَّا بَانَ كَذِبُ عَبْدِ اللَّهِ قِيلَ لَهُ: قَدْ نَزَلَتْ فِيكَ آيٌ شِدَادٌ، فَاذْهَبْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَسْتَغْفِرْ لَكَ، فَلَوَّى رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَرْتُمُونِي أَنْ أُومِنَ فَآمَنْتُ، وَأَمَرْتُمُونِي أَنْ أُزَكِّيَ مَالِي فَزَكَّيْتُ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ أَسْجُدَ لِمُحَمَّدٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾[2]، وَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا أَيَّامًا قَلَائِلَ حَتَّى اشْتَكَى وَمَاتَ.

﴿يَنْفَضُّوا﴾[3]: يَتَفَرَّقُوا.

وَقُرِئَ: "يُنْفِضُوا" مِنْ أَنْفَضَ الْقَوْمُ إِذَا فَنِيَتْ أَزْوَادُهُمْ. وَحَقِيقَتُهُ: حَانَ لَهُمْ أَنْ يُنْفِضُوا مَزَاوِدَهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]: وَبِيَدِهِ الْأَرْزَاقُ وَالْقَسْمُ، وَهُوَ رَازِقُهُمْ مِنْهَا، وَإِنْ أَبَى أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَأَضْرَابَهُ جَاهِلُونَ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾[2] ذَلِكَ، فَيَهْذُونَ بِمَا يُزَيِّنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ.

وَقُرِئَ: "لِيَخْرُجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ" بِفَتْحِ الْيَاءِ. وَلِيُخْرِجَنَّ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

قَرَأَ الْحَسَنُ وَابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: لَنَخْرُجَنَّ، بِالنُّونِ وَنَسَبَ الْأَعَزَّ وَالْأَذَلَّ. وَمَعْنَاهُ: خُرُوجَ الْأَذَلِّ. أَوْ إِخْرَاجَ الْأَذَلِّ. أَوْ مِثْلَ الْأَذَلِّ.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾[3]: الْغَلَبَةُ وَالْقُوَّةُ، وَلِمَنْ أَعَزَّهُ اللَّهُ وَأَيَّدَهُ مِنْ رَسُولِهِ وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمُ الْأَخِصَّاءُ بِذَلِكَ، كَمَا أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالْهَوَانَ لِلشَّيْطَانِ وَذَوِيهِ مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَعَنْ بَعْضِ الصَّالِحَاتِ وَكَانَتْ فِي هَيْئَةٍ رَثَّةٍ: أَلَسْتُ عَلَى الْإِسْلَامِ؟ وَهُوَ الْعِزُّ الَّذِي لَا ذُلَّ مَعَهُ، وَالْغَنَى الَّذِي لَا فَقْرَ مَعَهُ.

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّ فِيكَ تِيهًا، قَالَ: لَيْسَ بِتِيهٍ، وَلَكِنَّهُ عِزَّةٌ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[4]

﴿لا تُلْهِكُمْ﴾[5] لَا تَشْغَلْكُمْ ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾[6] وَالتَّصَرُّفُ فِيهَا: وَالسَّعْيُ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِهَا: وَالتَّهَالُكُ عَلَى طَلَبِ النَّمَاءِ فِيهَا بِالتِّجَارَةِ وَالِاغْتِلَالِ، وَابْتِغَاءِ النِّتَاجِ وَالتَّلَذُّذِ بِهَا، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِمَنَافِعِهَا، ﴿وَلا أَوْلادُكُمْ﴾[7]: وَسُرُورُكُمْ بِهِمْ، وَشَفَقَتُكُمْ عَلَيْهِمْ، وَالْقِيَامُ بِمُؤَنِهِمْ، وَتَسْوِيَةُ مَا

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

يُصْلِحُهُمْ مِنْ مَعَايِشِهِمْ فِي حَيَاتِكُمْ وَبَعْدَ مَمَاتِكُمْ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ قَدْرَ مَنْفَعَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَأَنَّهُ أَهْوَنُ شَيْءٍ وَأَدْوَنُهُ فِي جَنْبِ مَا عِنْدَ اللَّهِ.

﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] وَإِيثَارِهِ عَلَيْهَا، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾[2] يُرِيدُ الشُّغْلَ بِالدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ.

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3] فِي تِجَارَتِهِمْ حَيْثُ بَاعُوا الْعَظِيمَ الْبَاقِيَ بِالْحَقِيرِ الْفَانِي.

وَقِيلَ: ذَكَرَ اللَّهُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: جَمِيعُ الْفَرَائِضِ، كَأَنَّهُ قَالَ: عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

وَقِيلَ: الْقُرْآنُ.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: الْجِهَادُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4]

﴿مِنْ﴾[5] فِي ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[6] لِلتَّبْعِيضِ.

وَالْمُرَادُ: الْإِنْفَاقُ الْوَاجِبُ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾[7] مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرَى دَلَائِلَ الْمَوْتِ، وَيُعَايِنَ مَا يَيْأَسُ مَعَهُ مِنَ الْإِمْهَالِ، وَيَضِيقَ بِهِ الْخِنَاقُ، وَيَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ وَيَفُوتَ وَقْتُ الْقَبُولِ، فَيَتَحَسَّرَ عَلَى الْمَنْعِ، وَيَغَصَّ أَنَامِلَهُ عَلَى فَقْدِ مَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: تَصَدَّقُوا قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، فَلَا تُقْبَلُ تَوْبَةٌ، وَلَا يَنْفَعُ عَمَلٌ. وَعَنْهُ: مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ لَهُ مَالٌ أَنْ يُزَكِّيَ، وَإِذَا أَطَاقَ الْحَجَّ أَنْ يَحُجَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ الْكَرَّةَ فَلَا يُعْطَاهَا. وَعَنْهُ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ، وَوَاللَّهِ لَوْ رَأَى خَيْرًا لَمَا سَأَلَ الرَّجْعَةَ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ، يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَرَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ بِهِ قُرْآنًا، يَعْنِي: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَهُمُ الْمُخَاطَبُونَ بِهَا.

وَكَذَا عَنِ الْحَسَنِ : مَا مِنْ أَحَدٍ لَمْ يُزَكِّ وَلَمْ يَصُمْ وَلَمْ يَحُجَّ إِلَّا سَأَلَ الرَّجْعَةَ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

﴿لَوْلا أَخَّرْتَنِي﴾[1]. وَقُرِئَ: "أَخَّرْتَنْ"، يُرِيدُ: هَلَّا أَخَّرْتَ مَوْتَى ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[2] إِلَى زَمَانٍ قَلِيلٍ "فَأَصَّدَّقَ".

وَقَرَأَ أُبَيٌّ: فَأَتَصَدَّقَ عَلَى الْأَصْلِ.

وَقُرِئَ: "وَأَكُنْ"، عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ "فَأَصَّدَّقَ" كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ أَخَّرْتَنِي أَصَّدَّقْ وَأَكُنْ. وَمَنْ قَرَأَ: "وَأَكُونَ" عَلَى النَّصْبِ، فَعَلَى اللَّفْظِ.

وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: "وَأَكُونُ"، عَلَى "وَأَنَا أَكُونُ" عِدَةٌ مِنْهُ بِالصَّلَاحِ.

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ﴾[3] نَفْيٌ لِلتَّأْخِيرِ عَلَى وَجْهِ التَّأْكِيدِ الَّذِي مَعْنَاهُ مُنَافَاةُ الْمَنْفِيِّ الْحِكْمَةَ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّكُمْ إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ تَأْخِيرَ الْمَوْتِ عَنْ وَقْتِهِ مِمَّا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ. وَأَنَّهُ هَاجِمٌ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَعْمَالِكُمْ فَمُجَازٍ عَلَيْهَا، مِنْ مَنْعٍ وَاجِبٍ وَغَيْرِهِ: لَمْ تَبْقَ إِلَّا الْمُسَارَعَةُ إِلَى الْخُرُوجِ عَنْ عُهْدَةِ الْوَاجِبَاتِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلِقَاءِ اللَّهِ.

وَقُرِئَ: "تَعْمَلُونَ"، بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ. عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [الْمُنَافِقِينَ] بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

سورة يس

سُورَةُ التَّغَابُنِ

مُخْتَلَفٌ فِيهَا،
وَهِيَ ثَمَانِ عَشْرَةَ آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [التَّحْرِيمِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1]

قُدِّمَ الظَّرْفَانِ لِيَدُلَّ بِتَقْدِيمِهِمَا عَلَى مَعْنَى اخْتِصَاصِ الْمُلْكِ وَالْحَمْدِ بِاللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُلْكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَهُ، لِأَنَّهُ مُبْدِئُ كُلِّ شَيْءٍ وَمُبْدِعُهُ، وَالْقَائِمُ بِهِ، وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ الْحَمْدُ، لِأَنَّ أُصُولَ النِّعَمِ وَفُرُوعَهَا مِنْهُ.

وَأَمَّا مُلْكُ غَيْرِهِ فَتَسْلِيطٌ مِنْهُ وَاسْتِرْعَاءٌ، وَحَمْدُهُ اعْتِدَادٌ بِأَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ جَرَتْ عَلَى يَدِهِ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[2]، يَعْنِي: فَمِنْكُمْ آتٍ بِالْكُفْرِ وَفَاعِلٌ لَهُ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَمِنْكُمْ آتٍ بِالْإِيمَانِ وَفَاعِلٌ لَهُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[1]]الْحَدِيدِ: 26.[

﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2]، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3]، أَيْ: عَالِمٌ بِكُفْرِكُمْ وَإِيمَانِكُمُ اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ عَمَلِكُمْ.

وَالْمَعْنَى: هُوَ الَّذِي تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِأَصْلِ النِّعَمِ الَّذِي هُوَ الْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ عَنِ الْعَدَمِ، فَكَانَ يَجِبُ أَنْ تَنْظُرُوا النَّظَرَ الصَّحِيحَ، وَتَكُونُوا بِأَجْمَعِكُمْ عِبَادًا شَاكِرِينَ، فَمَا فَعَلْتُمْ مَعَ تَمَكُّنِكُمْ، بَلْ تَشَعَّبْتُمْ شُعَبًا، وَتَفَرَّقْتُمْ أُمَمًا، فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ، وَقَدَّمَ الْكُفْرَ، لِأَنَّهُ الْأَغْلَبُ عَلَيْهِمْ وَالْأَكْثَرُ فِيهِمْ.

وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ بِالْخَلْقِ وَهُمُ الدَّهْرِيَّةُ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: نَعَمْ، إِنَّ الْعِبَادَ هُمُ الْفَاعِلُونَ لِلْكُفْرِ، وَلَكِنْ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ الْحَكِيمِ أَنَّهُ إِذَا خَلَقَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا إِلَّا الْكُفْرَ وَلَمْ يَخْتَارُوا غَيْرَهُ، فَمَا دَعَاهُ إِلَى خَلْقِهِمْ مَعَ عِلْمِهِ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ؟ وَهَلْ خَلَقَ الْقَبِيحَ وَخَلَقَ فَاعِلَ الْقَبِيحِ إِلَّا وَاحِدٌ؟ وَهَلْ مِثْلُهُ إِلَّا مِثْلَ مَنْ وَهَبَ سَيْفًا بَاتِرًا لِمَنْ شُهِرَ بِقَطْعِ السَّبِيلِ وَقَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ فَقَتَلَ بِهِ مُؤْمِنًا؟ أَمَا يُطْبِقُ الْعُقَلَاءُ عَلَى ذَمِّ الْوَاهِبِ وَتَغْبِيفِهِ وَالدَّقِّ فِي فَرْوَتِهِ كَمَا يَذُمُّونَ الْقَاتِلَ؟ بَلْ إِنْحَاؤُهُمْ بِاللَّوَائِمِ عَلَى الْوَاهِبِ أَشَدُّ؟

قُلْتُ: قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ عَالِمٌ بِقُبْحِ الْقَبِيحِ عَالِمٌ بِغِنَاهُ عَنْهُ، فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا حَسَنَةٌ، وَخَلْقُ فَاعِلِ الْقَبِيحِ فِعْلُهُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ حَسَنًا، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ حَسَنٌ، وَخَفَاءُ وَجْهِ الْحُسْنِ عَلَيْنَا لَا يَقْدَحُ فِي حُسْنِهِ، كَمَا لَا يَقْدَحُ فِي حُسْنِ أَكْثَرِ مَخْلُوقَاتِهِ جَهْلُنَا بِدَاعِي الْحِكْمَةِ إِلَى خَلْقِهَا.

﴿بِالْحَقِّ﴾[4]: بِالْغَرَضِ الصَّحِيحِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَهُوَ أَنْ جَعَلَهَا مَقَارَّ الْمُكَلَّفِينَ لِيَعْمَلُوا فَيُجَازِيَهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1]، وَقُرِئَ: "صِوَرَكُمْ" بِالْكَسْرِ، لِتَشْكُرُوا. وَإِلَيْهِ مَصِيرُكُمْ فَجَزَاؤُكُمْ عَلَى الشُّكْرِ وَالتَّفْرِيطِ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَحْسَنَ صُوَرَكُمْ؟ قُلْتُ: جَعَلَهُمْ أَحْسَنَ الْحَيَوَانِ كُلِّهِ وَأَبْهَاهُ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ صُورَتُهُ عَلَى خِلَافِ مَا يَرَى مِنْ سَائِرِ الصُّوَرِ. وَمِنْ حُسْنِ صُورَتِهِ أَنَّهُ خُلِقَ مُنْتَصِبًا غَيْرَ مُنْكَبٍّ، كَمَا قَالَ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]]التِّينِ: 44].

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَمْ مِنْ دَمِيمٍ مُشَوَّهِ الصُّورَةِ سَمِجِ الْخِلْقَةِ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ؟

قُلْتُ: لَا سَمَاجَةَ ثَمَّ. وَلَكِنَّ الْحَسَنَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَعَانِي عَلَى طَبَقَاتٍ وَمَرَاتِبَ، فَلِانْحِطَاطِ بَعْضِ الصُّوَرِ عَنْ مَرَاتِبِ مَا فَوْقَهَا انْحِطَاطًا بَيِّنًا وَإِضَافَتِهَا إِلَى الْمُوَفَّى عَلَيْهَا لَا تُسْتَمْلَحُ، وَإِلَّا فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ الْحَسَنِ غَيْرُ خَارِجَةٍ عَنْ حَدِّهِ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ قَدْ تَعْجَبُ بِصُورَةٍ وَتَسْتَمْلِحُهَا وَلَا تَرَى الدُّنْيَا بِهَا، ثُمَّ تَرَى أَمْلَحَ وَأَعْلَى فِي مَرَاتِبِ الْحُسْنِ مِنْهَا فَيَنْبُو عَنِ الْأُولَى طَرْفُكَ، وَتَسْتَثْقِلُ النَّظَرَ إِلَيْهَا بَعْدَ افْتِتَانِكَ بِهَا وَتَهَالُكِكَ عَلَيْهَا.

وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: شَيْئَانِ لَا غَايَةَ لَهُمَا: الْجَمَالُ، وَالْبَيَانُ. نَبَّهَ بِعِلْمِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ بِعِلْمِهِ مَا يُسِرُّهُ الْعِبَادُ وَيُعْلِنُونَهُ، ثُمَّ بِعِلْمِهِ ذَوَاتِ الصُّدُورِ: أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ غَيْرُ خَافٍ عَلَيْهِ وَلَا عَازِبٌ عَنْهُ، فَحَقُّهُ أَنْ يُتَّقَى وَيُحْذَرَ وَلَا يُجْتَرَأَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَخَافُ رِضَاهُ. وَتَكْوِيرُ الْعِلْمِ فِي مَعْنَى تَكْرِيرِ الْوَعِيدِ، وَكُلُّ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[3]]التَّغَابُنِ: 22].

كَمَا تَرَى فِي مَعْنَى الْوَعِيدِ عَلَى الْكُفْرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُعْصَى الْخَالِقُ وَلَا تُشْكَرَ نِعْمَتُهُ، فَمَا أَجْهَلَ مَنْ يَمْزُجُ الْكُفْرَ بِالْخَلْقِ وَيَجْعَلُهُ مِنْ جُمْلَتِهِ، وَالْخَلْقُ: أَعْظَمُ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَالْكُفْرُ: أَعْظَمُ كُفْرَانٍ مِنَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1]

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾[2] الْخِطَابُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ.

﴿ذَلِكَ﴾[3] إِشَارَةً إِلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْوَبَالِ الَّذِي ذَاقُوهُ فِي الدُّنْيَا وَمَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿بِأَنَّهُ﴾[4] بِأَنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ... أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا أَنْكَرُوا أَنْ تَكُونَ الرُّسُلُ بَشَرًا، وَلَمْ يُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ حَجَرًا.

﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾[5]: أُطْلِقَ لِيَتَنَاوَلَ كُلَّ شَيْءٍ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ إِيمَانُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾[6]: يُوهِمُ وُجُودَ التَّوَلِّي وَالِاسْتِغْنَاءِ مَعًا، وَاللَّهُ –تَعَالَى– لَمْ يَزَلْ غَنِيًّا. قُلْتُ: مَعْنَاهُ: وَظَهَرَ اسْتِغْنَاءُ اللَّهِ حَيْثُ لَمْ يُلْجِئْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَمْ يَضْطَرُّهُمْ إِلَيْهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[7]

الزَّعْمُ: ادِّعَاءُ الْعِلْمِ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "زَعَمُوا مَطِيَّةُ الْكَذِبِ".

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَعَنْ شُرَيْحٍ: لِكُلِّ شَيْءٍ كُنْيَةٌ وَكُنْيَةُ الْكَذِبِ "زَعَمُوا" وَيَتَعَدَّى إِلَى الْمَفْعُولَيْنِ تَعَدِّيَ الْعَلَمِ.

قَالَ:

..... وَلَمْ أَزْعُمْكِ عَنْ ذَاكَ مَعْزِلَا

وَ"إِنَّ" مَعَ مَا فِي حَيِّزِهِ قَائِمٌ مَقَامَهُمَا. وَالَّذِينَ كَفَرُوا. أَهْلُ مَكَّةَ.

وَ﴿بَلَى﴾[1] إِثْبَاتٌ لِمَا بَعْدَ لَنْ، وَهُوَ الْبَعْثُ.

﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2]، أَيْ: لَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ صَارِفٌ.

وَعَنَى بِرَسُولِهِ وَالنُّورِ: مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالْقُرْآنَ.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمَ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3]

وَقُرِئَ: نَجْمَعُكُمْ وَنُكَفِّرْ. وَنُدْخِلْهُ، بِالْيَاءِ وَالنُّونِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ الظَّرْفُ؟

قُلْتُ: بِقَوْلِهِ: لَتُنَبَّؤُنَّ، أَوْ بِخَبِيرٍ، لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْوَعِيدِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَاللَّهُ مُعَاقِبُكُمْ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ أَوْ بِإِضْمَارِ "اذْكُرْ".

﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾[4]: لِيَوْمٍ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ.

التَّغَابُنُ: مُسْتَعَارٌ مِنْ تَغَابَنَ الْقَوْمُ فِي التِّجَارَةِ، وَهُوَ أَنْ يَغِبْنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لِنُزُولِ السُّعَدَاءِ مَنَازِلَ الْأَشْقِيَاءِ الَّتِي كَانُوا يَنْزِلُونَهَا لَوْ كَانُوا سُعَدَاءَ، وَنُزُولِ الْأَشْقِيَاءِ مَنَازِلَ السُّعَدَاءِ الَّتِي كَانُوا يَنْزِلُونَهَا لَوْ كَانُوا أَشْقِيَاءَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَفِيهِ تَهَكُّمٌ بِالْأَشْقِيَاءِ، لِأَنَّ نُزُولَهُمْ لَيْسَ بِغَبْنٍ. وَفِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا. وَمَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ، لِيَزْدَادَ حَسْرَةً ".

وَمَعْنَى ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[1]، وَقَدْ يَتَغَابَنُ النَّاسُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ: اسْتِعْظَامٌ لَهُ وَأَنَّ تَغَابُنَهُ هُوَ التَّغَابُنُ فِي الْحَقِيقَةِ، لَا التَّغَابُنُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَإِنْ جَلَّتْ وَعَظُمَتْ.

﴿صَالِحًا﴾[2] صِفَةٌ لِلْمَصْدَرِ، أَيْ: عَمَلًا صَالِحًا.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]

﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[4] إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، كَأَنَّهُ أَذِنَ لِلْمُصِيبَةِ أَنْ تُصِيبَهُ ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[5] يَلْطُفُ بِهِ وَيَشْرَحُهُ لِلِازْدِيَادِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْخَيْرِ.

وَقِيلَ: هُوَ الِاسْتِرْجَاعُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: يَهْدِ قَلْبَهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ. وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: إِنِ ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِنْ أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِنْ ظُلِمَ غَفَرَ.

وَقُرِئَ: "يَهْدِ قَلْبَهُ"، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَالْقَلْبُ: مَرْفُوعٌ أَوْ مَنْصُوبٌ.

وَوَجْهُ النَّصْبِ: أَنْ يَكُونَ مِثْلَ سَفِهَ نَفْسَهُ، أَيْ: يُهْدَ فِي قَلْبِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّ الْكَافِرَ ضَالٌّ عَنْ قَلْبِهِ بَعِيدٌ مِنْهُ، وَالْمُؤْمِنَ وَاجِدٌ لَهُ مُهْتَدٍ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[6]]ق: 377].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "نَهْدِ قَلْبَهُ"، بِالنُّونِ. وَيَهِدِّ قَلْبُهُ، بِمَعْنَى: يَهْتَدِ. وَيَهْدَأْ قَلْبُهُ: يَطْمَئِنُّ. وَيُهْدَ. وَيُهْدَا عَلَى التَّخْفِيفِ.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]: يَعْلَمُ مَا يُؤَثِّرُ فِيهِ اللُّطْفُ مِنَ الْقُلُوبِ مِمَّا لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ فَيَمْنَحُهُ وَيَمْنَعُهُ.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2]

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾[3]، فَلَا عَلَيْهِ إِذَا تَوَلَّيْتُمْ، لِأَنَّهُ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ طَاعَتُكُمْ، إِنَّمَا كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يُبَلِّغَ وَيُبَيِّنَ فَحَسْبُ.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[4] بَعْثٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالتَّقْوَى بِهِ فِي أَمْرِهِ، حَتَّى يَنْصُرَهُ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُ وَتَوَلَّى عَنْهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[5]

إِنَّ مِنَ الْأَزْوَاجِ أَزْوَاجًا يُعَادِينَ بُعُولَتَهُنَّ وَيُخَاصِمْنَهُمْ وَيَجْلِبْنَ عَلَيْهِمْ، وَمِنَ الْأَوْلَادِ أَوْلَادًا يُعَادُونَ آبَائِهِمْ وَيَعُقُّونَهُمْ وَيُجَرِّعُونَهُمُ الْغَصَصَ وَالْأَذَى.

"فَاحْذَرُوهُمْ" الضَّمِيرُ لِلْعَدُوِّ أَوْ لِلْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ جَمِيعًا، أَيْ: لَمَّا عَلِمْتُمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَخْلُونَ مِنْ عَدُوٍّ، فَكُونُوا مِنْهُمْ عَلَى حَذَرٍ وَلَا تَأْمَنُوا غَوَائِلَهُمْ وَشَرَّهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَإِنْ تَعْفُوا﴾[1] عَنْهُمْ إِذَا اطَّلَعْتُمْ مِنْهُمْ عَلَى عَدَاوَةٍ وَلَمْ تُقَابِلُوهُمْ بِمِثْلِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ.

وَقِيلَ: إِنَّ نَاسًا أَرَادُوا الْهِجْرَةَ عَنْ مَكَّةَ، فَثَبَّطَهُمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، وَقَالُوا: تَنْطَلِقُونَ وَتُضَيِّعُونَنَا فَرَقُّوا لَهُمْ وَوَقَفُوا. فَلَمَّا هَاجَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَرَأَوُا الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ قَدْ فَقِهُوا فِي الدِّينِ: أَرَادُوا أَنْ يُعَاقِبُوا أَزْوَاجَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، فَزُيِّنَ لَهُمُ الْعَفْوُ.

وَقِيلَ: قَالُوا لَهُمْ: أَيْنَ تَذْهَبُونَ وَتَدَعُونَ بَلَدَكُمْ وَعَشِيرَتَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، فَغَضِبُوا عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: لَئِنْ جَمَعَنَا اللَّهُ فِي دَارِ الْهِجْرَةِ لَمْ نُصِبْكُمْ بِخَيْرٍ. فَلَمَّا هَاجَرُوا مَنَعُوهُمُ الْخَيْرَ، فَحُثُّوا أَنْ يَعْفُوا عَنْهُمْ وَيَرُدُّوا إِلَيْهِمُ الْبِرَّ وَالصِّلَةَ.

وَقِيلَ: كَانَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ ذَا أَهْلٍ وَوَلَدٍ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَغْزُوَ تَعَلَّقُوا بِهِ وَبَكَوْا إِلَيْهِ وَرَقَّقُوهُ، فَكَأَنَّهُ هَمَّ بِأَذَاهُمْ، فَنَزَلَتْ.

﴿فِتْنَةٌ﴾[2] بَلَاءٌ وَمِحْنَةٌ، لِأَنَّهُمْ يُوقِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ، وَلَا بَلَاءَ أَعْظَمُ مِنْهُمَا، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وَفِي الْحَدِيثِ: "يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: أَكَلَ عِيَالُهُ حَسَنَاتِهِ. "

وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: الْعِيَالُ سُوسُ الطَّاعَاتِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ، فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمَا فَأَخَذَهُمَا وَوَضَعَهُمَا فِي حِجْرِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: "صَدَقَ اللَّهُ: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[4] رَأَيْتُ هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ عَنْهُمَا"، ثُمَّ أَخَذَ فِي خُطْبَتِهِ.

وَقِيلَ: إِذَا أَمْكَنَكُمُ الْجِهَادُ وَالْهِجْرَةُ، فَلَا يَفْتِنَكُمُ الْمَيْلُ إِلَى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ عَنْهُمَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2]: جُهْدَكُمْ وَوُسْعَكُمْ، أَيِ: ابْذُلُوا فِيهَا اسْتِطَاعَتَكُمْ.

﴿وَاسْمَعُوا﴾[3] مَا تُوعَظُونَ بِهِ، ﴿وَأَطِيعُوا﴾[4] فِيمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ وَتُنْهَوْنَ عَنْهُ، ﴿وَأَنْفِقُوا﴾[5] فِي الْوُجُوهِ الَّتِي وَجَبَتْ عَلَيْكُمُ النَّفَقَةُ فِيهَا ﴿خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾[6] نُصِبَ بِمَحْذُوفٍ.

تَقْدِيرُهُ: ائْتُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَافْعَلُوا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهَا وَأَنْفَعُ.

وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِلْحَثِّ عَلَى امْتِثَالِ هَذِهِ الْأَوَامِرِ، وَبَيَانٌ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ خَيْرٌ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَمَا أَنْتُمْ عَاكِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ الشَّهَوَاتِ وَزَخَارِفِ الدُّنْيَا.

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[7]

وَذِكْرُ الْقَرْضِ: تَلَطُّفٌ فِي الِاسْتِدْعَاءِ ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾[8] يَكْتُبْ لَكُمْ بِالْوَاحِدَةِ عَشْرًا، أَوْ سَبْعَمِائَةٍ إِلَى مَا شَاءَ مِنَ الزِّيَادَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "يُضْعِفْهُ" "شَكُورٌ" مَجَازٌ، أَيْ: يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَفْعَلُ الْمُبَالِغُ فِي الشُّكْرِ مِنْ عَظِيمِ الثَّوَابِ، وَكَذَلِكَ "حَلِيمٌ" يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَفْعَلُ مَنْ يَحْلُمُ عَنِ الْمُسِيءِ، فَلَا يُعَاجِلُكُمْ بِالْعِقَابِ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِكُمْ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [التَّغَابُنِ] رُفِعَ عَنْهُ مَوْتُ الْفَجْأَةِ".

[سورة سبأ]

]سورة الطلاق[

مَدَنِيَّةٌ،
وَهِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ، أَوِ اثْنَتَا عَشْرَةَ، أَوْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً.
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْإِنْسَانِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1]

خَصَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِالنِّدَاءِ وَعَمَّ بِالْخِطَابِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ إِمَامُ أُمَّتِهِ وَقُدْوَتُهُمْ، كَمَا يُقَالُ لِرَئِيسِ الْقَوْمِ وَكَبِيرِهِمْ: يَا فُلَانُ، افْعَلُوا كَيْتَ وَكَيْتَ، إِظْهَارًا لِتُقَدِّمِهِ وَاعْتِبَارًا لِتَرَؤُّسِهِ، وَأَنَّهُ مِدْرَةُ قَوْمِهِ وَلِسَانُهُمْ، وَالَّذِي يَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهِ وَلَا يَسْتَبِدُّونَ بِأَمْرٍ دُونَهُ، فَكَانَ هُوَ وَحْدَهُ فِي حُكْمِ كُلِّهِمْ، وَسَادًّا مَسَدَّ جَمِيعِهِمْ.

[1] سورة ، الآية .

وَمَعْنَى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[1] إِذَا أَرَدْتُمْ تَطْلِيقَهُنَّ وَهَمَمْتُمْ بِهِ عَلَى تَنْزِيلِ الْمُقْبِلِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشَارِفِ لَهُ مَنْزِلَةَ الشَّارِعِ فِيهِ، كَقَوْلِهِ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ"، وَمِنْهُ كَانَ الْمَاشِي إِلَى الصَّلَاةِ وَالْمُنْتَظِرِ لَهَا فِي حُكْمِ الْمُصَلِّي.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[2]: فَطَلِّقُوهُنَّ مُسْتَقْبِلَاتٍ لِعِدَّتِهِنَّ، كَقَوْلِكَ: أَتَيْتُهُ لِلَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنَ الْمُحَرَّمِ، أَيْ: مُسْتَقْبِلًا لَهَا.

وَفِي قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ، وَإِذَا طُلِّقَتِ الْمَرْأَةُ فِي الطُّهْرِ الْمُتَقَدِّمِ لِلْقُرْءِ الْأَوَّلِ مِنْ أَقْرَائِهَا، فَقَدْ طُلِّقَتْ مُسْتَقْبِلَةً لِعِدَّتِهَا.

وَالْمُرَادُ: أَنْ يُطَلَّقْنَ فِي طُهْرٍ لَمْ يُجَامَعْنَ فِيهِ، ثُمَّ يُخَلَّيْنَ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ. وَهَذَا أَحْسَنُ الطَّلَاقِ وَأَدْخَلُهُ فِي السُّنَّةِ وَأَبْعَدُهُ مِنَ النَّدَمِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ لَا يُطَلِّقُوا أَزْوَاجَهُمْ لِلسُّنَّةِ إِلَّا وَاحِدَةً، ثُمَّ لَا يُطَلِّقُوا غَيْرَ ذَلِكَ حَتَّى تَنْقَضِيَ الْعِدَّةُ، وَكَانَ أَحْسَنَ عِنْدِهِمْ مِنْ أَنْ يُطَلِّقَ الرَّجُلُ ثَلَاثًا فِي ثَلَاثَةِ أَطْهَارٍ.

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَا أَعْرِفُ طَلَاقَ السُّنَّةِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَكَانَ يَكْرَهُ الثَّلَاثَ مَجْمُوعَةً كَانَتْ أَوْ مُتَفَرِّقَةً.

وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ فَإِنَّمَا كَرِهُوا مَا زَادَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي طُهْرٍ وَاحِدٍ، فَأَمَّا مُفَرَّقًا فِي الْأَطْهَارِ فَلَا، لِمَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ عُمَرَ حِينَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ: مَا هَكَذَا أَمَرَكَ اللَّهُ، إِنَّمَا السُّنَّةُ أَنْ تَسْتَقْبِلَ الطُّهْرَ اسْتِقْبَالًا، وَتُطَلِّقَهَا لِكُلِّ قُرْءٍ تَطْلِيقَةً.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ: "مُرِ ابْنَكَ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيَدَعْهَا حَتَّى تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ لِيُطَلِّقْهَا إِنْ شَاءَ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَا بَأْسَ بِإِرْسَالِ الثَّلَاثِ، وَقَالَ: لَا أَعْرِفُ فِي عَدَدِ الطَّلَاقِ سُنَّةً وَلَا بِدْعَةً وَهُوَ مُبَاحٌ. فَمَا لَكَ تُرَاعِي فِي طَلَاقِ السُّنَّةِ الْوَاحِدَةَ وَالْوَقْتَ، وَأَبُو حَنِيفَةَ يُرَاعِي التَّفْرِيقَ وَالْوَقْتَ، وَالشَّافِعِيُّ يُرَاعِي الْوَقْتَ وَحْدَهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَقَعُ الطَّلَاقُ الْمُخَالِفُ لِلسُّنَّةِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، وَهُوَ آثِمٌ، لِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّ رَجُلًا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: لَا "أَتَلْعَبُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ".

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ طَلَّقْتُهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ لَهُ: "إِذَنْ عَصَيْتَ وَبَانَتْ مِنْكَ امْرَأَتُكَ".

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّهُ كَانَ لَا يُؤْتَى بِرَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا إِلَّا أَوْجَعَهُ ضَرْبًا. وَأَجَازَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ: أَنَّ مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ فِي الطَّلَاقِ فَأَوْقَعَهُ فِي حَيْضٍ أَوْ ثَلَّثَ لَمْ يَقَعْ، وَشَبَّهُوهُ بِمَنْ وَكَّلَ غَيْرَهُ بِطَلَاقِ السُّنَّةِ فَخَالَفَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تُطَلَّقُ لِلسُّنَّةِ الَّتِي لَا تَحِيضُ لِصِغَرٍ أَوْ كِبَرٍ أَوْ حَمْلٍ وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ بِهَا؟

قُلْتُ: الصَّغِيرَةُ وَالْآيِسَةُ وَالْحَامِلُ كُلُّهُنَّ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ يُفَرَّقُ عَلَيْهِنَّ الثَّلَاثُ فِي الْأَشْهُرِ، وَخَالَفَهُمَا مُحَمَّدٌ وَزُفَرُ فِي الْحَامِلِ، فَقَالَا: لَا تُطَلَّقُ لِلسُّنَّةِ إِلَّا وَاحِدَةً. وَأَمَّا غَيْرُ الْمَدْخُولِ بِهَا فَلَا تُطَلَّقُ لِلسُّنَّةِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَلَا يُرَاعَى الْوَقْتُ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يُكْرَهُ أَنْ تُطَلَّقَ الْمَدْخُولُ بِهَا وَاحِدَةً بَائِنَةً؟ قُلْتُ: اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ فِيهِ عَنْ أَصْحَابِنَا. وَالظَّاهِرُ الْكَرَاهَةُ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ عَامٌّ يَتَنَاوَلُ الْمَدْخُولَ بِهِنَّ وَغَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ مِنْ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ وَالْآيِسَاتِ وَالصَّغَائِرِ وَالْحَوَامِلِ، فَكَيْفَ صَحَّ تَخْصِيصُهُ بِذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ؟

قُلْتُ: لَا عُمُومَ ثَمَّ وَلَا خُصُوصَ، وَلَكِنَّ النِّسَاءَ اسْمُ جِنْسٍ لِلْإِنَاثِ مِنَ الْإِنْسِ، وَهَذِهِ الْجِنْسِيَّةُ مَعْنًى قَائِمٌ فِي كُلِّهِنَّ وَفِي بَعْضِهِنَّ، فَجَازَ أَنْ يُرَادَ بِالنِّسَاءِ هَذَا وَذَاكَ، فَلَمَّا قِيلَ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] عَلِمَ أَنَّهُ أُطْلِقَ عَلَى بَعْضِهِنَّ، وَهُنَّ الْمَدْخُولُ بِهِنَّ مِنَ الْمُعْتَدَّاتِ بِالْحَيْضِ.

---

[1] سورة ، الآية .

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾[1] وَاضْبُطُوهَا بِالْحِفْظِ وَأَكْمِلُوهَا ثَلَاثَةَ أَقْرَاءٍ مُسْتَقْبِلَاتٍ كَوَامِلَ لَا نُقْصَانَ فِيهِنَّ، ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ﴾[2] حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾[3] مِنْ مَسَاكِنِهِنَّ الَّتِي يَسْكُنَّهَا قَبْلَ الْعِدَّةِ، وَهِيَ بُيُوتُ الْأَزْوَاجِ، وَأُضِيفَتْ إِلَيْهِنَّ لِاخْتِصَاصِهَا بِهِنَّ مِنْ حَيْثُ السُّكْنَى.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الْجَمْعِ بَيْنَ إِخْرَاجِهِمْ أَوْ خُرُوجِهِنَّ؟

قُلْتُ: مَعْنَى الْإِخْرَاجِ: أَنْ لَا يُخْرِجَهُنَّ الْبُعُولَةُ غَضَبًا عَلَيْهِنَّ وَكَرَاهَةً لِمُسَاكَنَتِهِنَّ، أَوْ لِحَاجَةٍ لَهُمْ إِلَى الْمَسَاكِنِ، وَأَنْ لَا يَأْذَنُوا لَهُنَّ فِي الْخُرُوجِ إِذَا طَلَبْنَ ذَلِكَ، إِيذَانًا بِأَنَّ إِذْنَهُمْ لَا أَثَرَ لَهُ فِي رَفْعِ الْحَظْرِ، وَلَا يَخْرُجْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ إِنْ أَرَدْنَ ذَلِكَ.

﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾[4]، قُرِئَ: بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا. قِيلَ: هِيَ الزِّنَا، يَعْنِي إِلَّا أَنْ يَزْنِينَ فَيَخْرُجْنَ لِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِنَّ.

وَقِيلَ: إِلَّا أَنْ يُطَلَّقْنَ عَلَى النُّشُوزِ، وَالنُّشُوزُ يُسْقِطُ حَقَّهُنَّ فِي السُّكْنَى. وَقِيلَ: إِلَّا أَنْ يَبْذُونَ فَيَحِلُّ إِخْرَاجُهُنَّ لِبَذَائِهِنَّ، وَتُؤَكِّدُهُ قِرَاءَةُ أُبَيٍّ: "إِلَّا أَنْ يُفْحِشَ عَلَيْكُمْ". وَقِيلَ: خُرُوجُهَا قَبْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ فَاحِشَةٌ فِي نَفْسِهِ.

الْأَمْرُ الَّذِي يُحْدِثُهُ اللَّهُ: أَنْ يَقْلِبَ قَلْبَهُ مِنْ بُغْضِهَا إِلَى مَحَبَّتِهَا، وَمِنَ الرَّغْبَةِ عَنْهَا إِلَى الرَّغْبَةِ فِيهَا. وَمِنْ عَزِيمَةِ الطَّلَاقِ إِلَى النَّدَمِ عَلَيْهِ فَيُرَاجِعَهَا. وَالْمَعْنَى: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ، لَعَلَّكُمْ تَرْغَبُونَ وَتَنْدَمُونَ فَتُرَاجِعُونَ.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾[5]، وَهُوَ آخِرُ الْعِدَّةِ وَشَارَفْنَهُ، فَأَنْتُمْ بِالْخِيَارِ: إِنْ شِئْتُمْ فَالرَّجْعَةُ وَالْإِمْسَاكُ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانُ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَتَرْكُ الرَّجْعَةِ وَالْمُفَارَقَةُ وَاتِّقَاءُ الضِّرَارِ؛ وَهُوَ أَنْ يُرَاجِعَهَا فِي آخِرِ عِدَّتِهَا ثُمَّ يُطَلِّقَهَا تَطْوِيلًا لِلْعِدَّةِ عَلَيْهَا وَتَعْذِيبًا لَهَا.

﴿وَأَشْهِدُوا﴾[6]: يَعْنِي عِنْدَ الرَّجْعَةِ وَالْفُرْقَةِ جَمِيعًا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَهَذَا الْإِشْهَادُ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾[1]]الْبَقَرَةِ: 282].

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: هُوَ وَاجِبٌ فِي الرَّجْعَةِ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ فِي الْفُرْقَةِ.

وَقِيلَ: فَائِدَةُ الْإِشْهَادِ أَنْ لَا يَقَعُ بَيْنَهُمَا التَّجَاحُدُ، وَأَنْ لَا يُتَّهَمَ فِي إِمْسَاكِهَا، وَلِئَلَّا يَمُوتَ أَحَدُهُمَا فَيَدَّعِي الْبَاقِي ثُبُوتَ الزَّوْجِيَّةِ لِيَرِثَ.

﴿مِنْكُمْ﴾[2] قَالَ الْحَسَنُ: مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ : مِنْ أَحْرَارِكُمْ "لِلَّهِ" لِوَجْهِهِ خَالِصًا، وَذَلِكَ أَنْ تُقِيمُوهَا لَا لِلْمَشْهُودِ عَلَيْهِ، وَلَا لِغَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ سِوَى إِقَامَةِ الْحَقِّ وَدَفْعِ الظُّلْمِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[3]]النِّسَاءِ: 1355]. أَيْ: "ذَلِكُمْ" الْحَثُّ عَلَى إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ لِوَجْهِ اللَّهِ وَلِأَجْلِ الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ.

﴿يُوعَظُ بِهِ ...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾[4] يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً اعْتِرَاضِيَّةً مُؤَكِّدَةً لِمَا سَبَقَ مِنْ إِجْرَاءِ أَمْرِ الطَّلَاقِ عَلَى السُّنَّةِ، وَطَرِيقِهِ الْأَحْسَنِ وَالْأَبْعَدِ مِنَ النَّدَمِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَطَلَّقَ لِلسُّنَّةِ وَلَمْ يُضَارِّ الْمُعْتَدَّةَ وَلَمْ يُخْرِجْهَا مِنْ مَسْكَنِهَا وَاحْتَاطَ، فَأَشْهَدَ "يَجْعَلِ" اللَّهُ "لَهُ" مِمَّا فِي شَأْنِ الْأَزْوَاجِ مِنَ الْغُمُومِ وَالْوُقُوعِ فِي الْمَضَايِقِ، وَيُفَرِّجْ عَنْهُ وَيُنَفِّسْ وَيُعْطِهِ الْخَلَاصَ.

"وَيَرْزُقْهُ" مِنْ وَجْهٍ لَا يُخْطِرُهُ بِبَالِهِ وَلَا يَحْتَسِبُهُ إِنْ أَوْفَى الْمَهْرَ وَأَدَّى الْحُقُوقَ وَالنَّفَقَاتِ وَقَلَّ مَالُهُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ سُئِلَ عَمَّنْ طَلَّقَ ثَلَاثًا أَوْ أَلْفًا، هَلْ لَهُ مِنْ مَخْرَجٍ؟ فَتَلَاهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: لَمْ تَتَّقِ اللَّهَ فَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ مَخْرَجًا، بَانَتْ مِنْكَ بِثَلَاثٍ وَالزِّيَادَةُ إِثْمٌ فِي عُنُقِكَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يُجَاءَ بِهَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِطْرَادِ عِنْدَ ذِكْرِ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ﴾[1]، يَعْنِي: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَمَخْلَصًا مِنْ غُمُومِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ قَرَأَهَا، فَقَالَ: "مَخْرَجًا مِنْ شُبُهَاتِ الدُّنْيَا وَمِنْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَمِنْ شَدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ".

وَقَالَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: إِنِّي لَأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِهَا لَكَفَتْهُمْ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ...[2]فَمَا زَالَ يَقْرَؤُهَا وَيُعِيدُهَا.

وَرُوِيَ أَنَّ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيَّ أَسَرَ الْمُشْرِكُونَ ابْنًا لَهُ يُسَمَّى سَالِمًا. فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: أُسِرَ ابْنِي وَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، فَقَالَ: مَا أَمْسَى عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ إِلَّا مُدٌّ فَاتَّقِ اللَّهَ وَاصْبِرْ وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَفَعَلَ فَبَيْنَا هُوَ فِي بَيْتِهِ، إِذْ قَرَعَ ابْنُهُ الْبَابَ وَمَعَهُ مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ تَغَفَّلَ عَنْهَا الْعَدُوَّ فَاسْتَاقَهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[3]، أَيْ: يَبْلُغُ مَا يُرِيدُ لَا يَفُوتُهُ مُرَادٌ وَلَا يُعْجِزُهُ مَطْلُوبٌ.

وَقُرِئَ: "بَالِغُ أَمْرِهِ" بِالْإِضَافَةِ "وَبَالِغٌ أَمْرُهُ" بِالرَّفْعِ، أَيْ: نَافِذٌ أَمْرُهُ.

وَقَرَأَ الْمُفَضَّلُ: "بَالِغًا أَمْرَهُ"، عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ﴾[4] خَبَرُ إِنَّ، وَبَالِغًا حَالٌ.

﴿قَدْرًا﴾[5]: تَقْدِيرًا وَتَوْقِيتًا.

وَهَذَا بَيَانٌ لِوُجُوبِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَتَفْوِيضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ إِذَا عُلِمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ وَنَحْوِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَتَوْقِيتِهِ: لَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّسْلِيمُ لِلْقَدَرِ وَالتَّوَكُّلُ.

﴿وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

رُوِيَ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: قَدْ عَرَفْنَا عِدَّةَ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ، فَمَا عِدَّةُ اللَّائِي لَا يَحِضْنَ، فَنَزَلَتْ: فَمَعْنَى ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾[1]: إِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ حُكْمُهُنَّ وَجَهِلْتُمْ كَيْفَ يَعْتَدِدْنَ فَهَذَا حُكْمُهُنَّ.

وَقِيلَ: إِنِ ارْتَبْتُمْ فِي ذَمِّ الْبَالِغَاتِ مَبْلَغَ الْيَأْسِ وَقَدْ قَدَّرُوهُ بِسِتِّينَ سَنَةً وَبِخَمْسٍ وَخَمْسِينَ، أَهُوَ دَمُ حَيْضٍ أَوِ اسْتِحَاضَةٌ؟

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾[2] وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ عِدَّةُ الْمُرْتَابِ بِهَا، فَغَيْرُ الْمُرْتَابِ بِهَا أَوْلَى بِذَلِكَ.

﴿وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾[3] هُنَّ الصَّغَائِرُ. وَالْمَعْنَى: فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، فَحُذِفَ لِدَلَالَةِ الْمَذْكُورِ عَلَيْهِ. اللَّفْظُ مُطْلَقٌ فِي أُولَاتِ الْأَحْمَالِ، فَاشْتَمَلَ عَلَى الْمُطَلَّقَاتِ وَالْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ. وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأُبَيٌّ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُمْ لَا يُفَرِّقُونَ.

وَعَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ: عِدَّةُ الْحَامِلِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا أَبْعَدُ الْأَجَلَيْنِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ: مَنْ شَاءَ لَاعَنْتُهُ أَنَّ سُورَةَ [النِّسَاءِ] الْقُصْرَى نَزَلَتْ بَعْدَ الَّتِي فِي [الْبَقَرَةِ]، يَعْنِي: أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُطْلَقٌ فِي الْحَوَامِلِ.

وَرَوَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: أَنَّ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةَ وَلَدَتْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِلَيَالٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ لَهَا: قَدْ حَلَلْتِ فَانْكِحِي.

﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[4]: يُيَسِّرْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ وَيَحْلُلْ لَهُ مِنْ عُقَدِهِ بِسَبَبِ التَّقْوَى.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾[5]، يُرِيدُ مَا عُلِمَ مِنْ حُكْمِ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدَّاتِ.

وَالْمَعْنَى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي الْعَمَلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَحَافَظَ عَلَى الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ مِمَّا ذُكِرَ مِنَ الْإِسْكَانِ وَتَرْكِ الضِّرَارِ وَالنَّفَقَةِ عَلَى الْحَوَامِلِ وَإِيتَاءِ أَجْرِ الْمُرْضِعَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ: اسْتَوْجَبَ تَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ وَالْأَجْرَ الْعَظِيمَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[1]

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾[2] وَمَا بَعْدَهُ: بَيَانٌ لِمَا شُرِطَ مِنَ التَّقْوَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾[3]، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ نَعْمَلُ بِالتَّقْوَى فِي شَأْنِ الْمُعْتَدَّاتِ؟ فَقِيلَ: أَسْكِنُوهُنَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مِنْ﴾[4] فِي ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾[5] مَا هِيَ؟

قُلْتُ: هِيَ "مِنْ" التَّبْعِيضِيَّةِ مُبَعَّضُهَا مَحْذُوفٌ مَعْنَاهُ: أَسْكِنُوهُنَّ مَكَانًا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ، أَيْ بَعْضَ مَكَانِ سُكْنَاكُمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[6]]النُّورِ: 30]، أَيْ: بَعْضَ أَبْصَارِهِمْ.

قَالَ قَتَادَةُ: إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَيْتٌ وَاحِدٌ، فَأَسْكِنْهَا فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَوْلُهُ: "مِنْ وُجْدِكُمْ"؟

قُلْتُ: هُوَ عَطْفُ بَيَانٍ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾[7] وَتَفْسِيرٌ لَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَسْكِنُوهُنَّ مَكَانًا مِنْ مَسْكَنِكُمْ مِمَّا تُطِيقُونَهُ.

وَالْوُجْدُ: الْوُسْعُ وَالطَّاقَةُ. وَقُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ.

وَالسُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ: وَاجِبَتَانِ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَعِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ: لَيْسَ لِلْمَبْتُوتَةِ إِلَّا السُّكْنَى وَلَا نَفَقَةَ لَهَا.

وَعَنِ الْحَسَنِ وَحَمَّادٍ: لَا نَفَقَةَ لَهَا وَلَا سُكْنَى، لِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ: أَنَّ زَوْجَهَا أَبَتَّ طَلَاقَهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا سُكْنَى لَكِ وَلَا نَفَقَةَ. وَعَنْ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَا نَدَعُ كِتَابَ رَبِّنَا وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَعَلَّهَا نَسِيَتْ أَوْ شُبِّهَ لَهَا: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: "لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ".

﴿وَلا تُضَارُّوهُنَّ﴾[1]: وَلَا تَسْتَعْمِلُوا مَعَهُنَّ الضِّرَارَ، ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾[2] فِي الْمَسْكَنِ بِبَعْضِ الْأَسْبَابِ: مِنْ إِنْزَالِ مَنْ لَا يُوَافِقُهُنَّ، أَوْ يَشْغَلُ مَكَانَهُنَّ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى تَضْطَرُّوهُنَّ إِلَى الْخُرُوجِ.

وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يُرَاجِعَهَا إِذَا بَقِيَ مِنْ عِدَّتِهَا يَوْمَانِ لِيُضَيِّقَ عَلَيْهَا أَمْرَهَا. وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يُلْجِئَهَا إِلَى أَنْ تَفْتَدِيَ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَتْ كُلُّ مُطَلَّقَةٍ عِنْدَكُمْ تَجِبُ لَهَا النَّفَقَةُ، فَمَا فَائِدَةُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾[3].

قُلْتُ: فَائِدَتُهُ أَنَّ مُدَّةَ الْحَمْلِ رُبَّمَا طَالَتْ فَظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ النَّفَقَةَ تَسْقُطُ إِذَا مَضَى مِقْدَارُ عِدَّةِ الْحَائِلِ، فَنَفَى ذَلِكَ الْوَهْمَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَقُولُ فِي الْحَامِلِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا؟

قُلْتُ: مُخْتَلَفٌ فِيهَا، فَأَكْثَرُهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا نَفَقَةَ لَهَا، لِوُقُوعِ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ مَنْ أُجْبِرَ الرَّجُلُ عَلَى النَّفَقَةِ عَلَيْهِ مِنَ امْرَأَةٍ أَوْ وَلَدٍ صَغِيرٍ لَا يَجِبُ أَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَكَذَلِكَ الْحَامِلُ. وَعَنْ عَلِيٍّ وَعَبْدِ اللَّهِ وَجَمَاعَةٍ: أَنَّهُمْ أَوْجَبُوا نَفَقَتَهَا.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾[4]، يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُطَلَّقَاتُ إِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ وَلَدًا مِنْ غَيْرِهِنَّ أَوْ مِنْهُنَّ بَعْدَ انْقِطَاعِ عِصْمَةِ الزَّوْجِيَّةِ، ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[5]: حُكْمُهُنَّ فِي ذَلِكَ حُكْمُ الْآظَارِ،

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ الِاسْتِئْجَارُ إِذَا كَانَ الْوَلَدُ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَبِنْ.

وَيَجُوزُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ الِائْتِمَارُ بِمَعْنَى التَّآمُرِ، كَالِاشْتِوَارِ بِمَعْنَى التَّشَاوُرِ. يُقَالُ: ائْتَمَرَ الْقَوْمُ وَتَآمَرُوا، إِذَا أَمَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَالْمَعْنَى: وَلْيَأْمُرْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَالْخِطَابُ لِلْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ "بِمَعْرُوفٍ" بِجَمِيلٍ، وَهُوَ الْمُسَامَحَةُ، وَأَنْ لَا يُمَاكِسَ الْأَبُ وَلَا تُعَاسِرَ الْأُمُّ، لِأَنَّهُ وَلَدُهُمَا مَعًا، وَهُمَا شَرِيكَانِ فِيهِ، وَفِي وُجُوبِ الْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ.

﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾[1]، فَسَتُوجَدُ وَلَا تُعْوِزُ مُرْضِعَةٌ غَيْرَ الْأُمِّ تُرْضِعُهُ، وَفِيهِ طَرَفٌ مِنْ مُعَاتَبَةِ الْأُمِّ عَلَى الْمُعَاسَرَةِ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ تَسْتَقْضِيهِ حَاجَةً، فَيَتَوَانَى: سَيَقْضِيهَا غَيْرُكَ، تُرِيدُ: لَنْ تَبْقَى غَيْرَ مَقْضِيَّةٍ وَأَنْتَ مَلُومٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ﴾[2] أَيْ لِلْأَبِ، أَيْ: سَيَجِدُ الْأَبُ غَيْرَ مُعَاسِرَةٍ تُرْضِعُ لَهُ وَلَدَهُ إِنْ عَاسَرَتْهُ أُمُّهُ "لِيُنْفِقْ" كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُوسِرِ وَالْمُعْسِرِ مَا بَلَغَهُ وُسْعُهُ يُرِيدُ: مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْمُطَلَّقَاتِ وَالْمُرْضِعَاتِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾[3]]الْبَقَرَةِ: 236].

وَقُرِئَ: "لِيُنْفِقَ" بِالنَّصْبِ، أَيْ: شَرَعْنَا ذَلِكَ لِيُنْفِقَ.

وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: "قَدَّرَ".

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ﴾[4] مَوْعِدٌ لِفُقَرَاءِ ذَلِكَ الْوَقْتِ بِفَتْحِ أَبْوَابِ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ، أَوْ لِفُقَرَاءِ الْأَزْوَاجِ إِنْ أَنْفَقُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يُقَصِّرُوا.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْكُمْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾[1]

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾[2] أَعْرَضَتْ عَنْهُ عَلَى وَجْهِ الْعُتُوِّ وَالْعِنَادِ ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾[3] بِالِاسْتِقْصَاءِ وَالْمُنَاقَشَةِ ﴿عَذَابًا نُكْرًا﴾[4].

وَقُرِئَ: "نُكْرًا" مُنْكَرًا عَظِيمًا، وَالْمُرَادُ: حِسَابُ الْآخِرَةِ وَعَذَابُهَا وَمَا يَذُوقُونَ فِيهَا مِنَ الْوَبَالِ وَيَلْقَوْنَ مِنَ الْخُسْرِ، وَجِيءَ بِهِ عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[5]]الْأَعْرَافِ: 44.[، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾[6]]الْأَعْرَافِ: 500].

وَنَحْوِ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْمُنْتَظَرَ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ مُلْقًى فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ فَكَانَ قَدْ كَانَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[7] تَكْرِيرٌ لِلْوَعِيدِ وَبَيَانٌ لِكَوْنِهِ مُتَرَقَّبًا، كَأَنَّهُ قَالَ: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ هَذَا الْعَذَابَ فَلْيَكُنْ لَكُمْ ذَلِكَ.

﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[8] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لُطْفًا فِي تَقْوَى اللَّهِ وَحَذَرِ عِقَابِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ إِحْصَاءُ السَّيِّئَاتِ، وَاسْتِقْصَاؤُهَا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِثْبَاتُهَا فِي صَحَائِفِ الْحَفَظَةِ، وَمَا أُصِيبُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْعَاجِلِ، وَأَنْ يَكُونَ "عَتَتْ" وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ: صِفَةً لِلْقَرْيَةِ. وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ: جَوَابًا لِكَأَيِّنْ.

"رَسُولًا" هُوَ جِبْرِيلُ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ–: أُبْدِلَ مِنْ ذِكْرًا، لِأَنَّهُ وُصِفَ بِتِلَاوَةِ آيَاتِ اللَّهِ، فَكَانَ إِنْزَالُهُ فِي مَعْنَى إِنْزَالِ الذِّكْرِ فَصَحَّ إِبْدَالُهُ مِنْهُ. أَوْ أُرِيدَ بِالذِّكْرِ: الشَّرَفُ، مِنْ قَوْلِهِ:

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1]]الزُّخْرُفِ: 444]. فَأُبْدِلَ مِنْهُ، كَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ شَرَفٌ: إِمَّا لِأَنَّهُ شَرَفٌ لِلْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ ذُو مَجْدٍ وَشَرَفٍ عِنْدَ اللَّهِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[2]]التَّكْوِيرِ: 200]. أَوْ جُعِلَ لِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ لِلَّهِ وَعِبَادَتِهِ كَأَنَّهُ ذِكْرٌ. أَوْ أُرِيدَ: ذَا ذِكْرٍ، أَيْ: مَلَكًا مَذْكُورًا فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأُمَمِ كُلِّهَا. أَوْ دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾[3]]الطَّلَاقِ: 10].

عَلَى: أَرْسَلَ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَرْسَلَ رَسُولًا، أَوْ أَعْمَلَ ذِكْرًا فِي "رَسُولًا" إِعْمَالَ الْمَصْدَرِ فِي الْمَفَاعِيلِ، أَيْ: أَنْزَلَ اللَّهُ أَنْ ذَكَرَ رَسُولًا أَوْ ذَكَرَهُ رَسُولًا. وَقُرِئَ: "رَسُولٌ"، عَلَى: هُوَ رَسُولٌ.

أَنْزَلَهُ ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[4] بَعْدَ إِنْزَالِهِ، أَيْ: لِيَحْصُلَ لَهُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ السَّاعَةَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا وَقْتَ إِنْزَالِهِ غَيْرَ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّمَا آمَنُوا بَعْدَ الْإِنْزَالِ وَالتَّبْلِيغِ. أَوْ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ عَرَفَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ.

قُرِئَ: "يُدْخِلْهُ"، بِالْيَاءِ وَالنُّونِ.

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾[5] فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ وَالتَّعْظِيمِ، لِمَا رُزِقَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الثَّوَابِ.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾[1] مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ.

وَقُرِئَ: "مِثْلَهُنَّ" بِالنَّصْبِ، عَطْفًا عَلَى سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَبِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَخَبَرُهُ: مِنَ الْأَرْضِ.

قِيلَ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ إِلَّا هَذِهِ.

وَقِيلَ: بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَغِلَظُ كُلِّ سَمَاءٍ كَذَلِكَ، وَالْأَرْضُونَ مِثْلُ السَّمَوَاتِ.

﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[2]، أَيْ: يَجْرِي أَمْرُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ بَيْنَهُنَّ، وَمُلْكُهُ يَنْفُذُ فِيهِنَّ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: فِي كُلِّ سَمَاءٍ وَفِي كُلِّ أَرْضٍ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ وَأَمْرٌ مَنْ أَمْرِهِ وَقَضَاءٌ مِنْ قَضَائِهِ.

وَقِيلَ: هُوَ مَا يُدَبَّرُ فِيهِنَّ مِنْ عَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ.

وَقُرِئَ: "يَنْزِلُ الْأَمْرُ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَافِعَ بْنَ الْأَزْرَقِ سَأَلَهُ: هَلْ تَحْتَ الْأَرْضِينَ خَلْقٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا الْخَلْقُ؟ قَالَ: إِمَّا مَلَائِكَةٌ أَوْ جِنٌّ.

﴿لِتَعْلَمُوا﴾[3] قُرِئَ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [الطَّلَاقِ] مَاتَ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

سورة [الإنسان]

سُورَةُ [التحريم]

مَدَنِيَّةٌ،
وَتُسَمَّى سُورَةَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
وَهِيَ ثِنْتَا عَشْرَةَ آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْحُجُرَاتِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]

رُوِيَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَلَا بِمَارِيَةَ فِي يَوْمِ عَائِشَةَ، وَعَلِمَتْ بِذَلِكَ حَفْصَةُ ، فَقَالَ لَهَا: اكْتُمِي عَلَيَّ، وَقَدْ حَرَّمْتُ مَارِيَةَ عَلَى نَفْسِي، وَأُبَشِّرُكِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَمْلِكَانِ بَعْدِي أَمْرَ أُمَّتِي، فَأَخْبَرَتْ بِهِ عَائِشَةَ وَكَانَتَا مُتَصَادِقَتَيْنِ.

وَقِيلَ: خَلَا بِهَا فِي يَوْمِ حَفْصَةَ، فَأَرْضَاهَا بِذَلِكَ وَاسْتَكْتَمَهَا فَلَمْ تَكْتُمْ، فَطَلَّقَهَا وَاعْتَزَلَ نِسَاءَهُ، وَمَكَثَ تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً فِي بَيْتِ مَارِيَةَ.

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ قَالَ لَهَا: لَوْ كَانَ فِي آلِ الْخَطَّابِ خَيْرٌ لَمَا طَلَّقَكِ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَقَالَ: رَاجِعْهَا، فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وَإِنَّهَا لِمَنْ نِسَائِكَ فِي الْجَنَّةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

وَرُوِيَ: أَنَّهُ شَرِبَ عَسَلًا فِي بَيْتِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَتَوَاطَأَتْ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ، فَقَالَتَا لَهُ: إِنَّا نَشُمُّ مِنْكَ رِيحَ الْمَغَافِيرِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَكْرَهُ التُّفْلَ، فَحَرَّمَ الْعَسَلَ، فَمَعْنَاهُ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[1] مِنْ مِلْكِ الْيَمِينِ أَوِ الْعَسَلِ.

وَ﴿تَبْتَغِي﴾[2] إِمَّا تَفْسِيرٌ لِتُحَرِّمُ. أَوْ حَالٌ: أَوِ اسْتِئْنَافٌ، وَكَانَ هَذَا زَلَّةً مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- إِنَّمَا أَحَلَّ مَا أَحَلَّ لِحِكْمَةٍ وَمَصْلَحَةٍ عَرَفَهَا فِي إِحْلَالِهِ، فَإِذَا حَرَّمَ كَانَ ذَلِكَ قَلْبَ الْمَصْلَحَةِ مَفْسَدَةً.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾[3]: قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا زَلَلْتَ فِيهِ.

﴿رَحِيمٌ﴾[4]: قَدْ رَحِمَكَ فَلَمْ يُؤَاخِذْكَ بِهِ.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾[5] فِيهِ مَعْنَيَانِ:

- أَحَدُهُمَا: قَدْ شَرَعَ اللَّهُ لَكُمُ الِاسْتِثْنَاءَ فِي أَيْمَانِكُمْ، مِنْ قَوْلِكَ: حَلَّلَ فُلَانٌ فِي يَمِينِهِ، إِذَا اسْتَثْنَى فِيهَا. وَمِنْهُ: حِلًّا أَبَيْتَ اللَّعْنَ، بِمَعْنَى: اسْتَثْنِ فِي يَمِينِكَ إِذَا أَطْلَقَهَا، وَذَلِكَ أَنْ يَقُولَ: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" عَقِيبَهَا، حَتَّى لَا يَحْنَثَ.

- وَالثَّانِي: قَدْ شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّتَهَا بِالْكَفَّارَةِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: "لَا يَمُوتُ لِرَجُلٍ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ فَتَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ". وَقَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ:

قَلِيلًا كَتَحْلِيلِ الْأُلِيِّ.....

فَإِنْ قُلْتَ: مَا حُكْمُ تَحْرِيمِ الْحَلَالِ ؟

قُلْتُ: قَدِ اخْتُلِفَ فِيهِ، فَأَبُو حَنِيفَةَ يَرَاهُ يَمِينًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَيَعْتَبِرُ الِانْتِفَاعَ الْمَقْصُودَ فِيمَا يُحَرِّمُهُ، فَإِذَا حَرَّمَ طَعَامًا فَقَدْ حَلَفَ عَلَى أَكْلِهِ، أَوْ أَمَةً فَعَلَى وَطْئِهَا، أَوْ زَوْجَةً فَعَلَى الْإِيلَاءِ مِنْهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ، وَإِنْ نَوَى الظِّهَارَ فَظِهَارٌ، وَإِنْ نَوَى الطَّلَاقَ فَطَلَاقٌ بَائِنٌ، وَكَذَلِكَ إِنْ نَوَى ثِنْتَيْنِ وَإِنْ نَوَى ثَلَاثًا فَكَمَا نَوَى، وَإِنْ قَالَ: نَوَيْتُ الْكَذِبَ دِينَ فِيمَا بَيْنَهُ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَبَيْنَ اللَّهِ –تَعَالَى–، وَلَا يَدِينُ فِي الْقَضَاءِ بِإِبْطَالِ الْإِيلَاءِ. وَإِنْ قَالَ: كُلُّ حَلَالٍ عَلَيَّ حَرَامٌ فَعَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِذَا لَمْ يَنْوِ، وَإِلَّا فَعَلَى مَا نَوَى، وَلَا يَرَاهُ الشَّافِعِيُّ يَمِينًا. وَلَكِنْ سَبَبًا فِي الْكَفَّارَةِ فِي النِّسَاءِ وَحْدَهُنَّ، وَإِنْ نَوَى الطَّلَاقَ فَهُوَ رَجْعِيٌّ عِنْدَهُ.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَزَيْدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ–: أَنَّ الْحَرَامَ يَمِينٌ.

وَعَنْ عُمَرَ: إِذَا نَوَى الطَّلَاقَ فَرَجْعِيٌّ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: ثَلَاثٌ. وَعَنْ زَيْدٍ: وَاحِدَةٌ بَائِنَةٌ.

وَعَنْ عُثْمَانَ: ظِهَارٌ.

وَكَانَ مَسْرُوقٌ لَا يَرَاهُ شَيْئًا وَيَقُولُ: مَا أُبَالِي أَحَرَّمْتُهَا أَمْ قَصْعَةً مِنْ ثَرِيدٍ، وَكَذَلِكَ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ، مُحْتَجًّا بِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾[1]]النَّحْلِ: 116]. وَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾[2]]الْمَائِدَةِ: 877]. وَمَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ –تَعَالَى– فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَرِّمَهُ وَلَا أَنْ يَصِيرَ بِتَحْرِيمِهِ حَرَامًا، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ لِمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ: هُوَ حَرَامٌ عَلَيَّ.

وَإِنَّمَا امْتَنَعَ مِنْ مَارِيَةَ لِيَمِينٍ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: وَاللَّهِ لَا أَقْرَبُهَا بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[3]، أَيْ: لَمْ تَمْتَنِعْ مِنْهُ بِسَبَبِ الْيَمِينِ، يَعْنِي: أَقْدِمْ عَلَى مَا حَلَفْتَ عَلَيْهِ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾[4]]الْقَصَصِ: 12]، أَيْ: مَنَعْنَاهُ مِنْهَا. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾[5] أَنَّهُ كَانَتْ مِنْهُ يَمِينٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ كَفَّرَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِذَلِكَ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قُلْتُ: عَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهُ لَمْ يُكَفِّرْ، لِأَنَّهُ كَانَ مَغْفُورًا لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْلِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَعَنْ مُقَاتِلٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَعْتَقَ رَقَبَةً فِي تَحْرِيمِ مَارِيَةَ.

﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾[1] سَيِّدُكُمْ وَمُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾[2] بِمَا يُصْلِحُكُمْ فَيَشْرَعُهُ لَكُمْ، ﴿الْحَكِيمُ﴾[3]، فَلَا يَأْمُرُكُمْ وَلَا يَنْهَاكُمْ إِلَّا بِمَا تُوجِبُهُ الْحِكْمَةُ.

وَقِيلَ: مَوْلَاكُمْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَكَانَتْ نَصِيحَتُهُ أَنْفَعَ لَكُمْ مِنْ نَصَائِحِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾[4]

﴿بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾[5]: حَفْصَةَ.

وَالْحَدِيثُ الَّذِي أَسَرَّ إِلَيْهَا: حَدِيثُ مَارِيَةَ وَإِمَامَةِ الشَّيْخَيْنِ.

﴿نَبَّأَتْ بِهِ﴾[6] أَفْشَتْهُ إِلَى عَائِشَةَ.

وَقُرِئَ: "أَنْبَأَتْ" بِهِ.

﴿وَأَظْهَرَهُ﴾[7]: وَأَطْلَعَ النَّبِيَّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ﴿عَلَيْهِ﴾[8]: عَلَى الْحَدِيثِ، أَيْ: عَلَى إِفْشَائِهِ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ.

وَقِيلَ: أَظْهَرَ اللَّهُ الْحَدِيثَ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الظُّهُورِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾[1] أَعْلَمَ بِبَعْضِ الْحَدِيثِ تَكَرُّمًا.

قَالَ سُفْيَانُ: مَا زَالَ التَّغَافُلُ مِنْ فِعْلِ الْكِرَامِ.

وَقُرِئَ: "عَرَفَ بَعْضَهُ"، أَيْ: جَازَ عَلَيْهِ، مِنْ قَوْلِكَ لِلْمُسِيءِ: لَأُعَرِّفَنَّ لَكَ ذَلِكَ، وَقَدْ عَرَّفْتُ مَا صَنَعْتَ. وَمِنْهُ: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ جَزَاؤُهُ تَطْلِيقَهُ إِيَّاهَا.

وَقِيلَ: الْمُعَرَّفُ: حَدِيثُ الْإِمَامَةِ، وَالْمُعْرَضُ عَنْهُ: حَدِيثُ مَارِيَةَ: وَرُوِيَ أَنَّهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ لَهَا: أَلَمْ أَقُلْ لَكِ اكْتُمِي عَلَيَّ، قَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي فَرَحًا بِالْكَرَامَةِ الَّتِي خَصَّ اللَّهُ بِهَا أَبَاهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ بَعْضُهُنَّ وَعَرَّفَهَا بَعْضَهُ؟

قُلْتُ: لَيْسَ الْغَرَضُ بَيَانَ مَنِ الْمُذَاعِ إِلَيْهِ وَمَنِ الْمُعَرَّفِ، وَإِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ جِنَايَةِ حَفْصَةَ فِي وُجُودِ الْإِنْبَاءِ بِهِ وَإِفْشَائِهِ مِنْ قِبَلِهَا، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِكَرَمِهِ وَحِلْمِهِ، لَمْ يُوجَدْ مِنْهُ إِلَّا الْإِعْلَامُ بِبَعْضِهِ، وَهُوَ حَدِيثُ الْإِمَامَةِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾[2] ذَكَرَ الْمُنَبَّأَ، كَيْفَ أَتَى بِضَمِيرِهِ؟

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[3]

﴿إِنْ تَتُوبَا﴾[4] خِطَابٌ لِحَفْصَةَ وَعَائِشَةَ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ، لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي مُعَاتَبَتِهِمَا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنْهُمَا حَتَّى حَجَّ وَحَجَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ، فَسَكَبْتُ الْمَاءَ عَلَى يَدِهِ فَتَوَضَّأَ،

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ فَقَالَ: عَجَبًا يَا ابْنِ عَبَّاسٍ –كَأَنَّهُ كَرِهَ مَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ–، ثُمَّ قَالَ: هُمَا حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ.

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[1]: فَقَدْ وُجِدَ مِنْكُمَا مَا يُوجِبُ التَّوْبَةَ، وَهُوَ مَيْلُ قُلُوبِكُمَا عَنْ الْوَاجِبِ فِي مُخَالَصَةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ حُبِّ مَا يُحِبُّهُ وَكَرَاهَةِ مَا يَكْرَهُهُ. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "فَقَدْ زَاغَتْ".

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا﴾[2] وَإِنْ تَعَاوَنَا ﴿عَلَيْهِ﴾[3] بِمَا يَسُوءُهُ مِنَ الْإِفْرَاطِ فِي الْغَيْرَةِ وَإِفْشَاءِ سِرِّهِ، فَلَنْ يَعْدَمَ هُوَ مَنْ يُظَاهِرُهُ، وَكَيْفَ يَعْدَمُ الْمُظَاهَرَ مِنَ اللَّهِ.

﴿مَوْلَاهُ﴾[4]، أَيْ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَزِيَادَةُ ﴿هُوَ﴾[5] إِيذَانٌ بِأَنَّ نُصْرَتَهُ عَزِيمَةٌ مِنْ عَزَائِمِهِ، وَأَنَّهُ يَتَوَلَّى ذَلِكَ بِذَاتِهِ.

﴿وَجِبْرِيلُ﴾[6] رَأْسُ الْكُرُوبِيِّينَ، وَقَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ مُفْرِدًا لَهُ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ تَعْظِيمًا لَهُ وَإِظْهَارًا لِمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ.

﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[7]: وَمَنْ صَلَحَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي: كُلُّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: مَنْ بَرِئَ مِنْهُمْ مَنِ النِّفَاقِ. وَقِيلَ: الْأَنْبِيَاءُ وَقِيلَ: الصَّحَابَةُ. وَقِيلَ: الْخُلَفَاءُ مِنْهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدٌ أَمْ جَمْعٌ؟ قُلْتُ: هُوَ وَاحِدٌ أُرِيدَ بِهِ الْجَمْعُ، كَقَوْلِكَ: لَا يَفْعَلُ هَذَا الصَّالِحُ مِنَ النَّاسِ، تُرِيدُ الْجِنْسَ، كَقَوْلِكَ: لَا يَفْعَلُهُ مَنْ صَلَحَ مِنْهُمْ. وَمِثْلُهُ قَوْلُكَ: كُنْتُ فِي السَّامِرِ وَالْحَاضِرِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ: صَالِحُو الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَاوِ، فَكُتِبَ بِغَيْرِ وَاوٍ عَلَى اللَّفْظِ، لِأَنَّ لَفْظَ الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَاحِدٌ فِيهِ، كَمَا جَاءَتْ أَشْيَاءُ فِي الْمُصْحَفِ مَتْبُوعٌ فِيهَا حُكْمُ اللَّفْظِ دُونَ وَضْعِ الْخَطِّ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾[1] عَلَى تَكَاثُرِ عَدَدِهِمْ، وَامْتِلَاءِ السَّمَوَاتِ مِنْ جُمُوعِهِمْ.

﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾[2]: بَعْدَ نُصْرَةِ اللَّهِ وَنَامُوسِهِ وَصَالِحِي الْمُؤْمِنَيْنِ.

﴿ظَهِيرٌ﴾[3] فَوْجٌ مُظَاهِرٌ لَهُ، كَأَنَّهُ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ يُعَادِيهِ، فَمَا يَبْلُغُ تَظَاهُرُ امْرَأَتَيْنِ عَلَى مَنْ هَؤُلَاءِ ظُهَرَاؤُهُ؟

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾[4] تَعْظِيمٌ لِلْمَلَائِكَةِ وَمُظَاهَرَتِهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ نُصْرَةُ اللَّهِ وَجِبْرِيلَ وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنُصْرَةُ اللَّهِ –تَعَالَى– أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ.

قُلْتُ: مُظَاهَرَةُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ جُمْلَةِ نُصْرَةِ اللَّهِ، فَكَأَنَّهُ فَضَّلَ نُصْرَتَهُ –تَعَالَى– بِهِمْ وَبِمُظَاهَرَتِهِمْ عَلَى غَيْرِهَا مِنْ وُجُوهِ نُصْرَتِهِ –تَعَالَى–، لِفَضْلِهِمْ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ.

وَقُرِئَ: تَظَاهَرَا وَتَتَظَاهَرَا. وَتَظْهَرَا.

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[5]

قُرِئَ: "يُبْدِلُهُ"، بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ لِلْكَثْرَةِ.

﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ﴾[6]: مُقِرَّاتٍ مُخْلِصَاتٍ، ﴿سَائِحَاتٍ﴾[7]: صَائِمَاتٍ.

وَقُرِئَ: "سَيِّحَاتٍ"، وَهِيَ أَبْلَغُ.

وَقِيلَ لِلصَّائِمِ: سَائِحٌ، لِأَنَّ السَّائِحَ لَا زَادَ مَعَهُ، فَلَا يَزَالُ مُمْسِكًا إِلَى أَنْ يَجِدَ مَا يَطْعَمُهُ، فَشُبِّهَ بِهِ الصَّائِمُ فِي إِمْسَاكِهِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ وَقْتُ إِفْطَارِهِ.

وَقِيلَ: سَائِحَاتٌ مُهَاجِرَاتٌ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: لَمْ تَكُنْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ سِيَاحَةٌ إِلَى الْهِجْرَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَكُونُ الْمُبْدَلَاتُ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَمْ تَكُنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ نِسَاءٌ خَيْرٌ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؟

قُلْتُ: إِذَا طَلَّقَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ لِعِصْيَانِهِنَّ لَهُ وَإِيذَائِهِنَّ إِيَّاهُ، لَمْ يَبْقَيْنَ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ، وَكَانَ غَيْرُهُنَّ مِنَ الْمَوْصُوفَاتِ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ مَعَ الطَّاعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالنُّزُولِ عَلَى هَوَاهُ وَرِضَاهُ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَقَدْ عَرَّضَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: "قَانِتَاتٍ"، لِأَنَّ الْقُنُوتَ هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَطَاعَةُ اللَّهِ فِي طَاعَةِ رَسُولِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أُخْلِيَتِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا عَنِ الْعَاطِفِ وَوُسِّطَ بَيْنَ الثَّيِّبَاتِ وَالْأَبْكَارِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمَا صِفَتَانِ مُتَنَافِيَتَانِ لَا يَجْتَمِعْنَ فِيهِمَا اجْتِمَاعَهُنَّ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ، فَلَمْ يَكُنْ بِهِ مِنَ الْوَاوِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]

﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[2]: بِتَرْكِ الْمَعَاصِي وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ، "وَأَهْلِيكُمْ": بِأَنْ تَأْخُذُوهُمْ بِمَا تَأْخُذُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَالَ يَا أَهْلَاهُ صَلَاتَكُمْ صِيَامَكُمْ زَكَاتَكُمْ مِسْكِينَكُمْ يَتِيمَكُمْ جِيرَانَكُمْ لَعَلَّ اللَّهَ يَجْمَعُهُمْ مَعَهُ فِي الْجَنَّةِ".

وَقِيلَ: إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ جَهِلَ أَهْلَهُ.

وَقُرِئَ: "وَأَهْلُوكُمْ"، عَطْفًا عَلَى وَاوِ "قُوا" وَحَسُنَ الْعَطْفُ لِلْفَاصِلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ التَّقْدِيرُ: قُوا أَنْفُسَكُمْ، وَلْيَقِ أَهْلُوكُمْ أَنْفُسَهُمْ؟

قُلْتُ: لَا، وَلَكِنَّ الْمَعْطُوفَ مُقَارِنٌ فِي التَّقْدِيرِ لِلْوَاوِ، وَأَنْفُسُكُمْ وَاقِعٌ بَعْدَهُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: قُوا أَنْتُمْ وَأَهْلُوكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَمَّا جُمِعَتْ مَعَ الْمُخَاطَبِ الْغَائِبِ غَلَبَتْهُ عَلَيْهِ، فَجُعِلَتْ ضَمِيرُهُمَا مَعًا عَلَى لَفْظِ الْمُخَاطَبِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1] نَوْعًا مِنَ النَّارِ لَا يَتَّقِدُ إِلَّا بِالنَّاسِ وَالْحِجَارَةِ، كَمَا يَتَّقِدُ غَيْرُهَا مِنَ النِّيرَانِ بِالْحَطَبِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: هِيَ حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ، وَهِيَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ حَرًّا إِذَا أُوقِدَ عَلَيْهَا.

وَقُرِئَ: "وُقُودُهَا" بِالضَّمِّ، أَيْ ذُو وَقُودِهَا.

﴿عَلَيْهَا﴾[2]: يَلِي أَمْرَهَا وَتَعْذِيبَ أَهْلِهَا، ﴿مَلَائِكَةٌ﴾[3] يَعْنِي الزَّبَانِيَةَ التِّسْعَةَ عَشَرَ وَأَعْوَانَهُمْ.

﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[4] فِي أَجْرَامِهِمْ غِلْظَةٌ وَشِدَّةٌ، أَيْ: جَفَاءٌ وَقُوَّةٌ. أَوْ فِي أَفْعَالِهِمْ جَفَاءٌ وَخُشُونَةٌ، لَا تَأْخُذُهُمْ رَأْفَةٌ فِي تَنْفِيذِ أَوَامِرِ اللَّهِ وَالْغَضَبِ لَهُ وَالِانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿مَا أَمَرَهُمْ﴾[5] فِي مَحَلِّ النَّصْبِ عَلَى الْبَدَلِ، أَيْ: لَا يَعْصُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ. أَيْ: أَمْرَهُ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[6]]طه: 933]. أَوْ لَا يَعْصُونَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَتِ الْجُمْلَتَانِ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ؟ قُلْتُ: لَا، فَإِنَّ مَعْنَى الْأُولَى أَنَّهُمْ يَتَقَبَّلُونَ أَوَامِرَهُ وَيَلْتَزِمُونَهَا وَلَا يَأْبَوْنَهَا وَلَا يُنْكِرُونَهَا.

وَمَعْنَى الثَّانِيَةِ: أَنَّهُمْ يُؤَدُّونَ مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ لَا يَتَثَاقَلُونَ عَنْهُ وَلَا يَتَوَانَوْنَ فِيهِ. فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ خَاطَبَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْوَحْيِ بِهَذَا بِعَيْنِهِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[7]]الْبَقَرَةِ: 24]، وَقَالَ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[8]]الْبَقَرَةِ: 244]. فَجَعَلَهَا مُعَدَّةً لِلْكَافِرِينَ، فَمَا مَعْنَى مُخَاطَبَتِهِ بِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ؟

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الْفُسَّاقُ وَإِنْ كَانَتْ دَرَكَاتُهُمْ فَوْقَ دَرَكَاتِ الْكُفَّارِ، فَإِنَّهُمْ مُسَاكِنُونَ الْكُفَّارَ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ فَقِيلَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: قُوا أَنْفُسَكُمْ بِاجْتِنَابِ الْفُسُوقِ مُسَاكَنَةَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ أُعِدَّتْ لَهُمْ هَذِهِ النَّارُ الْمَوْصُوفَةُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالتَّوَقِّي مِنَ الِارْتِدَادِ، وَالنَّدَمِ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، وَيُعَضِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى– عَلَى أَثَرِهِ: يُؤْمَرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ لَا تَعْتَذِرُوا، لِأَنَّهُ لَا عُذْرَ لَكُمْ. أَوْ لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمُ الِاعْتِذَارُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]

﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾[2] وُصِفَتِ التَّوْبَةُ بِالنُّصْحِ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، وَالنُّصْحُ: صِفَةُ التَّائِبِينَ، وَهُوَ أَنْ يَنْصَحُوا بِالتَّوْبَةِ أَنْفُسَهُمْ، فَيَأْتُوا بِهَا عَلَى طَرِيقِهَا مُتَدَارِكَةً لِلْفُرُطَاتِ مَاحِيَةً لِلسَّيِّئَاتِ. وَذَلِكَ: أَنْ يَتُوبُوا عَنِ الْقَبَائِحِ لِقُبْحِهَا، نَادِمِينَ عَلَيْهَا، مُغْتَمِّينَ أَشَدَّ الِاغْتِمَامِ لِارْتِكَابِهَا، عَازِمِينَ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعُودُونَ فِي قَبِيحٍ مِنَ الْقَبَائِحِ إِلَى أَنْ يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، مُوَطِّنِينَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–: أَنَّهُ سَمِعَ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَا هَذَا، إِنَّ سُرْعَةَ اللِّسَانِ بِالتَّوْبَةِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ. قَالَ: وَمَا التَّوْبَةُ؟ قَالَ: يَجْمَعُهَا سِتَّةُ أَشْيَاءَ: عَلَى الْمَاضِي مِنَ الذُّنُوبِ: النَّدَامَةُ، وَلِلْفَرَائِضِ: الْإِعَادَةُ، وَرَدُّ الْمَظَالِمِ، وَاسْتِحْلَالُ الْخُصُومِ، وَأَنْ تَعْزِمَ عَلَى أَنْ لَا تَعُودَ، وَأَنْ تُذِيبَ نَفْسَكَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، كَمَا رَبَّيْتَهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، وَأَنْ تُذِيقَهَا مَرَارَةَ الطَّاعَاتِ كَمَا أَذَقْتَهَا حَلَاوَةَ الْمَعَاصِي.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ: بِحَسْبِ الرَّجُلِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَتُوبَ عَنِ الذَّنْبِ ثُمَّ يَعُودَ فِيهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ: أَنْ لَا يَعُودَ وَلَوْ حُزَّ بِالسَّيْفِ وَأُحْرِقَ بِالنَّارِ.

وَعَنِ ابْنِ السَّمَّاكِ: أَنْ تَنْصِبَ الذَّنْبَ الَّذِي أَقْلَلْتَ فِيهِ الْحَيَاءَ مِنَ اللَّهِ أَمَامَ عَيْنِكَ وَتَسْتَعِدَّ لِمُنْتَظَرِكَ.

وَقِيلَ: تَوْبَةٌ لَا يُتَابُ مِنْهَا.

وَعَنِ السُّدِّيِّ: لَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِلَّا بِنَصِيحَةِ النَّفْسِ وَالْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ مَنْ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مِثْلَهُ.

وَقِيلَ: نَصُوحًا مِنْ نَصَاحَةِ الثَّوْبِ، أَيْ: تَوْبَةً تَرْفُو خَرُوقَكَ فِي دِينِكَ، وَتَرُمُّ خَلَّكَ. وَقِيلَ: خَالِصَةً، مِنْ قَوْلِهِمْ: عَسَلٌ نَاصِحٌ إِذَا خَلَصَ مِنَ الشَّمْعِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: تَوْبَةٌ تَنْصَحُ النَّاسَ، أَيْ: تَدْعُوهُمْ إِلَى مِثْلِهَا لِظُهُورِ أَثَرِهَا فِي صَاحِبِهَا، وَاسْتِعْمَالِهِ الْجِدَّ وَالْعَزِيمَةَ فِي الْعَمَلِ عَلَى مُقْتَضَيَاتِهَا.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: تَوْبًا نَصُوحًا. وَقُرِئَ: "نُصُوحًا"، بِالضَّمِّ، وَهُوَ مَصْدَرُ نَصَحَ. وَالنُّصْحُ وَالنُّصُوحُ، كَالشُّكْرِ وَالشُّكُورِ، وَالْكُفْرِ وَالْكُفُورِ، أَيْ: ذَاتُ نَصُوحٍ. أَوْ تَنْصَحُ نَصُوحًا. أَوْ تُوبُوا لِنُصْحِ أَنْفُسِكُمْ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾[1] إِطْمَاعٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، وَفِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْجَبَابِرَةِ مِنَ الْإِجَابَةِ بِعَسَى وَلَعَلَّ. وَوُقُوعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَوْقِعَ الْقَطْعِ وَالْبَتِّ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يَجِيءَ بِهِ تَعْلِيمًا لِلْعِبَادِ وُجُوبَ التَّرَجُّحِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْبَتِّ: قِرَاءَةُ ابْنِ أَبِي عَبْلَةَ: وَيُدْخِلْكُمْ بِالْجَزْمِ، عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ "عَسَى أَنْ يُكَفِّرَ" كَأَنَّهُ قِيلَ: تُوبُوا يُوجِبْ لَكُمْ تَكْفِيرَ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ.

﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ﴾[2] نُصِبَ بِيُدْخِلْكُمْ، وَلَا يُخْزِي: تَعْرِيضٌ بِمَنْ أَخْزَاهُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ، وَاسْتِحْمَادٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنَّهُ عَصَمَهُمْ مِنْ مِثْلِ حَالِهِمْ.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَى﴾[3] عَلَى الصِّرَاطِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[1] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُونَ ذَلِكَ إِذَا طُفِئَ نُورُ الْمُنَافِقِينَ إِشْفَاقًا.

وَعَنِ الْحَسَنِ: اللَّهُ مُتَمِّمُهُ لَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ يَدْعُونَ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[2]]غَافِرٍ: 555]. وَهُوَ مَغْفُورٌ لَهُ. وَقِيلَ: يَقُولُهُ أَدْنَاهُمْ مَنْزِلَةً، لِأَنَّهُمْ يُعْطَوْنَ مِنَ النُّورِ قَدْرَ مَا يُبْصِرُونَ بِهِ مَوَاطِئَ أَقْدَامِهِمْ؛ لِأَنَّ النُّورَ عَلَى قَدْرِ الْأَعْمَالِ فَيَسْأَلُونَ إِتْمَامَهُ تَفَضُّلًا.

وَقِيلَ: السَّابِقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ يَمُرُّونَ مِثْلَ الْبَرْقِ عَلَى الصِّرَاطِ، وَبَعْضُهُمْ كَالرِّيحِ، وَبَعْضُهُمْ حَبْوًا وَزَحْفًا، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُشْفِقُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ آمِنُونَ؟ ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[4]]فُصِّلَتْ: 40 .[﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾[5]]يُونُسَ: 6.[، ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾][6]الْأَنْبِيَاءِ: 1033]. أَوْ كَيْفَ يَتَقَرَّبُونَ وَلَيْسَتِ الدَّارُ دَارَ تَقَرُّبٍ؟

قُلْتُ: أَمَّا الْإِشْفَاقُ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى عَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَإِنْ كَانُوا مُعْتَقِدِينَ الْأَمْنَ.

وَأَمَّا التَّقَرُّبُ فَلَمَّا كَانَتْ حَالُهُمْ كَحَالِ الْمُتَقَرِّبِينَ حَيْثُ يَطْلُبُونَ مَا هُوَ حَاصِلٌ لَهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ: سَمَّاهُ تَقَرُّبًا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾[1] بِالسَّيْفِ، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾[2] بِالِاحْتِجَاجِ، وَاسْتَعْمِلِ الْغِلْظَةَ وَالْخُشُونَةَ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ فِيمَا تُجَاهِدُهُمَا بِهِ مِنَ الْقِتَالِ وَالْمُحَاجَّةِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: مُجَاهَدَةُ الْمُنَافِقِينَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: بِالْوَعِيدِ.

وَقِيلَ: بِإِفْشَاءِ أَسْرَارِهِمْ.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[3]

مَثَّلَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– حَالَ الْكُفَّارِ –فِي أَنَّهُمْ يُعَاقَبُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ مُعَاقَبَةَ مِثْلِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِبْقَاءٍ وَلَا مُحَابَاةٍ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ مَعَ عَدَاوَتِهِمْ لَهُمْ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنْ لُحْمَةِ نَسَبٍ أَوْ وَصِلَةِ صِهْرٍ، لِأَنَّ عَدَاوَتَهُمْ لَهُمْ وَكُفْرَهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قَطْعُ الْعَلَائِقِ وَبَتُّ الْوَصْلِ، وَجَعَلَهُمْ أَبْعَدَ مِنَ الْأَجَانِبِ وَأَبْعَدَ، وَإِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَتَّصِلُ بِهِ الْكَافِرُ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ– بِحَالِ امْرَأَةِ نُوحٍ وَامْرَأَةِ لُوطٍ: لَمَّا نَافَقَتَا وَخَانَتَا الرَّسُولَيْنِ لَمْ يُغْنِ الرَّسُولَانِ عَنْهُمَا بِحَقِّ مَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُمَا مِنْ وَصِلَةِ الزَّوَاجِ إِغْنَاءً مَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

﴿وَقِيلَ﴾[4] لَهُمَا عِنْدَ مَوْتِهِمَا أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ﴾[5] سَائِرِ ﴿الدَّاخِلِينَ﴾[6] الَّذِينَ لَا وَصْلَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ. أَوْ مَعَ دَاخِلِيهَا مِنْ إِخْوَانِكُمَا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ. وَمِثْلَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَنَّ وَصْلَةَ الْكَافِرِينَ لَا تَضُرُّهُمْ وَلَا تَنْقُصُ شَيْئًا مِنْ ثَوَابِهِمْ وَزُلْفَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ – بِحَالِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَمَنْزِلَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ –تَعَالَى–، مَعَ كَوْنِهَا

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

زَوْجَةَ أَعْدَى أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّاطِقِ بِالْكَلِمَةِ الْعُظْمَى، وَمَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ وَمَا أُوتِيَتْ مِنْ كَرَامَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالِاصْطِفَاءِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، مَعَ أَنَّ قَوْمَهَا كَانُوا كُفَّارًا.

وَفِي طَيِّ هَذَيْنِ التَّمْثِيلَيْنِ تَعْرِيضٌ بِأُمَّيِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَمَا فَرَطَ مِنْهُمَا مِنَ التَّظَاهُرِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِمَا كَرِهَهُ وَتَحْذِيرٌ لَهُمَا عَلَى أَغْلَظِ وَجْهٍ وَأَشَدِّهِ، لِمَا فِي التَّمْثِيلِ مِنْ ذِكْرِ الْكُفْرِ.

وَنَحْوَهُ فِي التَّغْلِيظِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1] وَإِشَارَةً إِلَى أَنَّ مِنْ حَقِّهِمَا أَنْ تَكُونَا فِي الْإِخْلَاصِ وَالْكَمَالِ فِيهِ كَمَثَلِ هَاتَيْنِ الْمُؤْمِنَتَيْنِ، وَأَنْ لَا تَتَّكِلَا عَلَى أَنَّهُمَا زَوْجَا رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْفَضْلَ لَا يَنْفَعُهُمَا إِلَّا مَعَ كَوْنِهِمَا مُخْلِصَتَيْنِ، وَالتَّعْرِيضُ بِحَفْصَةَ أَرْجَحُ، لِأَنَّ امْرَأَةَ لُوطٍ أَفْشَتْ عَلَيْهِ كَمَا أَفْشَتْ حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ وَرُمُوزُهُ فِي كُلِّ بَابٍ بَالِغَةٌ مِنَ اللُّطْفِ وَالْخَفَاءِ حَدًّا يَدِقُّ عَنْ تَفَطُّنِ الْعَالِمِ وَيَزِلُّ عَنْ تَبَصُّرِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾[2]؟

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ مَبْنَى التَّمْثِيلِ عَلَى وُجُودِ الصَّلَاحِ فِي الْإِنْسَانِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُبْلَغُ بِهِ الْفَوْزَ وَيُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ: قَالَ: عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ، فَذِكْرُ النَّبِيَّيْنِ الْمَشْهُورَيْنِ الْعَلَمَيْنِ بِأَنَّهُمَا عَبْدَانِ لَمْ يَكُونَا إِلَّا كَسَائِرِ عِبَادِنَا، مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُمْ إِلَّا بِالصَّلَاحِ وَحْدَهُ إِظْهَارًا وَإِبَانَةً، لِأَنَّ عَبْدًا مِنَ الْعِبَادِ لَا يُرَجَّحُ عِنْدَهُ إِلَّا بِالصَّلَاحِ لَا غَيْرَ، وَأَنَّ مَا سِوَاهُ مِمَّا يُرَجَّحُ بِهِ النَّاسُ عِنْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِسَبَبٍ لِلرُّجْحَانِ عِنْدَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا كَانَتْ خِيَانَتُهُمَا؟

قُلْتُ: نِفَاقُهُمَا وَإِبْطَانُهُمَا الْكُفْرَ، وَتَظَاهُرُهُمَا عَلَى الرَّسُولَيْنِ، فَامْرَأَةُ نُوحٍ قَالَتْ لِقَوْمِهِ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَامْرَأَةُ لُوطٍ دَلَّتْ عَلَى ضِيفَانِهِ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْخِيَانَةِ الْفُجُورُ، لِأَنَّهُ سَمِجٌ فِي الطِّبَاعِ نَقِيصَةٌ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، بِخِلَافِ الْكُفْرِ؛ فَإِنَّ الْكُفَّارَ لَا يَسْتَسْمِجُونَهُ بَلْ يَسْتَحْسِنُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ حَقًّا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: "مَا بَغَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ﴾[1]

وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ: آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ .

وَقِيلَ: هِيَ عَمَّةُ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– آمَنَتْ حِينَ سَمِعَتْ بِتَلَقُّفِ عَصَا مُوسَى الْإِفْكَ، فَعَذَّبَهَا فِرْعَوْنُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ فِرْعَوْنَ وَتَدَ امْرَأَتَهُ بِأَرْبَعَةِ أَوْتَادٍ، وَاسْتَقْبَلَ بِهَا الشَّمْسَ، وَأَضْجَعَهَا عَلَى ظَهْرِهَا، وَوَضَعَ رَحًى عَلَى صَدْرِهَا.

وَقِيلَ: أَمَرَ بِأَنْ تُلْقَى عَلَيْهَا صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ، فَدَعَتِ اللَّهَ فَرُقِيَ بِرُوحِهَا، فَأُلْقِيَتِ الصَّخْرَةُ عَلَى جَسَدٍ لَا رُوحَ فِيهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: فَنَجَّاهَا اللَّهُ أَكْرَمَ نَجَاةٍ، فَرَفَعَهَا إِلَى الْجَنَّةِ، فَهِيَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ وَتَتَنَعَّمُ فِيهَا.

وَقِيلَ: لَمَّا قَالَتْ: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ: أُرِيَتْ بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ يُبْنَى. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ دُرَّةٍ. وَقِيلَ: كَانَتْ تُعَذَّبُ فِي الشَّمْسِ فَتُظِلُّهَا الْمَلَائِكَةُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الْجَمْعِ بَيْنَ عِنْدَكَ وَفِي الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: طَلَبَتِ الْقُرْبَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْبُعْدَ مِنْ عَذَابِ أَعْدَائِهِ، ثُمَّ بَيَّنَتْ مَكَانَ الْقُرْبِ بِقَوْلِهَا: ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾[2] أَوْ أَرَادَتِ ارْتِفَاعَ الدَّرَجَةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَنْ تَكُونَ جَنَّتُهَا مِنَ الْجِنَانِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْعَرْشِ، وَهِيَ جَنَّاتُ الْمَأْوَى، فَعَبَّرَتْ عَنِ الْقُرْبِ إِلَى الْعَرْشِ بِقَوْلِهَا: "عِنْدَكَ".

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾[3]: مِنْ عَمَلِ فِرْعَوْنَ. أَوْ مِنْ نَفْسِ فِرْعَوْنَ الْخَبِيثَةِ وَسُلْطَانِهِ الْغَشُومِ، وَخُصُوصًا مِنْ عَمَلِهِ، وَهُوَ: الْكُفْرُ، وَعِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَالظُّلْمُ، وَالتَّعْذِيبُ بِغَيْرِ جُرْمٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] مِنَ الْقِبْطِ كُلِّهِمْ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ بِاللَّهِ وَالِالْتِجَاءَ إِلَيْهِ وَمَسْأَلَةَ الْخَلَاصِ مِنْهُ عِنْدَ الْمِحَنِ وَالنَّوَازِلِ: مِنْ سِيَرِ الصَّالِحِينَ وَسُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]]الشُّعَرَاءِ: 118.[، ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[3]]يُونُسَ: 85-86[.

"فِيهِ" فِي الْفَرْجِ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ : فِيهَا، كَمَا قُرِئَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالضَّمِيرُ لِلْجُمْلَةِ، وَقَدْ مَرَّ لِي فِي هَذَا الظَّرْفِ كَلَامٌ.

وَمِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ: أَنَّ الْفَرْجَ هُوَ جَيْبُ الدِّرْعِ، وَمَعْنَى أَحْصَنَتْهُ: مَنَعَتْهُ جِبْرِيلَ، وَأَنَّهُ جُمِعَ فِي التَّمْثِيلِ بَيْنَ الَّتِي لَهَا زَوْجٌ وَالَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، تَسْلِيَةً لِلْأَرَامِلِ وَتَطْيِيبًا لِأَنْفُسِهِنَّ.

"وَصَدَّقَتْ" قُرِئَ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ عَلَى أَنَّهَا جَعَلَتِ الْكَلِمَاتِ وَالْكُتُبَ صَادِقَةً، يَعْنِي: وَصَفَتْهَا بِالصِّدْقِ، وَهُوَ مَعْنَى التَّصْدِيقِ بِعَيْنِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا كَلِمَاتُ اللَّهِ وَكُتُبُهُ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِكَلِمَاتِهِ: صُحُفُهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى إِدْرِيسَ وَغَيْرِهِ، سَمَّاهَا كَلِمَاتٍ لِقِصَرِهَا، وَبِكُتُبِهِ: الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ، وَأَنْ يُرَادَ جَمِيعُ مَا كَلَّمَ اللَّهُ بِهِ مَلَائِكَتَهُ وَغَيْرَهُمْ، وَجَمِيعُ مَا كَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ وَغَيْرِهِ.

وَقُرِئَ: "بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ"، أَيْ: بِعِيسَى وَبِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وَهُوَ الْإِنْجِيلُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ: ﴿مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[4] عَلَى التَّذْكِيرِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْقُنُوتَ صِفَةٌ تَشْمَلُ مَنْ قَنَتَ مِنَ الْقَبِيلَيْنِ، فَغَلَبَ ذُكُورُهُ عَلَى إِنَاثِهِ.

وَ"مِنْ" لِلتَّبْعِيضِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، عَلَى أَنَّهَا وُلِدَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ، لِأَنَّهَا مِنْ أَعْقَابِ هَارُونَ أَخِي مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ: آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ. وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ".

وَأَمَّا مَا رُوِيَ أَنَّ عَائِشَةَ سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَيْفَ سَمَّى اللَّهُ الْمُسْلِمَةَ؟ تَعْنِي مَرْيَمَ، وَلَمْ يُسَمِّ الْكَافِرَةَ؟ فَقَالَ: بُغْضًا لَهَا: قَالَتْ: وَمَا اسْمُهَا؟ قَالَ: اسْمُ امْرَأَةِ نُوحٍ "وَاعِلَةُ "وَاسْمُ امْرَأَةِ لُوطٍ " وَاهِلَةُ "فَحَدِيثٌ أَثَرُ الصَّنْعَةِ عَلَيْهِ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ، وَلَقَدْ سَمَّى اللَّهُ –تَعَالَى– جَمَاعَةً مِنَ الْكُفَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَكُنَاهُمْ، وَلَوْ كَانَتِ التَّسْمِيَةُ لِلْحُبِّ وَتَرْكُهَا لِلْبُغْضِ لَسَمَّى آسِيَةَ، وَقَدْ قَرَنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَرْيَمَ فِي التَّمْثِيلِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ لِلْمَصْنُوعِ أَمَارَةً تَنِمُّ عَلَيْهِ، وَكَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَحْكَمُ وَأَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [التَّحْرِيمِ] آتَاهُ اللَّهُ تَوْبَةً نَصُوحًا".

سورة الكهف

سورة الملك

مَكِّيَّةٌ،
وَهِيَ ثَلَاثُونَ آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [الطُّورِ]
وَتُسَمَّى: الْوَاقِيَةَ، وَالْمُنْجِيَةَ،
لِأَنَّهَا تَقِي وَتُنْجِي قَارِئَهَا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1]

﴿تَبَارَكَ﴾[2] -تَعَالَى- وَتَعَاظَمَ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[3] عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ﴾[4] مَا لَمْ يُوجَدْ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ "قَدِيرٌ" وَذِكْرُ الْيَدِ مَجَازٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِالْمُلْكِ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .

وَالْحَيَاةُ: مَا يَصِحُّ بِوُجُودِهِ الْإِحْسَاسُ. وَقِيلَ: مَا يُوجِبُ كَوْنَ الشَّيْءِ حَيًّا، وَهُوَ الَّذِي يَصِحُّ مِنْهُ أَنْ يُعْلَمَ وَيُقَدَّرَ. وَالْمَوْتُ عَدَمُ ذَلِكَ فِيهِ، وَمَعْنَى خَلْقِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ: إِيجَادُ ذَلِكَ الْمُصَحِّحِ وَإِعْدَامُهُ.

وَالْمَعْنَى: خَلَقَ مَوْتَكُمْ وَحَيَاتَكُمْ أَيُّهَا الْمُكَلَّفُونَ "لِيَبْلُوَكُمْ" وَسَمَّى عِلْمَ الْوَاقِعِ مِنْهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ "بَلْوَى" وَهِيَ الْخِبْرَةُ اسْتِعَارَةً مِنْ فِعْلِ الْمُخْتَبِرِ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾[1]]مُحَمَّدٍ: 311].

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ تَعَلَّقَ قَوْلُهُ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾[2] بِفِعْلِ الْبَلْوَى؟

قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ تَضَمَّنَ مَعْنَى الْعِلْمِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: لِيَعْلَمَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

وَإِذَا قُلْتَ: عَلِمْتُهُ: أَزَيْدٌ أَحْسَنُ عَمَلًا أَمْ هُوَ؟ كَانَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ وَاقِعَةً مَوْقِعَ الثَّانِي مِنْ مَفْعُولَيْهِ، كَمَا تَقُولُ: عَلِمْتُهُ هُوَ أَحْسَنُ عَمَلًا.

فَإِنْ قُلْتَ: أَتُسَمِّي هَذَا تَعْلِيقًا؟

قُلْتُ: لَا، إِنَّمَا التَّعْلِيقُ أَنْ تُوقِعَ بَعْدَهُ مَا يَسُدُّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ جَمِيعًا، كَقَوْلِكَ: عَلِمْتُ أَيُّهُمَا عَمْرٌو، وَعَلِمْتُ أَزَيْدٌ مُنْطَلِقٌ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا فَصْلَ بَعْدَ سَبْقِ أَحَدِ الْمَفْعُولَيْنِ بَيْنَ أَنْ يَقَعَ مَا بَعْدَهُ مُصَدَّرًا بِحَرْفِ الِاسْتِفْهَامِ وَغَيْرَ مُصَدَّرٍ بِهِ، وَلَوْ كَانَ تَعْلِيقًا لَافْتَرَقَتِ الْحَالَتَانِ كَمَا افْتَرَقَتَا فِي قَوْلِكَ: عَلِمْتُ أَزَيْدٌ مُنْطَلِقٌ. وَعَلِمْتُ زَيْدًا مُنْطَلِقًا.

﴿أَحْسَنُ عَمَلا﴾[3] . قِيلَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا غَيْرَ صَوَابٍ لَمْ يُقْبَلْ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ صَوَابًا غَيْرَ خَالِصٍ، فَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِوَجْهِ اللَّهِ –تَعَالَى–، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ تَلَاهَا، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾[4] قَالَ: "أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا وَأَوْرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ "يَعْنِي: أَيُّكُمْ أَتَمُّ عَقْلًا عَنِ اللَّهِ وَفَهْمًا لِأَغْرَاضِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ أَعْطَاكُمُ الْحَيَاةَ الَّتِي تَقْدِرُونَ بِهَا عَلَى الْعَمَلِ وَتَسْتَمْكِنُونَ مِنْهُ، وَسَلَّطَ عَلَيْكُمُ الْمَوْتَ الَّذِي هُوَ دَاعِيكُمْ إِلَى اخْتِيَارِ الْعَمَلِ الْحَسَنِ عَلَى الْقَبِيحِ، لِأَنَّ وَرَاءَهُ الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ. وَقَدَّمَ الْمَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ، لِأَنَّ أَقْوَى النَّاسِ دَاعِيًا إِلَى الْعَمَلِ مَنْ نَصَبَ مَوْتَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَقَدَّمَ لِأَنَّهُ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الْغَرَضِ الْمَسُوقِ لَهُ الْآيَةُ أَهَمُّ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾[1]: الْغَالِبُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مَنْ أَسَاءَ الْعَمَلَ "الْغَفُورُ" لِمَنْ تَابَ مِنْ أَهْلِ الْإِسَاءَةِ "طِبَاقًا" مُطَابَقَةً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، مِنْ طَابَقَ النَّعْلَ: إِذَا خَصَفَهَا طَبَقًا عَلَى طَبَقٍ، وَهَذَا وَصْفٌ بِالْمَصْدَرِ. أَوْ عَلَى ذَاتِ طِبَاقٍ، أَوْ عَلَى: طُوبِقَتْ طِبَاقًا.

﴿مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[2]، وَقُرِئَ: "تَفَوُّتٍ"، وَمَعْنَى الْبِنَاءَيْنِ وَاحِدٌ، كَقَوْلِهِمْ: تَظَاهَرُوا مِنْ نِسَائِهِمْ. وَتَظَهَّرُوا. وَتَعَاهَدْتُهُ وَتَعَهَّدْتُهُ، أَيْ: مِنَ اخْتِلَافٍ وَاضْطِرَابٍ فِي الْخِلْقَةِ وَلَا تَنَاقُضَ، إِنَّمَا هِيَ مُسْتَوِيَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ.

وَحَقِيقَةُ التَّفَاوُتِ: عَدَمُ التَّنَاسُبِ، كَأَنَّ بَعْضَ الشَّيْءِ يَفُوتُ بَعْضًا وَلَا يُلَائِمُهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: خَلْقٌ مُتَفَاوِتٌ. وَفِي نَقِيضِهِ: مُتَنَاصِفٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ مَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِمَّا قَبْلَهَا؟

قُلْتُ: هِيَ صِفَةٌ مُشَايِعَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿طِبَاقًا﴾[3]، وَأَصْلُهَا: مَا تَرَى فِيهِنَّ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَوَضَعَ مَكَانَ الضَّمِيرِ قَوْلَهُ: ﴿خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾[4] تَعْظِيمًا لِخَلْقِهِنَّ، وَتَنْبِيهًا عَلَى سَبَبِ سَلَامَتِهِنَّ مِنَ التَّفَاوُتِ: وَهُوَ أَنَّهُ خَلْقُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَّهُ بِبَاهِرِ قُدْرَتِهِ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مِثْلَ ذَلِكَ الْخَلْقِ الْمُتَنَاسِبِ، وَالْخِطَابُ فِي مَا تَرَى لِلرَّسُولِ أَوْ لِكُلِّ مُخَاطَبٍ.

وَقَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾[5] مُتَعَلِّقٌ بِهِ عَلَى مَعْنَى التَّسْبِيبِ، أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ لَا تَفَاوُتَ فِي خَلْقِهِنَّ، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾[6] حَتَّى يَصِحَّ عِنْدَكَ مَا أَخْبَرْتُ بِهِ بِالْمُعَايَنَةِ، وَلَا تَبْقَى مَعَكَ شُبْهَةٌ فِيهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾[1] مِنْ صُدُوعٍ وَشُقُوقٍ: جَمْعُ فَطَرٍ وَهُوَ الشِّقُّ. يُقَالُ: فَطَرَهُ فَانْفَطَرَ. وَمِنْهُ: فَطَرَ نَابُ الْبَعِيرِ، كَمَا يُقَالُ: شَقَّ وَبَزَلَ. وَمَعْنَاهُ: شَقَّ اللَّحْمَ فَطَلَعَ. وَأَمَرَهُ بِتَكْرِيرِ الْبَصَرِ فِيهِنَّ مُتَصَفِّحًا وَمُتَتَبِّعًا يَلْتَمِسُ عَيْبًا وَخَلَلًا.

﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ﴾[2]، أَيْ: إِنْ رَجَعْتَ الْبَصَرَ وَكَرَّرْتَ النَّظَرَ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ بَصَرُكَ بِمَا الْتَمَسْتَهُ مِنْ رُؤْيَةِ الْخَلَلِ وَإِدْرَاكِ الْعَيْبِ، بَلْ يَرْجِعُ إِلَيْكَ بِالْخُسُوءِ وَالْحُسُورِ، أَيْ: بِالْبُعْدِ عَنْ إِصَابَةِ الْمُلْتَمَسِ، كَأَنَّهُ يُطْرَدُ عَنْ ذَلِكَ طَرْدًا بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ، وَبِالْإِعْيَاءِ وَالْكَلَالِ لِطُولِ الْإِجَالَةِ وَالتَّرْدِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَنْقَلِبُ الْبَصَرُ خَاسِئًا حَسِيرًا بِرَجْعِهِ كَرَّتَيْنِ اثْنَتَيْنِ؟

قُلْتُ: مَعْنَى التَّثْنِيَةِ التَّكْرِيرُ بِكَثْرَةٍ، كَقَوْلِكَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، تُرِيدُ إِجَابَاتٍ كَثِيرَةً بَعْضُهَا فِي أَثَرِ بَعْضٍ، وَقَوْلِهِمْ فِي الْمَثَلِ: دُهْدُرَّيْنِ سَعْدُ الْقَيْنِ مِنْ ذَلِكَ، أَيْ: بَاطِلًا بَعْدَ بَاطِلٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى ثُمَّ ارْجِعْ؟

قُلْتُ: أَمَرَهُ بِرَجْعِ الْبَصَرِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِأَنْ لَا يَقْتَنِعَ بِالرَّجْعَةِ الْأُولَى وَبِالنَّظْرَةِ الْحَمْقَاءِ، وَأَنْ يَتَوَقَّفَ بَعْدَهَا وَيُجِمَّ بَصَرَهُ، ثُمَّ يُعَاوِدَ وَيُعَاوِدَ، إِلَى أَنْ يَحْسَرَ بَصَرُهُ مِنْ طُولِ الْمُعَاوَدَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْثُرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فُطُورٍ.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[3]

﴿الدُّنْيَا﴾[4] الْقُرْبَى، لِأَنَّهَا أَقْرَبُ السَّمَوَاتِ إِلَى النَّاسِ، وَمَعْنَاهَا: السَّمَاءُ الدُّنْيَا مِنْكُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَالْمَصَابِيحُ السُّرُجُ، سُمِّيَتْ بِهَا الْكَوَاكِبُ، وَالنَّاسُ يُزَيِّنُونَ مَسَاجِدَهُمْ وَدُورَهُمْ بِأَثْقَابِ الْمَصَابِيحِ، فَقِيلَ: وَلَقَدْ زَيَّنَا سَقْفَ الدَّارِ الَّتِي اجْتَمَعْتُمْ فِيهَا ﴿بِمَصَابِيحَ﴾[1]، أَيْ بِأَيِّ مَصَابِيحَ لَا تُوَازِيهَا مَصَابِيحُكُمْ إِضَاءَةً، وَضَمَمْنَا إِلَى ذَلِكَ مَنَافِعَ أُخَرَ: أَنَّا.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾[2] لِأَعْدَائِكُمْ: "لِلشَّيَاطِينِ" الَّذِينَ يُخْرِجُونَكُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ وَتَهْتَدُونَ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللَّهُ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا. فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ: فِي السَّمَاءِ وَاللَّهِ مَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي السَّمَاءِ نَجْمٌ، وَلَكِنَّهُمْ يَبْتَغُونَ الْكِهَانَةَ وَيَتَّخِذُونَ النُّجُومَ عِلَّةً.

وَالرُّجُومُ: جَمْعُ رَجْمٍ: وَهُوَ مَصْدَرٌ سُمِّيَ بِهِ مَا يُرْجَمُ بِهِ.

وَمَعْنَى كَوْنِهَا مَرَاجِمَ لِلشَّيَاطِينِ: أَنَّ الشُّهُبَ الَّتِي تَنْقَضُّ لِرَمْيِ الْمُسْتَرِقَةِ مِنْهُمْ مُنْفَصِلَةٌ مِنْ نَارِ الْكَوَاكِبِ، لَا أَنَّهُمْ يُرْجَمُونَ بِالْكَوَاكِبِ أَنْفُسِهَا، لِأَنَّهَا قَارَّةٌ فِي الْفَلَكِ عَلَى حَالِهَا. وَمَا ذَاكَ إِلَّا كَقَبَسٍ يُؤْخَذُ مِنْ نَارٍ، وَالنَّارُ ثَابِتَةٌ كَامِلَةٌ لَا تَنْقُصُ.

وَقِيلَ: مِنَ الشَّيَاطِينِ الْمَرْجُومَةِ مَنْ يَقْتُلُهُ الشِّهَابُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْبِلُهُ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَجَعَلْنَاهَا ظُنُونًا وَرُجُومًا بِالْغَيْبِ لِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَهُمُ النَّجَّامُونَ.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[3] فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ عَذَابِ الْإِحْرَاقِ بِالشُّهُبِ فِي الدُّنْيَا.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

ضَلالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1]

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾[2]، أَيْ: وَلِكُلِّ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَغَيْرِهِمْ، ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[3] لَيْسَ الشَّيَاطِينُ الْمَرْجُومِينَ مَخْصُوصِينَ بِذَلِكَ.

وَقُرِئَ: "عَذَابَ جَهَنَّمَ" بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى: "عَذَابَ السَّعِيرِ".

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾[4]، أَيْ: طُرِحُوا كَمَا يُطْرَحُ الْحَطَبُ فِي النَّارِ الْعَظِيمَةِ، وَيُرْمَى بِهِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[5]]الْأَنْبِيَاءِ: 98.[

﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾[6] إِمَّا لِأَهْلِهَا مِمَّنْ تَقَدَّمَ طَرْحُهُمْ فِيهَا. أَوْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾[7]]هُودٍ: 1066].

وَإِمَّا لِلنَّارِ تَشْبِيهًا لِحَسِيسِهَا الْمُنْكَرِ الْفَظِيعِ بِالشَّهِيقِ، ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾[8]: تَغْلِي بِهِمْ غَلَيَانَ الْمِرْجَلِ بِمَا فِيهِ. وَجُعِلَتْ كَالْمُغْتَاظَةِ عَلَيْهِمْ لِشِدَّةِ غَلَيَانِهَا بِهِمْ، وَيَقُولُونَ: فُلَانٌ يَتَمَيَّزُ غَيْظًا وَيَتَقَصَّفُ غَضَبًا، وَغَضِبَ فَطَارَتْ مِنْهُ شِقَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَشِقَّةٌ فِي السَّمَاءِ: إِذَا وَصَفُوهُ بِالْإِفْرَاطِ فِيهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: غَيْظُ الزَّبَانِيَةِ.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[9]: تَوْبِيخٌ يَزْدَادُونَ بِهِ عَذَابًا إِلَى عَذَابِهِمْ وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ.

وَخَزَنَتُهَا: مَالِكٌ وَأَعْوَانُهُ مِنَ الزَّبَانِيَةِ.

﴿قَالُوا بَلَى﴾[10] اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِعَدْلِ اللَّهِ، وَإِقْرَارٌ بِأَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَعَلَا- أَزَاحَ عِلَلَهُمْ بِبَعْثِهِ الرُّسُلَ وَإِنْذَارِهِمْ مَا وَقَعُوا فِيهِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْتَوا مِنْ قَدَرِهِ كَمَا تَزْعُمُ الْمُجَبِّرَةُ.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

8

9 سورة ، الآية .

10 سورة ، الآية .

وَإِنَّمَا أُتُوا مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ، وَاخْتِيَارِهِمْ خِلَافَ مَا اخْتَارَ اللَّهُ، وَأَمَرَ بِهِ، وَأَوْعَدَ عَلَى ضِدِّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾[1] مِنَ الْمُخَاطَبُونَ بِهِ؟

قُلْتُ: هُوَ مِنْ جُمْلَةِ قَوْلِ الْكُفَّارِ وَخِطَابِهِمْ لِلْمُنْذِرِينَ، عَلَى أَنَّ النَّذِيرَ بِمَعْنَى الْإِنْذَارِ.

وَالْمَعْنَى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَهْلٌ نَذِيرٌ. أَوْ وُصِفَ مُنْذَرُوهُمْ لِغُلُوِّهِمْ فِي الْإِنْذَارِ، كَأَنَّهُمْ لَيْسُوا إِلَّا إِنْذَارًا، وَكَذَلِكَ ﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾. وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]]الشُّعَرَاءِ: 166]. أَيْ: حَامِلًا رِسَالَتَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْخَزَنَةِ لِلْكُفَّارِ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ: أَرَادُوا حِكَايَةَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا. أَوْ أَرَادُوا بِالضَّلَالِ، الْهَلَاكَ. أَوْ سَمَّوْا عِقَابَ الضَّلَالِ بِاسْمِهِ. أَوْ مِنْ كَلَامِ الرُّسُلِ لَهُمْ حَكَوْهُ لِلْخَزَنَةِ، أَيْ: قَالُوا لَنَا هَذَا فَلَمْ نَقْبَلْهُ.

﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾[3] الْإِنْذَارَ سَمَاعَ طَالِبِينَ لِلْحَقِّ. أَمْ نَعْقِلُهُ عَقْلَ مُتَأَمِّلِينَ.

وَقِيلَ: إِنَّمَا جَمَعَ بَيْنَ السَّمْعِ وَالْعَقْلِ، لِأَنَّ مَدَارَ التَّكْلِيفِ عَلَى أَدِلَّةِ السَّمْعِ وَالْعَقْلِ.

وَمِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ: أَنَّ الْمُرَادَ: لَوْ كُنَّا عَلَى مَذْهَبِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ أَوْ عَلَى مَذْهَبِ أَصْحَابِ الرَّأْيِ، كَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ ظُهُورِ هَذَيْنِ الْمَذْهَبَيْنِ، وَكَأَنَّ سَائِرَ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ وَالْمُجْتَهِدِينَ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ وَعِيدَهُمْ، وَكَأَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَهُوَ مِنَ النَّاجِينَ لَا مَحَالَةَ، وَعِدَّةُ الْمُبَشَّرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ: عَشَرَةٌ، لَمْ يُضَمَّ إِلَيْهِمْ حَادِي عَشَرَ، وَكَأَنَّ مَنْ يَجُوزُ عَلَى الصِّرَاطِ أَكْثَرُهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا بِاسْمِ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ.

﴿بِذَنْبِهِمْ﴾[4] بِكُفْرِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ.

﴿فَسُحْقًا﴾[5] قُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ، أَيْ: فَبُعْدًا لَهُمْ، اعْتَرَفُوا أَوْ جَحَدُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

ظَاهِرُهُ الْأَمْرُ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ: الْإِسْرَارِ وَالْإِجْهَارِ. وَمَعْنَاهُ: لِيَسْتَوِ عِنْدَكُمْ إِسْرَارُكُمْ وَإِجْهَارُكُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ بِهِمَا، ثُمَّ إِنَّهُ عَلَّلَهُ بِـ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1]، أَيْ: بِضَمَائِرِهَا قَبْلَ أَنْ تُتَرْجِمَ الْأَلْسِنَةُ عَنْهَا، فَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ؟! ثُمَّ أَنْكَرَ أَنْ لَا يُحِيطَ عِلْمًا بِالْمُضْمَرِ وَالْمُسَرِّ وَالْمُجْهَرِ.

﴿مَنْ خَلَقَ﴾[2] الْأَشْيَاءَ، وَحَالُهُ أَنَّهُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، الْمُتَوَصِّلُ عِلْمُهُ إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ خَلْقِهِ وَمَا بَطَنَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾[3] مَنْصُوبًا بِمَعْنَى: أَلَا يَعْلَمُ مَخْلُوقَهُ وَهَذِهِ حَالُهُ.

وَرُوِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِأَشْيَاءَ، فَيُظْهِرُ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَيْهَا، فَيَقُولُونَ: أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُهُ إِلَهُ مُحَمَّدٍ، فَنَبَّهَ اللَّهُ عَلَى جَهْلِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدَّرْتَ فِي ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾[4] مَفْعُولًا عَلَى مَعْنَى: أَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ الْمَذْكُورَ مِمَّا أُضْمِرَ فِي الْقَلْبِ وَأُظْهِرَ بِاللِّسَانِ مَنْ خَلَقَ، فَهَلَّا جَعَلْتَهُ مِثْلَ قَوْلِهِمْ: هُوَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ؟! وَهَلَّا كَانَ الْمَعْنَى: أَلَا يَكُونُ عَالِمًا مَنْ هُوَ خَالِقٌ، لِأَنَّ الْخَلْقَ لَا يَصِحُّ إِلَّا مَعَ الْعِلْمِ؟!

قُلْتُ: أَبَتْ ذَلِكَ الْحَالُ الَّتِي هِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[5] لِأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: أَلَا يَكُونُ عَالِمًا مَنْ هُوَ خَالِقٌ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ: لَمْ يَكُنْ مَعْنًى صَحِيحًا، لِأَنَّ أَلَا يَعْلَمُ مُعْتَمِدٌ عَلَى الْحَالِ. وَالشَّيْءُ لَا يُوَقَّتُ بِنَفْسِهِ، فَلَا يُقَالُ: أَلَا يَعْلَمُ، وَهُوَ عَالِمٌ؟ وَلَكِنْ أَلَا يَعْلَمُ كَذَا، وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ؟

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

الْمَشْيُ فِي مَنَاكِبِهَا: مَثَلٌ لِفَرْطِ التَّذْلِيلِ وَمُجَاوَزَتِهِ الْغَايَةَ، لِأَنَّ الْمَنْكِبَيْنِ وَمُلْتَقَاهُمَا مِنَ الْغَارِبِ أَرَقُّ شَيْءٍ مِنَ الْبَعِيرِ وَأَنْبَاهُ عَنْ أَنْ يَطَأَهُ الرَّاكِبُ بِقَدَمِهِ وَيَعْتَمِدَ عَلَيْهِ، فَإِذَا جَعَلَهَا فِي الذُّلِّ بِحَيْثُ يَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا لَمْ يُتْرَكْ.

وَقِيلَ: مَنَاكِبُهَا جِبَالُهَا.

قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ سَهَّلَ لَكُمُ السُّلُوكَ فِي جِبَالِهَا، فَإِذَا أَمْكَنَكُمُ السُّلُوكُ فِي جِبَالِهَا، فَهُوَ أَبْلَغُ التَّذْلِيلِ.

وَقِيلَ: جَوَانِبُهَا.

وَالْمَعْنَى: وَإِلَيْهِ نَشُورُكُمْ، فَهُوَ مَسَائِلُكُمْ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ.

﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[1]

﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾[2] فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا مِنْ مَلَكُوتِهِ فِي السَّمَاءِ، لِأَنَّهَا مَسْكَنُ مَلَائِكَتِهِ وَثَمَّ عَرْشُهُ وَكُرْسِيُّهُ وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَمِنْهَا تَنْزِلُ قَضَايَاهُ وَكُتُبُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ.

– وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ التَّشْبِيهَ، وَأَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَأَنَّ الرَّحْمَةَ وَالْعَذَابَ يَنْزِلَانِ مِنْهُ، وَكَانُوا يَدْعُونَهُ مِنْ جِهَتِهَا، فَقِيلَ لَهُمْ عَلَى حَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ: أَأَمِنْتُمْ مَنْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الْمَكَانِ أَنْ يُعَذِّبَكُمْ بِخَسْفٍ أَوْ بِحَاصِبٍ، كَمَا تَقُولُ لِبَعْضِ الْمُشَبِّهَةِ: أَمَا تَخَافُ مَنْ فَوْقَ الْعَرْشِ أَنْ يُعَاقِبَكَ بِمَا تَفْعَلُ؟ إِذَا رَأَيْتَهُ يَرْكَبُ بَعْضَ الْمَعَاصِي.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾[1]، قُرِئَ: بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾[2]، أَيْ: إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُنْذَرَ بِهِ عَلِمْتُمْ كَيْفَ إِنْذَارِي حِينَ لَا يَنْفَعُكُمُ الْعِلْمُ.

﴿صَافَّاتٍ﴾[3] بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهُنَّ فِي الْجَوِّ عِنْدَ طَيَرَانِهَا، لِأَنَّهُنَّ إِذَا بَسَطْنَهَا صَفَفْنَ قَوَادِمَهَا صَفًّا، "وَيَقْبِضْنَ" وَيَضْمُمْنَهَا إِذَا ضَرَبْنَ بِهَا جُنُوبَهُنَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ: وَيَقْبِضْنَ، وَلَمْ يَقُلْ: وَقَابِضَاتٍ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الطَّيَرَانِ هُوَ صَفُّ الْأَجْنِحَةِ، لِأَنَّ الطَّيَرَانَ فِي الْهَوَاءِ كَالسِّبَاحَةِ فِي الْمَاءِ، وَالْأَصْلُ فِي السِّبَاحَةِ مَدُّ الْأَطْرَافِ وَبَسْطُهَا.

وَأَمَّا الْقَبْضُ، فَطَارِئٌ عَلَى الْبَسْطِ لِلِاسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى التَّحَرُّكِ، فَجِيءَ بِمَا هُوَ طَارِئٌ غَيْرُ أَصْلٍ بِلَفْظِ الْفِعْلِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُنَّ صَافَّاتٌ، وَيَكُونُ مِنْهُنَّ الْقَبْضُ تَارَةً كَمَا يَكُونُ مِنَ السَّابِحِ.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ﴾[4] بِقُدْرَتِهِ وَبِمَا دَبَّرَ لَهُنَّ مِنَ الْقَوَادِمِ وَالْخَوَافِي، وَبَنَى الْأَجْسَامَ عَلَى شَكْلٍ وَخَصَائِصَ قَدْ تَأَتَّى مِنْهَا الْجَرْيُ فِي الْجَوِّ.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[5] يَعْلَمُ كَيْفَ يَخْلُقُ وَكَيْفَ يُدَبِّرُ الْعَجَائِبَ.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

أَمْ مَنْ يُشَارُ إِلَيْهِ مِنَ الْجُمُوعِ وَيُقَالُ: ﴿هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾[1]، إِنْ أَرْسَلَ عَلَيْكُمْ عَذَابَهُ، "أَمْ مَنْ" يُشَارُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ: ﴿هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾[2] وَهَذَا عَلَى التَّقْدِيرِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى جَمِيعِ الْأَوْثَانِ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ يُحْفَظُونَ مِنَ النَّوَائِبِ وَيُرْزَقُونَ بِبَرَكَةِ آلِهَتِهِمْ، فَكَأَنَّهُمُ الْجُنْدُ النَّاصِرُ وَالرَّازِقُ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾[3]]الْأَنْبِيَاءِ: 43.[

﴿ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[4]: بَلْ تَمَادَوْا فِي عِنَادٍ وَشِرَادٍ عَنِ الْحَقِّ لِثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَتَّبِعُوهُ.

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[5]

يُجْعَلُ "أَكَبَّ" مُطَاوِعَ "كَبَّهُ" يُقَالُ: كَبَبْتُهُ فَأَكَبَّ، مِنَ الْغَرَائِبِ وَالشَّوَاذِّ.

وَنَحْوَهُ: قَشَعَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ فَأَقْشَعَ، وَمَا هُوَ كَذَلِكَ، وَلَا شَيْءَ مِنْ بِنَاءِ أَفْعَلَ مُطَاوِعًا، وَلَا يُتْقِنُ نَحْوَ هَذَا إِلَّا حَمَلَةُ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، وَإِنَّمَا "أَكَبَّ" مِنْ بَابِ "انْفَضَّ، وَأَلْأَمَ"، وَمَعْنَاهُ: دَخَلَ فِي الْكَبِّ، وَصَارَ ذَا كَبٍّ، وَكَذَلِكَ أَقْشَعَ السَّحَابُ: دَخَلَ فِي الْقَشْعِ. وَمُطَاوِعُ كَبَّ وَقَشَعَ: انْكَبَّ وَانْقَشَعَ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾[1]؟ وَكَيْفَ قَابَلَ ﴿يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: يَمْشِي مُعْتَسِفًا فِي مَكَانٍ مُعْتَادٍ غَيْرِ مُسْتَوٍ فِيهِ انْخِفَاضٌ وَارْتِفَاعٌ، فَيَعْثُرُ كُلَّ سَاعَةٍ فَيَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ مُنْكَبًّا، فَحَالُهُ نَقِيضُ حَالِ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا، أَيْ: قَائِمًا سَالِمًا مِنَ الْعُثُورِ وَالْخُرُورِ. أَوْ مُسْتَوِيَ الْجِهَةِ قَلِيلَ الِانْحِرَافِ خِلَافَ الْمُعْتَسِفِ الَّذِي يَنْحَرِفُ هَكَذَا وَهَكَذَا عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَوٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ الْأَعْمَى الَّذِي لَا يَهْتَدِي إِلَى الطَّرِيقِ فَيَعْتَسِفُ، فَلَا يَزَالُ يَنْكَبُّ عَلَى وَجْهِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَالرَّجُلِ السَّوِيِّ الصَّحِيحِ الْبَصَرِ الْمَاشِي فِي الطَّرِيقِ الْمُهْتَدِي لَهُ، وَهُوَ مَثَلٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: الْكَافِرُ أَكَبَّ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ –تَعَالَى– فَحَشَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِ.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: عُنِيَ بِهِ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ. وَبِالسَّوِيِّ: رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَقِيلَ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ –رِضَى اللَّهِ عَنْهُ–.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾[3]

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾[4] الضَّمِيرُ لِلْوَعْدِ. وَالزُّلْفَةُ: الْقُرْبُ، وَانْتِصَابُهَا عَلَى الْحَالِ أَوِ الظَّرْفِ، أَيْ: رَأَوْهُ ذَا زُلْفَةٍ أَوْ مَكَانًا ذَا زُلْفَةٍ ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[5]، أَيْ: سَاءَتْ رُؤْيَةُ الْوَعْدِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

وُجُوهَهُمْ: بِأَنَّ عَلَيْهَا الْكَآبَةَ وَغَشِيَهَا الْكُسُوفُ وَالْقَتَرَةُ، وَكَلِحُوا، وَكَمَا يَكُونُ وَجْهُ مَنْ يُقَادُ إِلَى الْقَتْلِ أَوْ يُعْرَضُ عَلَى بَعْضِ الْعَذَابِ.

﴿وَقِيلَ﴾[1] الْقَائِلُونَ: الزَّبَانِيَةُ.

﴿تَدَّعُونَ﴾[2] تَفْتَعِلُونَ مِنَ الدُّعَاءِ، أَيْ: تَطْلُبُونَ وَتَسْتَعْجِلُونَ بِهِ.

وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الدَّعْوَى، أَيْ: كُنْتُمْ بِسَبَبِهِ تَدَّعُونَ أَنَّكُمْ لَا تُبْعَثُونَ.

وَقُرِئَ: "تَدَّعُونَ"، وَعَنْ بَعْضِ الزُّهَّادِ: أَنَّهُ تَلَاهَا فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ فِي صِلَاتِهِ، فَبَقِيَ يُكَرِّرُهَا وَهُوَ يَبْكِي إِلَى أَنْ نُودِيَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَوَقَّاذَةٌ لِمَنْ تَصَوَّرَ تِلْكَ الْحَالَةَ وَتَأَمَّلَهَا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]

كَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ يَدْعُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْهَلَاكِ، فَأُمِرَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: نَحْنُ مُؤْمِنُونَ مُتَرَبِّصُونَ لِإِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: إِمَّا أَنْ نَهْلَكَ كَمَا تَتَمَنَّوْنَ فَنَنْقَلِبَ إِلَى الْجَنَّةِ، أَوْ نُرْحَمَ بِالنُّصْرَةِ وَالْإِدَالَةِ لِلْإِسْلَامِ كَمَا نَرْجُو، فَأَنْتُمْ مَا تَصْنَعُونَ؟ مَنْ يُجِيرُكُمْ وَأَنْتُمْ كَافِرُونَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ؟ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْهُ، يَعْنِي: إِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ لَنَا الْهَلَاكَ الَّذِي هُوَ اسْتِعْجَالٌ لِلْفَوْزِ وَالسَّعَادَةِ، وَأَنْتُمْ فِي أَمْرٍ هُوَ الْهَلَاكُ الَّذِي لَا هَلَاكَ بَعْدَهُ، وَأَنْتُمْ غَافِلُونَ لَا تَطْلُبُونَ الْخَلَاصَ مِنْهُ. أَوْ إِنْ أَهْلَكَنَا اللَّهُ بِالْمَوْتِ فَمَنْ يُجِيرُكُمْ بَعْدَ مَوْتِ هُدَاتِكُمْ، وَالْآخِذِينَ بِحُجُزِكُمْ مِنَ النَّارِ، وَإِنْ رَحِمَنَا بِالْإِمْهَالِ وَالْغَلَبَةِ عَلَيْكُمْ وَقَتَلَكُمْ فَمَنْ يُجِيرُكُمْ، فَإِنَّ الْمَقْتُولَ عَلَى أَيْدِينَا هَالِكٌ. أَوْ إِنْ أَهْلَكَنَا اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ بِذُنُوبِنَا وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ، فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ وَهُمْ أَوْلَى بِالْهَلَاكِ لِكُفْرِهِمْ، وَإِنْ رَحِمَنَا بِالْإِيمَانِ فِيمَنْ يُجِيرُ مَنْ لَا إِيمَانَ لَهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1]

قُلْ: فَإِنْ قُلْتَ لِمَ أَخَّرَ مَفْعُولَ آمَنَّا وَقَدَّمَ مَفْعُولَ تَوَكَّلْنَا؟

قُلْتُ: لِوُقُوعِ آمَنَّا تَعْرِيضًا بِالْكَافِرِينَ حِينَ وَرَدَ عَقِيبَ ذِكْرِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: آمَنَّا وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا خُصُوصًا لَمْ نَتَّكِلْ عَلَى مَا أَنْتُمْ مُتَّكِلُونَ عَلَيْهِ مِنْ رِجَالِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[2]

﴿غَوْرًا﴾[3] غَائِرًا ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ. وَعَنِ الْكَلْبِيِّ لَا تَنَالُهُ الدِّلَاءُ، وَهُوَ وَصْفٌ بِالْمَصْدَرِ كَعَدْلٍ وَرِضًا. وَعَنْ بَعْضِ الشُّطَّارِ أَنَّهَا تُلِيَتْ عِنْدَهُ فَقَالَ: تَجِيءُ بِهِ الْفُؤُوسُ وَالْمَعَاوِلُ، فَذَهَبَ مَاءُ عَيْنَيْهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْجَرَاءَةِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى آيَاتِهِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [الْمُلْكِ] فَكَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

سُورَةُ]١[

سُورَةُ [ـَ [

مَكِّيَّةٌ،
وَهِيَ اثْنَانِ وَخَمْسُونَ آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْعَلَقِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1]

قُرِئَ: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾[2] بِالْبَيَانِ وَالْإِدْغَامِ، وَبِسُكُونِ النُّونِ وَفَتْحِهَا وَكَسْرِهَا، كَمَا فِي ص.

وَالْمُرَادُ هَذَا الْحَرْفُ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ: وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: هُوَ الدَّوَاةُ، فَمَا أَدْرِي أَهُوَ وَضْعٌ لُغَوِيٌّ أَمْ شَرْعِيٌّ؟

وَلَا يَخْلُو إِذَا كَانَ اسْمًا لِلدَّوَاةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ جِنْسًا أَوْ عَلَمًا، فَإِنْ كَانَ جِنْسًا فَأَيْنَ الْإِعْرَابُ وَالتَّنْوِينُ، وَإِنْ كَانَ عَلَمًا فَأَيْنَ الْإِعْرَابُ، وَأَيُّهُمَا كَانَ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هُوَ مُقْسَمٌ بِهِ وَجَبَ إِنْ كَانَ جِنْسًا أَنْ تَجُرَّهُ وَتُنَوِّنَهُ، وَيَكُونَ الْقَسَمُ بِدَوَاةٍ مُنَكَّرَةٍ مَجْهُولَةٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَدَوَاةٍ وَالْقَلَمِ؛ وَإِنْ كَانَ عَلَمًا أَنْ تَصْرِفَهُ وَتَجُرَّهُ، أَوْ لَا تَصْرِفَهُ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَتَفْتَحَهُ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ، وَكَذَلِكَ التَّفْسِيرُ بِالْحُوتِ: إِمَّا أَنْ يُرَادَ نُونٌ مِنَ النِّينَانِ، أَوْ يُجْعَلَ عَلَمًا لِلْبَهَمُوتِ الَّذِي يَزْعُمُونَ.

وَالتَّفْسِيرُ بِاللَّوْحِ مِنْ نُورٍ أَوْ ذَهَبٍ، وَالنَّهْرِ فِي الْجَنَّةِ نَحْوَ ذَلِكَ، وَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ: تَعْظِيمًا لَهُ، لِمَا فِي خَلْقِهِ وَتَسْوِيَتِهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْفَوَائِدِ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1]: وَمَا يَكْتُبُ مِنْ كُتُبٍ.

وَقِيلَ: مَا يَسْتُرُهُ الْحَفَظَةُ، وَمَا مَوْصُولَةٌ أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْقَلَمِ أَصْحَابُهُ، فَيَكُونُ الضَّمِيرُ فِي "يُسَطِّرُونَ" لَهُمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَصْحَابِ الْقَلَمِ وَمَسْطُورَاتِهِمْ. أَوْ سُطُورِهِمْ، وَيُرَادُ بِهِمْ كُلُّ مَا يُسَطَّرُ، أَوِ الْحَفَظَةُ.

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَعَلَّقُ الْبَاءُ فِي ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾[3] وَمَا مَحَلُّهُ؟

قُلْتُ: يَتَعَلَّقُ بِمَجْنُونٍ مَنْفِيًّا، كَمَا يَتَعَلَّقُ بِعَاقِلٍ مُثْبَتًا فِي قَوْلِكَ: أَنْتَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَاقِلٌ، مُسْتَوِيًا فِي ذَلِكَ الْإِثْبَاتُ وَالنَّفْيُ اسْتِوَاءَهُمَا فِي قَوْلِكَ: ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا، وَمَا ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا: تُعْمِلُ الْفِعْلَ مُثْبَتًا وَمَنْفِيًّا إِعْمَالًا وَاحِدًا، وَمَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ، كَأَنَّهُ قَالَ: مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ مُنْعَمًا عَلَيْكَ بِذَلِكَ، وَلَمْ تَمْنَعِ الْبَاءُ أَنْ يَعْمَلَ مَجْنُونٌ فِيمَا قَبْلَهُ، لِأَنَّهَا زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ.

وَالْمَعْنَى، اسْتِبْعَادُ مَا كَانَ يَنْسُبُهُ إِلَيْهِ كُفَّارُ مَكَّةَ عَدَاوَةً وَحَسَدًا، وَأَنَّهُ مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِحَصَافَةِ الْعَقْلِ وَالشَّهَامَةِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا التَّأْهِيلُ لِلنُّبُوَّةِ، بِمَنْزِلِ "وَإِنَّ لَكَ" عَلَى احْتِمَالِ ذَلِكَ وَإِسَاغَةِ الْغُصَّةِ فِيهِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿لَأَجْرًا﴾[1] لَثَوَابًا.

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[2] غَيْرُ مَقْطُوعٍ كَقَوْلِهِ: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[3]]هُودٍ: 1088[. أَوْ غَيْرُ مَمْنُونٍ عَلَيْكَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ ثَوَابٌ تَسْتَوْجِبُهُ عَلَى عَمَلِكَ، وَلَيْسَ بِتَفَضُّلٍ ابْتِدَاءً، وَإِنَّمَا تَمُنُّ الْفَوَاضِلُ لَا الْأُجُورُ عَلَى الْأَعْمَالِ.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4]

اسْتَعْظَمَ خُلُقَهُ لِفَرْطِ احْتِمَالِهِ الْمُمِضَّاتِ مِنْ قَوْمِهِ وَحُسْنِ مُخَالَفَتِهِ وَمُدَارَاتِهِ لَهُمْ.

وَقِيلَ: هُوَ الْخُلُقُ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ -تَعَالَى- بِهِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[5]]الْأَعْرَافِ: 199.[

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَهَا عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾[6]

﴿الْمَفْتُونُ﴾[7]: الْمَجْنُونُ، لِأَنَّهُ فُتِنَ: أَيُّ مُحِنَ بِالْجُنُونِ. أَوْ لِأَنَّ الْعَرَبَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ تَخْبِيلِ الْجِنِّ، وَهُمُ الْفَتَّانِ لِلْفَتَّاكِ مِنْهُمْ، وَالْبَاءُ مَزِيدَةٌ. أَوِ الْمَفْتُونُ مَصْدَرٌ كَالْمَعْقُولِ وَالْمَجْلُودِ، أَيْ: بِأَيِّكُمُ الْجُنُونُ، أَوْ بِأَيِّ الْفَرِيقَيْنِ مِنْكُمُ الْجُنُونُ، أَبِفَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ أَمْ بِفَرِيقِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

الْكَافِرِينَ؟ أَيْ: فِي أَيِّهِمَا يُوجَدُ مَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا الِاسْمَ: وَهُوَ تَعْرِيضٌ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَأَضْرَابِهِمَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾[1]] الْقَمَرِ: 26[.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[2]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾[3] بِالْمَجَانِينِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَهُمُ الَّذِينَ ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾[4] بِالْعُقَلَاءِ وَهُمُ الْمُهْتَدُونَ. أَوْ يَكُونُ وَعِيدًا وَوَعْدًا، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِجَزَاءِ الْفَرِيقَيْنِ.

﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾[5]: تَهْيِيجٌ وَإِلْهَابٌ لِلتَّصْمِيمِ عَلَى مُعَاصَاتِهِمْ، وَكَانُوا قَدْ أَرَادُوهُ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ مُدَّةً، وَآلِهَتَهُمْ مُدَّةً، وَيَكُفُّوا عَنْهُ غَوَائِلَهُمْ. ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾[6] لَوْ تَلِينُ وَتُصَانِعُ ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾[7].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ رُفِعَ ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾[8] وَلَمْ يُنْصَبْ بِإِضْمَارِ "أَنْ" وَهُوَ جَوَابُ التَّمَنِّي؟ قُلْتُ: قَدْ عُدِلَ بِهِ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ: وَهُوَ أَنْ جُعِلَ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: فَهُمْ يُدْهِنُونَ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ﴾[9]]الْجِنِّ: 133]. عَلَى مَعْنَى: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَهُمْ يُدْهِنُونَ حِينَئِذٍ. أَوْ وَدُّوا إِدْهَانَكَ فَهُمُ الْآنَ يُدْهِنُونَ، لِطَمَعِهِمْ فِي إِدْهَانِكَ. قَالَ سِيبَوَيْهِ: وَزَعَمَ هَارُونُ أَنَّهَا فِي بَعْضِ الْمَصَاحِفِ: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُوا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[1]

﴿حَلافٍ﴾[2] كَثِيرِ الْحَلِفِ فِي الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكَفَى بِهِ مَزْجَرَةً لِمَنِ اعْتَادَ الْحَلِفَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾[3]]الْبَقَرَةِ: 224].

"مَهِينٍ" مِنَ الْمَهَانَةِ، وَهِيَ الْقِلَّةُ وَالْحَقَارَةُ، يُرِيدُ الْقِلَّةَ فِي الرَّأْيِ وَالتَّمْيِيزِ. أَوْ أَرَادَ الْكَذَّابَ لِأَنَّهُ حَقِيرٌ عِنْدَ النَّاسِ.

﴿هَمَّازٍ﴾[4] عَيَّابٍ طِعَانٍ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: يَلْوِي شِدْقَيْهِ فِي أَفْقِيَةِ النَّاسِ.

﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[5] مَضْرِبٍ نَقَّالٍ لِلْحَدِيثِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ عَلَى وَجْهِ السِّعَايَةِ وَالْإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ. وَالنَّمِيمُ وَالنَّمِيمَةُ: السِّعَايَةُ.

وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ الْعَرَبِ:

تَشَبَّبِي تَشَبُّبَ النَّمِيمَهْ تَمْشِي بِهَا زَهْرًا إِلَى تَمِيمَهْ

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾[6]: بِخَيْلٍ.

وَالْخَيْرُ: الْمَالُ. أَوْ مَنَّاعٍ أَهْلَهُ الْخَيْرَ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَذَكَرَ الْمَمْنُوعَ مِنْهُ دُونَ الْمَمْنُوعِ، كَأَنَّهُ قَالَ: مَنَّاعٍ مِنَ الْخَيْرِ.

قِيلَ: هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ: كَانَ مُوسِرًا، وَكَانَ لَهُ عَشَرَةٌ مِنَ الْبَنِينَ، فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ وَلِلْحَمَتِهِ: مَنْ أَسْلَمَ مِنْكُمْ مَنَعْتُهُ رِفْدِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَعَنْهُ: أَنَّهُ أَبُو جَهْلٍ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَعَنِ السُّدِّيِّ: الْأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ، أَصْلُهُ فِي ثَقِيفٍ وَعِدَادُهُ فِي زُهْرَةَ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: زَنِيمٍ.

﴿مُعْتَدٍ﴾[1]: مُجَاوِزٍ فِي الظُّلْمِ حَدَّهُ.

﴿أَثِيمٍ﴾[2]: كَثِيرِ الْآثَامِ.

﴿عُتُلٍّ﴾[3]: غَلِيظٍ جَافٍ، مِنْ عَتَلَهُ: إِذَا قَادَهُ بِعُنْفٍ وَغِلْظَةٍ.

﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾[4]: بَعْدَمَا عَدَّ لَهُ مِنَ الْمَثَالِبِ وَالنَّقَائِصِ.

﴿زَنِيمٍ﴾[5]: دَعِيٍّ.

قَالَ حَسَّانُ:

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِـــــــمٍ كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ

وَكَانَ الْوَلِيدُ دَعِيًّا فِي قُرَيْشٍ لَيْسَ مِنْ سَنِخِهِمْ، ادَّعَاهُ أَبُوهُ بَعْدَ ثَمَانِ عَشْرَةَ مِنْ مَوْلِدِهِ.

وَقِيلَ: بَغَتْ أُمُّهُ وَلَمْ يَعْرِفْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، جَعَلَ جَفَاءَهُ وَدَعْوَتَهُ أَشَدَّ مَعَايِبِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا جَفَا وَغَلُظَ طَبْعُهُ، قَسَا قَلْبُهُ وَاجْتَرَأَ عَلَى كُلِّ مَعْصِيَةٍ؛ وَلِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ النُّطْفَةَ إِذَا خَبُثَتْ، خَبُثَ النَّاشِئُ مِنْهَا. وَمِنْ ثَمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ الزِّنَا وَلَا وَلَدُهُ وَلَا وَلَدُ وَلَدِهِ".

وَ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾[6] نَظِيرُ ﴿ثُمَّ﴾[7] فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[8]] الْبَلَدِ: 17].

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "عُتِلٌّ" رَفْعًا عَلَى الذَّمِّ وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ تَقْوِيَةٌ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

وَالزَّنِيمُ: مِنَ الزَّنَمَةِ، وَهِيَ الْهِنَةُ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزَةِ تُقْتَلَعُ، فَتُخَلَّى مُعَلَّقَةً فِي حَلْقِهَا، لِأَنَّهُ زِيَادَةٌ مُعَلَّقَةٌ بِغَيْرِ أَهْلِهِ.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ﴾[1] مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلا تُطِعْ﴾[2]، يَعْنِي: وَلَا تُطِعْهُ مَعَ هَذِهِ الْمَثَالِبِ، لِأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ. أَيْ: لِيَسَارِهِ وَحَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَا بَعْدَهُ عَلَى مَعْنَى: لِكَوْنِهِ مُتَمَوِّلًا مُسْتَظْهِرًا بِالْبَنِينَ كَذَّبَ آيَاتِنَا وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ.

﴿قَالَ﴾[3] الَّذِي هُوَ جَوَابُ إِذَا، لِأَنَّ مَا بَعْدَ الشَّرْطِ لَا يَعْمَلُ فِيمَا قَبْلَهُ، وَلَكِنْ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ مِنْ مَعْنَى التَّكْذِيبِ.

وَقُرِئَ: "أَأَنْ كَانَ"؟ عَلَى الِاسْتِفْهَامِ عَلَى: إِلَّا لِأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ، كَذَّبَ. أَوْ أَتُطِيعُهُ لِأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ.

وَرَوَى الزُّبَيْرِيُّ عَنْ نَافِعٍ: إِنْ كَانَ، بِالْكَسْرِ وَالشَّرْطِ لِلْمُخَاطَبِ، أَيْ: لَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ شَارِطًا يَسَارَهُ، لِأَنَّهُ إِذَا أَطَاعَ الْكَافِرَ لِغِنَاهُ فَكَأَنَّهُ اشْتَرَطَ فِي الطَّاعَةِ الْغِنَى؛ وَنَحْوَ صَرْفِ الشَّرْطِ إِلَى الْمُخَاطَبِ صَرْفُ التَّرَجِّي إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾[4]طه: 44].

الْوَجْهُ: أَكْرَمُ مَوْضِعٍ فِي الْجَسَدِ، وَالْأَنْفُ أَكْرَمُ مَوْضِعٍ مِنَ الْوَجْهِ لِتَقَدُّمِهِ لَهُ، وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ مَكَانَ الْعِزِّ وَالْحَمِيَّةِ، وَاشْتَقُّوا مِنْهُ الْأَنَفَةَ. وَقَالُوا: الْأَنْفُ فِي الْأَنْفِ، وَحَمَى أَنْفَهُ، وَفُلَانٌ شَامِخُ الْعِرْنِينِ.

وَقَالُوا فِي الذَّلِيلِ: جَدْعَ أَنْفِهِ، وَرَغْمَ أَنْفِهِ، فَعُبِّرَ بِالْوَسْمِ عَلَى الْخُرْطُومِ عَنْ غَايَةِ الْإِذْلَالِ وَالْإِهَانَةِ، لِأَنَّ السِّمَةَ عَلَى الْوَجْهِ شَيْنٌ وَإِذَالَةٌ، فَكَيْفَ بِهَا عَلَى أَكْرَمِ مَوْضِعٍ مِنْهُ؟!

وَلَقَدْ وَسَمَ الْعَبَّاسُ أَبَاعِرَ فِي وُجُوهِهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَكْرِمُوا الْوُجُوهَ" فَوَسَمَهَا فِي جَوَاعِرِهَا.

وَفِي لَفْظِ "الْخُرْطُومِ" اسْتِخْفَافٌ بِهِ وَاسْتِهَانَةٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقِيلَ مَعْنَاهُ: سَنُعَلِّمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَلَامَةٍ مُشَوِّهَةٍ يَبِينُ بِهَا عَنْ سَائِرِ الْكَفَرَةِ، كَمَا عَادَى رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَدَاوَةً بَانَ بِهَا عَنْهُمْ.

وَقِيلَ: خُطِمَ يَوْمَ بَدْرٍ بِالسَّيْفِ فَبَقِيَتْ سِمَةً عَلَى خُرْطُومِهِ.

وَقِيلَ: سَنُشْهِرُهُ بِهَذِهِ الشَّتِيمَةِ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا، فَلَا تَخْفَى، كَمَا لَا تَخْفَى السِّمَةُ عَلَى الْخُرْطُومِ.

وَعَنِ النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ: أَنَّ الْخُرْطُومَ الْخَمْرُ، وَأَنَّ مَعْنَاهُ: سَنَحُدُّهُ عَلَى شُرْبِهَا؛ وَهُوَ تَعَسُّفٌ.

وَقِيلَ لِلْخَمْرِ: الْخُرْطُومُ، كَمَا قِيلَ لَهَا: السُّلَافَةُ. وَهِيَ مَا سَلَفَ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ. أَوْ لِأَنَّهَا تَطِيرُ فِي الْخَيَاشِيمِ.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبُّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]

إِنَّا بَلَوْنَا أَهْلَ مَكَّةَ بِالْقَحْطِ وَالْجُوعِ بِدَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَيْهِمْ ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾[2]، وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ كَانَتْ لِأَبِيهِمْ هَذِهِ الْجَنَّةُ دُونَ صَنْعَاءَ بِفَرْسَخَيْنِ، فَكَانَ يَأْخُذُ مِنْهَا قُوتَ سَنَتِهِ وَيَتَصَدَّقُ بِالْبَاقِي، وَكَانَ يَتْرُكُ لِلْمَسَاكِينِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

مَا أَخْطَأَهُ الْمِنْجَلُ، وَمَا فِي أَسْفَلِ الْأَكْدَاسِ وَمَا أَخْطَأَهُ الْقِطَافُ مِنَ الْعِنَبِ، وَمَا بَقِيَ عَلَى الْبِسَاطِ الَّذِي يُبْسَطُ تَحْتَ النَّخْلَةِ إِذَا صُرِمَتْ، فَكَانَ يَجْتَمِعُ لَهُمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ.

فَلَمَّا مَاتَ، قَالَ بَنُوهُ: إِنْ فَعَلْنَا مَا كَانَ يَفْعَلُ أَبُونَا، ضَاقَ عَلَيْنَا الْأَمْرُ، وَنَحْنُ أُولُو عِيَالٍ؛ فَحَلَفُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ فِي السَّدَفِ خُفْيَةً عَنْ الْمَسَاكِينِ، وَلَمْ يَسْتَثْنُوا فِي يَمِينِهِمْ، فَأَحْرَقَ اللَّهُ جَنَّتَهُمْ.

وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿مُصْبِحِينَ﴾[1]: دَاخِلِينَ فِي الصُّبْحِ مُبَكِّرِينَ.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾[2]: وَلَا يَقُولُونَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ اسْتِثْنَاءً، وَإِنَّمَا هُوَ شَرْطٌ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ يُؤَدِّي مُؤَدَّى الِاسْتِثْنَاءِ، مِنْ حَيْثُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ: لَأَخْرُجَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَا أَخْرُجُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ. وَاحِدٌ.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾[3] بَلَاءٌ أَوْ هَلَاكٌ "طَائِفٌ" كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾[4]]الْكَهْفِ: 42].

وَقُرِئَ: "طَيْفٌ".

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾[5] كَالْمَصْرُومَةِ لِهَلَاكِ ثَمَرِهَا.

وَقِيلَ: الصَّرِيمُ اللَّيْلُ، أَيِ احْتَرَقَتْ فَاسْوَدَّتْ.

وَقِيلَ: النَّهَارُ؛ أَيْ: يَبِسَتْ وَذَهَبَتْ خُضْرَتُهَا. أَوْ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فِيهَا، مِنْ قَوْلِهِمْ: بَيَّضَ الْإِنَاءَ، إِذَا فَرَّغَهُ. وَقِيلَ: الصَّرِيمُ الرَّمَالُ.

﴿صَارِمِينَ﴾[6]: حَاصِدِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: اغْدُوَا إِلَى حَرْثِكُمْ، وَمَا مَعْنَى "عَلَى"؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ الْغُدُوُّ إِلَيْهِ لِيَصْرِمُوهُ وَيَقْطَعُوهُ: كَانَ غُدُوًّا عَلَيْهِ، كَمَا تَقُولُ: غَدَا عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُضَمَّنَ الْغُدُوُّ مَعْنَى الْإِقْبَالِ، كَقَوْلِهِمْ: يُغْدَى عَلَيْهِ بِالْجَفْنَةِ وَيُرَاحُ، أَيْ: فَأَقْبِلُوا عَلَى حَرْثِكُمْ بَاكِرِينَ.

﴿يَتَخَافَتُونَ﴾[1]: يَتَسَارُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ. وَخَفَى، وَخَفَتْ، وَخَفَدَ: ثَلَاثَتُهَا فِي مَعْنَى الْكَتْمِ، وَمِنْهُ الْخُفْدُودُ لِلْخُفَّاشِ.

﴿أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا﴾[2] أَنْ مُفَسِّرَةٌ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ بِطَرْحِهَا بِإِضْمَارِ الْقَوْلِ، أَيْ: يَتَخَافَتُونَ يَقُولُونَ: لَا يَدْخُلَنَّهَا، وَالنَّهْيُ عَنِ الدُّخُولِ لِلْمِسْكِينِ نَهْيٌ لَهُمْ عَنْ تَمْكِينِهِ مِنْهُ، أَيْ: لَا تُمَكِّنُوهُ مِنَ الدُّخُولِ حَتَّى يَدْخُلَ كَقَوْلِكَ: لَا أَرَيَنَّكَ هَهُنَا.

الْحَرْدُ: مِنْ حَرَدَتِ السَّنَةُ إِذَا مَنَعَتْ خَيْرَهَا، وَحَارَدَتِ الْإِبِلُ إِذَا مَنَعَتْ دَرَّهَا.

وَالْمَعْنَى: وَغَدَوْا قَادِرِينَ عَلَى نَكَدٍ، لَا غَيْرَ عَاجِزِينَ عَنِ النَّفْعِ، يَعْنِي أَنَّهُمْ عَزَمُوا أَنْ يَتَنَكَّدُوا عَلَى الْمَسَاكِينِ وَيَحْرِمُوهُمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى نَفْعِهِمْ، فَغَدَوَا بِحَالِ فَقْرٍ وَذَهَابِ مَالٍ لَا يَقْدِرُونَ فِيهَا إِلَّا عَلَى النَّكَدِ وَالْحِرْمَانِ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ طَلَبُوا حِرْمَانَ الْمَسَاكِينِ فَتَعَجَّلُوا الْحِرْمَانَ وَالْمَسْكَنَةَ.

أَوْ وَغَدَوْا عَلَى مُحَارَدَةِ جَنَّتِهِمْ وَذَهَابِ خَيْرِهَا قَادِرِينَ، بَدَلَ كَوْنِهِمْ قَادِرِينَ عَلَى إِصَابَةِ خَيْرِهَا وَمَنَافِعِهَا، أَيْ: غَدَوْا حَاصِلِينَ عَلَى الْحِرْمَانِ مَكَانَ الِانْتِفَاعِ.

أَوْ لَمَّا قَالُوا اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ وَقَدْ خَبُثَتْ نِيَّتُهُمْ: عَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ حَارَدَتْ جَنَّتُهُمْ وَحُرِمُوا خَيْرَهَا، فَلَمْ يَغْدُوا عَلَى حَرْثٍ وَإِنَّمَا غَدَوْا عَلَى حَرْدٍ.

وَ﴿قَادِرِينَ﴾[3] مِنْ عَكْسِ الْكَلَامِ لِلتَّهَكُّمِ، أَيْ: قَادِرِينَ عَلَى مَا عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الصِّرَامِ وَحِرْمَانِ الْمَسَاكِينِ، وَعَلَى حَرْدٍ لَيْسَ بِصِلَةِ قَادِرِينَ.

وَقِيلَ: الْحَرْدُ بِمَعْنَى الْحَرَدِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "عَلَى حَرَدٍ"، أَيْ: لَمْ يَقْدِرُوا إِلَّا عَلَى حَنَقٍ وَغَضَبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَتَلاوَمُونَ﴾[1]]الْقَلَمِ: 300].

وَقِيلَ: الْحَرْدُ الْقَصْدُ وَالسُّرْعَةُ، يُقَالُ: حَرَدْتُ حَرَدَكَ.

وَقَالَ:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهْ يَحْرُدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّةْ

وَقِطًا حِرَادٌ: سِرَاعٌ، يَعْنِي: وَغَدَوْا قَاصِدِينَ إِلَى جَنَّتِهِمْ بِسُرْعَةٍ وَنَشَاطٍ، قَادِرِينَ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ، يَقُولُونَ: نَحْنُ نَقْدِرُ عَلَى صِرَامِهَا وَزَيِّ مَنْفَعَتِهَا عَنِ الْمَسَاكِينِ.

وَقِيلَ: "حَرْدٌ" عَلَمٌ لِلْجَنَّةِ، أَيْ: غَدَوْا عَلَى تِلْكَ الْجَنَّةِ قَادِرِينَ عَلَى صِرَامِهَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ. أَوْ مُقَدِّرِينَ أَنْ يَتِمَّ لَهُمْ مُرَادُهُمْ مِنَ الصِّرَامِ وَالْحِرْمَانِ.

﴿قَالُوا﴾[2] فِي بَدِيهَةِ وُصُولِهِمْ: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾[3]، أَيْ: ضَلَلْنَا جَنَّتَنَا، وَمَا هِيَ بِهَا لِمَا رَأَوْا مِنْ هَلَاكِهَا.

فَلَمَّا تَأَمَّلُوا وَعَرَفُوا أَنَّهَا هِيَ قَالُوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[4]: حُرِمْنَا خَيْرَهَا لِجِنَايَتِنَا عَلَى أَنْفُسِنَا.

﴿أَوْسَطُهُمْ﴾[5]: أَعْدَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ، مِنْ قَوْلِهِمْ: هُوَ مِنْ سِطَةِ قَوْمِهِ، وَأَعْطِنِي مِنْ سُلُطَاتِ مَالِكَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾[6]]الْبَقَرَةِ: 143.[

﴿ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾[7]: لَوْلَا تَذْكُرُونَ اللَّهَ وَتَتُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ خُبْثِ نِيَّتِكُمْ، كَأَنَّ أَوْسَطَهُمْ قَالَ لَهُمْ حِينَ عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ: اذْكُرُوا اللَّهَ وَانْتِقَامَهُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، وَتُوبُوا عَنْ هَذِهِ الْعَزِيمَةِ الْخَبِيثَةِ مِنْ فَوْرِكُمْ، وَسَارِعُوا إِلَى حَسْمِ شَرِّهَا قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ، فَعَصَوْهُ فَغَيَّرَهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[1]، فَتَكَلَّمُوا بِمَا كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّكَلُّمِ بِهِ عَلَى أَثَرِ مُقَارَفَةِ الْخَطِيئَةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ خَرَابِ الْبَصْرَةِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالتَّسْبِيحِ. الِاسْتِثْنَاءُ لِالْتِقَائِهِمَا فِي مَعْنَى التَّعْظِيمِ لِلَّهِ، لِأَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ تَفْوِيضٌ إِلَيْهِ، وَالتَّسْبِيحَ تَنْزِيهٌ لَهُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ التَّفْوِيضِ وَالتَّنْزِيهِ تَعْظِيمٌ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: هُوَ الصَّلَاةُ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَانَوْنَ فِي الصَّلَاةِ، وَإِلَّا لَنَهَتْهُمْ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَكَانَتْ لَهُمْ لُطْفًا فِي أَنْ يَسْتَثْنُوا وَلَا يَحْرِمُوا.

﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾[2] سَبَّحُوا اللَّهَ وَنَزَّهُوهُ عَنِ الظُّلْمِ وَعَنْ كُلِّ قَبِيحٍ، ثُمَّ اعْتَرَفُوا بِظُلْمِهِمْ فِي مَنْعِ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكِ الِاسْتِثْنَاءِ.

﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾[3] يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ زَيَّنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِالْكَفِّ وَعَذَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَصَى الْأَمْرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَكَتَ، وَهُوَ رَاضٍ.

﴿أَنْ يُبْدِلَنَا﴾[4]: قُرِئَ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ.

﴿إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[5]: طَالِبُونَ مِنْهُ الْخَيْرَ رَاجُونَ لِعَفْوِهِ.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾[6] مِثْلَ ذَلِكَ الْعَذَابِ الَّذِي بَلَوْنَا بِهِ أَهْلَ مَكَّةَ، وَأَصْحَابَ الْجَنَّةِ عَذَابُ الدُّنْيَا.

﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ﴾[7] أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِنْهُ.

وَسُئِلَ قَتَادَةُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ: أَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقَالَ: لَقَدْ كَلَّفْتَنِي تَعَبًا.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: تَابُوا فَأُبْدِلُوا خَيْرًا مِنْهَا.

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: بَلَغَنِي أَنَّهُمْ أَخْلَصُوا، وَعَرَفَ اللَّهُ مِنْهُمُ الصِّدْقَ، فَأَبْدَلَهُمْ بِهَا جَنَّةً يُقَالُ لَهَا الْحَيَوَانُ: فِيهَا عِنَبٌ يَحْمِلُ الْبَغْلُ مِنْهُ عُنْقُودًا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[1]

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[2]، أَيْ: فِي الْآخِرَةِ.

﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[3] لَيْسَ فِيهَا إِلَّا التَّنَعُّمُ الْخَالِصُ، لَا يَشُوبُهُ مَا يُنَغِّصُهُ كَمَا يَشُوبُ جِنَانَ الدُّنْيَا.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾[4]

كَانَ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ يَرَوْنَ وُفُورَ حَظِّهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَقِلَّةَ حُظُوظِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا؛ فَإِذَا سَمِعُوا بِحَدِيثِ الْآخِرَةِ، وَمَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: إِنْ صَحَّ أَنَّا نُبْعَثُ كَمَا يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ وَمَنْ مَعَهُ لَمْ تَكُنْ حَالُهُمْ وَحَالُنَا إِلَّا مِثْلَ مَا هِيَ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَّا لَمْ يَزِيدُوا عَلَيْنَا وَلَمْ يَفْضُلُونَا، وَأَقْصَى أَمْرِهِمْ أَنْ يُسَاوُونَا؛ فَقِيلَ: أَنَحِيفُ فِي الْحُكْمِ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْكَافِرِينَ؟

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[5] هَذَا الْحُكْمَ الْأَعْوَجَ؟ كَأَنَّ أَمْرَ الْجَزَاءِ مُفَوَّضٌ إِلَيْكُمْ حَتَّى تَحْكُمُوا فِيهِ بِمَا شِئْتُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾[1] مِنَ السَّمَاءِ ﴿تَدْرُسُونَ﴾[2] فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ أَنَّ مَا تَخْتَارُونَهُ وَتَشْتَهُونَهُ لَكُمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ [الصَّافَّاتِ:156-157].

وَالْأَصْلُ: تَدْرُسُونَ أَنَّ لَكُمْ مَا تَخَيَّرُونَ، بِفَتْحِ أَنْ، لِأَنَّهُ مَدْرُوسٌ، فَلَمَّا جَاءَتِ اللَّامُ كُسِرَتْ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حِكَايَةً لِلدُّرُوسِ، كَمَا هُوَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[3]]الصَّافَّاتِ: 78- 799].

وَتَخَيَّرَ الشَّيْءَ وَاخْتَارَهُ: أَخَذَ خَيْرَهُ، وَنَحْوَهُ: تَنَخَّلَهُ وَانْتَخَلَهُ: إِذَا أَخَذَ مَنْخُولَهُ. لِفُلَانٍ عَلَيَّ يَمِينٌ بِكَذَا: إِذَا ضَمِنْتَهُ مِنْهُ وَحَلَفْتَ لَهُ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ، يَعْنِي: أَمْ ضَمِنَّا مِنْكُمْ وَأَقْسَمْنَا لَكُمْ بِأَيْمَانٍ مُغَلَّظَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ فِي التَّوْكِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَعَلَّقُ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[4]؟

قُلْتُ: الْمُقَدَّرُ فِي الظَّرْفِ، أَيْ: هِيَ ثَابِتَةٌ لَكُمْ عَلَيْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تَخْرُجُ عَنْ عُهْدَتِهَا إِلَّا يَوْمَئِذٍ إِذَا حَكَّمْنَاكُمْ وَأَعْطَيْنَاكُمْ مَا تَحْكُمُونَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ ﴿بَالِغَةٌ﴾[5]، عَلَى أَنَّهَا تَبْلُغُ ذَلِكُمُ الْيَوْمَ وَتَنْتَهِي إِلَيْهِ وَافِرَةً لَمْ تَبْطُلْ مِنْهَا يَمِينٌ إِلَى أَنْ يَحْصُلَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ مِنَ التَّحْكِيمِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "بَالِغَةً" بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الظَّرْفِ.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾[6] جَوَابُ الْقَسَمِ، لِأَنَّ مَعْنَى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾[7] أَمْ أَقْسَمْنَا لَكُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[1]

﴿أَيُّهُمْ بِذَلِكَ﴾[2] الْحُكْمِ ﴿زَعِيمٌ﴾[3]، أَيْ قَائِمٌ بِهِ وَبِالِاحْتِجَاجِ لِصِحَّتِهِ، كَمَا يَقُومُ الزَّعِيمُ الْمُتَكَلِّمُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُتَكَفِّلُ بِأُمُورِهِمْ.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾[4]، أَيْ: نَاسٌ يُشَارِكُونَهُمْ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَيُوَافِقُونَهُمْ عَلَيْهِ وَيَذْهَبُونَ مَذْهَبَهُمْ فِيهِ، ﴿فَلْيَأْتُوا﴾[5] بِهِمْ ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[6] فِي دَعْوَاهُمْ، يَعْنِي: أَنَّ أَحَدًا لَا يُسَلِّمُ لَهُمْ هَذَا وَلَا يُسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا كِتَابَ لَهُمْ يَنْطِقُ بِهِ، وَلَا عَهْدَ لَهُمْ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا زَعِيمَ لَهُمْ يَقُومُ بِهِ.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾[7]

الْكَشْفُ عَنِ السَّاقِ وَالْإِبْدَاءُ عَنِ الْخِدَامِ: مَثَلٌ فِي شِدَّةِ الْأَمْرِ وَصُعُوبَةِ الْخَطْبِ، وَأَصْلُهُ فِي الرَّوْعِ وَالْهَزِيمَةِ وَتَشْمِيرِ الْمُخَدَّرَاتِ عَنْ سُوقِهِنَّ فِي الْهَرَبِ، وَإِبْدَاءِ خِدَامِهِنَّ عِنْدَ ذَلِكَ.

قَالَ حَاتِمٌ:

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ غَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

وَقَالَ ابْنُ الرُّقَيَّاتِ:

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي عَنْ خِدَامِ الْعَقِيلَةِ الْعَذْرَاءِ

فَمَعْنَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾[1] فِي مَعْنَى: يَوْمَ يَشْتَدُّ الْأَمْرُ وَيَتَفَاقَمُ، وَلَا كَشْفَ ثَمَّ وَلَا سَاقَ، كَمَا تَقُولُ لِلْأَقْطَعِ الشَّحِيحِ: يَدُهُ مَغْلُولَةٌ، وَلَا يَدَ ثَمَّ وَلَا غُلَّ، وَإِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ فِي الْبُخْلِ.

وَأَمَّا مَنْ شَبَّهَ فَلِضِيقِ عَطَنِهِ وَقِلَّةِ نَظَرِهِ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ، وَالَّذِي غَرَّهُ مِنْهُ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "يَكْشِفُ الرَّحْمَنُ عَنْ سَاقِهِ؛ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَخِرُّونَ سُجَّدًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ، فَتَكُونُ ظُهُورُهُمْ طَبَقًا طَبَقًا كَأَنَّ فِيهَا سَفَافِيدَ". وَمَعْنَاهُ: يَشْتَدُّ أَمْرُ الرَّحْمَنِ وَيَتَفَاقَمُ هَوْلُهُ، وَهُوَ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ كَانَ مِنْ حَقِّ السَّاقِ أَنْ تُعَرَّفَ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُشَبِّهُ؛ لِأَنَّهَا سَاقٌ مَخْصُوصَةٌ مَعْهُودَةٌ عِنْدَهُ، وَهِيَ سَاقُ الرَّحْمَنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ جَاءَتْ مُنَكَّرَةً فِي التَّمْثِيلِ؟

قُلْتُ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ مُبْهَمٌ فِي الشِّدَّةِ مُنْكَرٌ خَارِجٌ عَنِ الْمَأْلُوفِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾[2] [الْقَمَرِ: 6]. كَأَنَّهُ قِيلَ: يَوْمَ يَقَعُ أَمْرٌ فَظِيعٌ هَائِلٌ، وَيُحْكَى هَذَا التَّشْبِيهُ عَنْ مُقَاتِلٍ.

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ: خَرَجَ مِنْ خُرَاسَانَ رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا: شَبَّهَ حَتَّى مَثَّلَ، وَهُوَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَالْآخَرَ نَفَى حَتَّى عَطَّلَ، وَهُوَ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، وَمَنْ أَحَسَّ بِعِظَمِ مَضَارِّ فَقْدِ هَذَا الْعِلْمِ عَلِمَ مِقْدَارَ عِظَمِ مَنَافِعِهِ.

وَقُرِئَ: "يَوْمَ نَكْشِفُ" بِالنُّونِ. وَتَكْشِفُ بِالتَّاءِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ جَمِيعًا، وَالْفِعْلُ لِلسَّاعَةِ أَوْ لِلْحَالِ، أَيْ: يَوْمَ تَشْتَدُّ الْحَالُ أَوِ السَّاعَةُ، كَمَا تَقُولُ: كَشَفَتِ الْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا، عَلَى الْمَجَازِ.

وَقُرِئَ: "تُكْشِفُ" بِالتَّاءِ الْمَضْمُومَةِ وَكَسْرِ الشِّينِ، مِنْ أَكْشَفَ: إِذَا دَخَلَ فِي الْكَشْفِ. وَمِنْهُ: أَكْشَفَ الرَّجُلُ، فَهُوَ مُكْشِفٌ، إِذَا انْقَلَبَتْ شَفَتُهُ الْعُلْيَا.

وَنَاصِبُ الظَّرْفِ: فَلْيَأْتُوا. أَوْ إِضْمَارُ "اذْكُرْ" أَوْ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَحُذِفَ لِلتَّهْوِيلِ الْبَلِيغِ. وَأَنَّ ثَمَّ مِنَ الْكَوَائِنِ مَا لَا يُوصَفُ لِعِظَمِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: تَعْقِمُ أَصْلَابُهُمْ وَاحِدًا، أَيْ: تُرَدُّ عِظَامًا بِلَا مَفَاصِلَ لَا تَنْثَنِي عِنْدَ الرَّفْعِ وَالْخَفْضِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: وَتَبْقَى أَصْلَابُهُمْ طَبَقًا وَاحِدًا، أَيْ، فَقَارَةً وَاحِدَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَلَا تَكْلِيفَ؟

قُلْتُ: لَا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ تَعَبُّدًا وَتَكْلِيفًا، وَلَكِنْ تَوْبِيخًا وَتَعْنِيفًا عَلَى تَرْكِهِمُ السُّجُودَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ إِعْقَامِ أَصْلَابِهِمْ وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الِاسْتِطَاعَةِ تَحْسِيرًا لَهُمْ وَتَنْدِيمًا عَلَى مَا فَرَّطُوا فِيهِ حِينَ دُعُوا إِلَى السُّجُودِ، وَهُمْ سَالِمُونَ الْأَصْلَابَ وَالْمَفَاصِلَ مُمَكَّنُونَ مُزَاحُو الْعِلَلِ فِيمَا تُعُبِّدُوا بِهِ.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1]

يُقَالُ: ذَرْنِي وَإِيَّاهُ، يُرِيدُونَ كِلْهُ إِلَيَّ، فَإِنِّي أَكْفِيكَهُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: حَسْبُكَ إِيقَاعًا بِهِ أَنْ تَكِلَ أَمْرَهُ إِلَيَّ وَتُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَإِنِّي عَالِمٌ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُفْعَلَ بِهِ مُطِيقٌ لَهُ.

وَالْمُرَادُ: حَسْبِي مُجَازِيًا لِمَنْ يُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ، فَلَا تَشْغَلْ قَلْبَكَ بِشَأْنِهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيَّ فِي الِانْتِقَامِ مِنْهُ تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَتَهْدِيدًا لِلْمُكَذِّبِينَ. اسْتَدْرَجَهُ إِلَى كَذَا: إِذَا اسْتَنْزَلَهُ إِلَيْهِ دَرَجَةً فَدَرَجَةً، حَتَّى يُوَرِّطَهُ فِيهِ.

وَاسْتِدْرَاجُ اللَّهِ الْعُصَاةَ: أَنْ يَرْزُقَهُمُ الصِّحَّةَ وَالنِّعْمَةَ، فَيَجْعَلُوا رِزْقَ اللَّهِ ذَرِيعَةً وَمُتَسَلَّقًا إِلَى ازْدِيَادِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]، أَيْ: مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ اسْتِدْرَاجٌ، وَهُوَ الْإِنْعَامُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَهُ إِيثَارًا لَهُمْ وَتَفْضِيلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ سَبَبٌ لِهَلَاكِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾[1]: وَأُمْهِلُهُمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[2] [آلِ عِمْرَانَ: 178].

وَالصِّحَّةُ وَالرِّزْقُ وَالْمَدُّ فِي الْعُمْرِ: إِحْسَانٌ مِنَ اللَّهِ وَإِفْضَالٌ يُوجِبُ عَلَيْهِمُ الشُّكْرَ وَالطَّاعَةَ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَهُ سَبَبًا فِي الْكُفْرِ بِاخْتِيَارِهِمْ. فَلَمَّا تَدَرَّجُوا بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ، وَصَفَ الْمُنَعَّمَ بِالِاسْتِدْرَاجِ.

وَقِيلَ: كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ. وَسُمِّيَ إِحْسَانُهُ وَتَمْكِينَهُ كَيْدًا كَمَا سَمَّاهُ اسْتِدْرَاجًا، لِكَوْنِهِ فِي صُورَةِ الْكَيْدِ، حَيْثُ كَانَ سَبَبًا لِلتَّوَرُّطِ فِي الْهَلَكَةِ، وَوَصَفَهُ بِالْمَتَانَةِ لِقُوَّةِ أَثَرِ إِحْسَانِهِ فِي التَّسَبُّبِ لِلْهَلَاكِ.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[3]

الْمَغْرَمُ: الْغَرَامَةُ، أَيْ: لَمْ تَطْلُبْ مِنْهُمْ عَلَى الْهِدَايَةِ وَالتَّعْلِيمِ أَجْرًا، فَيَثْقُلَ عَلَيْهِمْ حَمْلُ الْغَرَامَاتِ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَيُثَبِّطُهُمْ ذَلِكَ عَنِ الْإِيمَانِ، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾[4]، أَيْ: اللَّوْحُ؛ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مِنْهُ مَا يَحْكُمُونَ بِهِ.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[1]، وَهُوَ إِمْهَالُهُمْ وَتَأْخِيرُ نُصْرَتِكَ عَلَيْهِمْ.

﴿وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[2]، يَعْنِي: يُونُسَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

﴿إِذْ نَادَى﴾[3] فِي بَطْنِ الْحُوتِ، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[4]: مَمْلُوءٌ غَيْظًا، مِنْ كَظَمَ السِّقَاءَ إِذَا مَلَأَهُ. وَالْمَعْنَى: لَا يُوجَدْ مِنْكَ مَا وُجِدَ مِنْهُ مِنَ الضَّجَرِ وَالْمُغَاضَبَةِ، فَتُبْتَلَى بِبَلَائِهِ، حَسُنَ تَذْكِيرُ الْفِعْلِ لِفَصْلِ الضَّمِيرِ فِي تَدَارَكَهُ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ: "تَدَارَكَتْهُ".

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "تَدَارَكُهُ"، أَيْ: تَتَدَارَكُهُ عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ، بِمَعْنَى: لَوْلَا أَنْ كَانَ يُقَالُ فِيهِ تَتَدَارَكُهُ، كَمَا يُقَالُ: كَانَ زَيْدٌ سَيَقُومُ فَمَنَعَهُ فُلَانٌ، أَيْ كَانَ يُقَالُ فِيهِ سَيَقُومُ. وَالْمَعْنَى: كَانَ مُتَوَقَّعًا مِنْهُ الْقِيَامُ. وَنِعْمَةُ رَبِّهِ: أَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ لِلتَّوْبَةِ وَتَابَ عَلَيْهِ.

وَقَدِ اعْتَمَدَ فِي جَوَابِ ﴿لَوْلَا﴾[5] عَلَى الْحَالِ، أَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[6]، يَعْنِي أَنَّ حَالَهُ كَانَتْ عَلَى خِلَافِ الذَّمِّ حِينَ نُبِذَ بِالْعَرَاءِ. وَلَوْلَا تَوْبَتُهُ، لَكَانَتْ حَالُهُ عَلَى الذَّمِّ.

رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ بِأُحُدٍ حِينَ حَلَّ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا حَلَّ بِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى الَّذِينَ انْهَزَمُوا.

وَقِيلَ: حِينَ أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى ثَقِيفٍ .

وَقُرِئَ: "رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ".

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾[7]، فَجَمَعَهُ إِلَيْهِ، وَقَرَّبَهُ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[8]طه: 122.]

﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[9]، أَيْ: مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .
9 سورة ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: رَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ الْوَحْيَ وَشَفَّعَهُ فِي نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ.

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[1]

أَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاللَّامُ عَلَمُهَا. وَقَرَأَ: "لَيُزْلِقُونَكَ" بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِهَا.

وَزَلَقَهُ وَأَزْلَقَهُ بِمَعْنًى، وَيُقَالُ: زَلَقَ الرَّأْسَ وَأَزْلَقَهُ حَلَقَهُ، وَقَرَأَ لَيُزْهِقُونَكَ مِنْ زَهَقَتْ نَفْسُهُ وَأَزْهَقَهَا، يَعْنِي أَنَّهُمْ مِنْ شِدَّةِ تَحْدِيقِهِمْ وَنَظَرِهِمْ إِلَيْكَ شَزْرًا بِعُيُونِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ يَكَادُونَ يُزِلُّونَ قَدَمَكَ أَوْ يُهْلِكُونَكَ، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَظَرَ إِلَيَّ نَظَرًا يَكَادُ يَصْرَعُنِي، وَيَكَادُ يَأْكُلُنِي، أَيْ: لَوْ أَمْكَنَهُ بِنَظَرِهِ الصِّرَاعُ أَوِ الْأَكْلُ لَفَعَلَهُ.

قَالَ:

يَتَقَارَضُونَ إِذَا الْتَقَوْا فِي مَوْطِنٍ نَظَرًا يُزِلُّ مَوَاطِئَ الْأَقْـــــدَامِ

وَقِيلَ: كَانَتِ الْعَيْنُ فِي بَنِي أَسَدٍ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَتَجَوَّلُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَا يَمُرُّ بِهِ شَيْءٌ، فَيَقُولُ فِيهِ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مِثْلَهُ إِلَّا عَانَهُ، فَأُرِيدَ بَعْضُ الْعَيَّانِينَ عَلَى أَنْ يَقُولَ فِي رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ رَجُلًا فَعَصَمَهُ اللَّهُ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: دَوَاءُ الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ أَنْ تَقْرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾[2]، أَيِ الْقُرْآنَ لَمْ يَمْلِكُوا أَنْفُسَهُمْ حَسَدًا عَلَى مَا أُوتِيَتْ مِنَ النُّبُوَّةِ.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[3] حَيْرَةً فِي أَمْرِهِ وَتَنْفِيرًا عَنْهُ، وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ أَعْقَلُهُمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ جَنَّنُوهُ لِأَجْلِ الْقُرْآنِ.

﴿وَمَا هُوَ إِلا ذِكْرٌ﴾[4] وَمَوْعِظَةٌ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾[5]، فَكَيْفَ يُجَنَّنُ مَنْ جَاءَ بِمِثْلِهِ؟!

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [الْقَلَمِ] أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الَّذِينَ حَسَّنَ اللَّهُ أَخْلَاقَهُمْ".

5

سورة الواقعة

سورة الحاقة

مَكِّيَّةٌ،
وَآيَاتُهَا 52
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْمُلْكِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[1]

﴿الْحَاقَّةُ﴾[2]: السَّاعَةُ الْوَاجِبَةُ الْوُقُوعِ الثَّابِتَةُ الْمَجِيءِ، الَّتِي هِيَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا. أَوِ الَّتِي فِيهَا حَوَاقُّ الْأُمُورِ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. أَوِ الَّتِي تَحِقُّ فِيهَا الْأُمُورُ، أَيْ: تُعْرَفَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، مِنْ قَوْلِكَ: لَا أَحِقُّ هَذَا، أَيْ: لَا أَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .

جَعَلَ الْفِعْلَ لَهَا، وَهُوَ لِأَهْلِهَا. وَارْتِفَاعُهَا عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَخَبَرُهَا ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾[1]. وَالْأَصْلُ: الْحَاقَّةُ مَا هِيَ، أَيْ أَيُّ شَيْءٍ هِيَ! تَفْخِيمًا لِشَأْنِهَا وَتَعْظِيمًا لِهَوْلِهَا، فَوَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، لِأَنَّهُ أَهْوَلُ لَهَا.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾[2]: وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْلَمَكَ مَا الْحَاقَّةُ، يَعْنِي: أَنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِكُنْهِهَا وَمَدَى عِظَمِهَا، عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْعِظَمِ وَالشِّدَّةِ بِحَيْثُ لَا يَبْلُغُهُ دِرَايَةُ أَحَدٌ وَلَا وَهْمُهُ، وَكَيْفَمَا قَدَّرْتَ حَالَهَا فَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ.

وَ﴿مَا﴾[3] فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ.

وَ﴿أَدْرَاكَ﴾[4] مُعَلَّقٌ عَنْهُ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ.

﴿الْقَارِعَةُ﴾[5] الَّتِي تَقْرَعُ النَّاسَ بِالْأَفْزَاعِ وَالْأَهْوَالِ، وَالسَّمَاءَ بِالِانْشِقَاقِ وَالِانْفِطَارِ، وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ بِالدَّكِّ وَالنَّسْفِ، وَالنُّجُومَ بِالطَّمْسِ وَالِانْكِدَارِ. وَوُضِعَتْ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِتَدُلَّ عَلَى مَعْنَى الْقَرْعِ.

فِي الْحَاقَّةِ: زِيَادَةٌ فِي وَصْفِ شِدَّتِهَا، وَلَمَّا ذَكَرَهَا وَفَخَّمَهَا أَتْبَعَ ذِكْرَ مَنْ كَذَّبَ بِهَا وَمَا حَلَّ بِهِمْ بِسَبَبِ التَّكْذِيبِ، تَذْكِيرًا لِأَهْلِ مَكَّةَ وَتَخْوِيفًا لَهُمْ مِنْ عَاقِبَةِ تَكْذِيبِهِمْ.

﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾[6] بِالْوَاقِعَةِ الْمُجَاوِزَةِ لِلْحَدِّ فِي الشِّدَّةِ. وَاخْتُلِفَ فِيهَا، فَقِيلَ: الرَّجْفَةُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الصَّاعِقَةُ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً فَأَهْمَدَتْهُمْ.

وَقِيلَ: الطَّاغِيَةُ مَصْدَرٌ كَالْعَافِيَةِ، أَيْ: بِطُغْيَانِهِمْ، وَلَيْسَ بِذَاكَ لِعَدَمِ الطِّبَاقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾[7] وَالصَّرْصَرُ: الشَّدِيدَةُ الصَّوْتِ لَهَا صَرْصَرَةٌ.

وَقِيلَ: الْبَارِدَةُ مِنَ الصَّرِّ، كَأَنَّهَا الَّتِي كُرِّرَ فِيهَا الْبَرْدُ وَكَثُرَ؛ فَهِيَ تُحْرِقُ لِشِدَّةِ بَرْدِهَا "عَاتِيَةٍ" شَدِيدَةِ الْعَصْفِ وَالْعُتُوُّ اسْتِعَارَةٌ. أَوْ عَتَتْ عَلَى عَادٍ، فَمَا قَدَرُوا عَلَى رَدِّهَا بِحِيلَةٍ، مِنَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

اسْتِتَارٍ بِبِنَاءٍ، أَوْ لِيَاذٍ بِجَبَلٍ، أَوِ اخْتِفَاءٍ فِي حُفْرَةٍ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْزِعُهُمْ مِنْ مَكَامِنِهِمْ وَتُهْلِكُهُمْ.

وَقِيلَ: عَتَتْ عَلَى خُزَّانِهَا، فَخَرَجَتْ بِلَا كَيْلٍ وَلَا وَزْنٍ: وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَا أَرْسَلَ اللَّهُ سَفِينَةً مِنْ رِيحٍ إِلَّا بِمِكْيَالٍ، وَلَا قَطْرَةً مِنْ مَطَرٍ إِلَّا بِمِكْيَالٍ إِلَّا يَوْمَ عَادٍ وَيَوْمَ نُوحٍ، فَإِنَّ الْمَاءَ يَوْمَ نُوحٍ طَغَى عَلَى الْخُزَّانِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّبِيلُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[1]]الْحَاقَّةِ: 11].

وَإِنَّ الرِّيحَ يَوْمَ عَادٍ عَتَتْ عَلَى الْخُزَّانِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهَا سَبِيلٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[2]، وَلَعَلَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الشِّدَّةِ وَالْإِفْرَاطِ فِيهَا.

الْحُسُومُ: لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ جَمْعَ حَاسِمٍ كَشُهُودٍ وَقُعُودٍ. أَوْ مَصْدَرًا كَالشُّكُورِ وَالْكُفُورِ. فَإِنْ كَانَ جَمْعًا، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حُسُومًا﴾[3]: نَحِسَاتٍ حَسَمَتْ كُلَّ خَيْرٍ وَاسْتَأْصَلَتْ كُلَّ بَرَكَةٍ. أَوْ مُتَتَابِعَةً هُبُوبَ الرِّيَاحِ: مَا خَفَتَتْ سَاعَةً حَتَّى أَتَتْ عَلَيْهِمْ تَمْثِيلًا لِتَتَابُعِهَا بِتَتَابُعِ فِعْلِ الْحَاسِمِ فِي إِعَادَةِ الْكَيِّ عَلَى الدَّاءِ، مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَنْحَسِمَ.

وَإِنْ كَانَ مَصْدَرًا: فَإِمَّا أَنْ يَنْتَصِبَ بِفِعْلِهِ مُضْمَرًا، أَيْ: تَحْسِمُ حُسُومًا، بِمَعْنَى تَسْتَأْصِلُ اسْتِئْصَالًا. أَوْ يَكُونُ صِفَةً كَقَوْلِكَ: ذَاتُ حُسُومٍ. أَوْ يَكُونُ مَفْعُولًا لَهُ، أَيْ: سَخَّرَهَا لِلِاسْتِئْصَالِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ زُرَارَةَ الْكِلَابِيُّ:

فَفَرَّقَ بَيْنَ بَيْنِهِمُ زَمَانٌ تَتَابَعَ فِيهِ أَعْوَامٌ حُسُومُ

وَقَرَأَ السُّدِّيُّ: حَسُومًا، بِالْفَتْحِ حَالًا مِنَ الرِّيحِ، أَيْ: سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ مُسْتَأْصِلَةً.

وَقِيلَ: هِيَ أَيَّامُ الْعَجُوزِ، وَذَلِكَ أَنَّ عَجُوزًا مِنْ عَادٍ تَوَارَتْ فِي سِرْبٍ، فَانْتَزَعَتْهَا الرِّيحُ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ، فَأَهْلَكَتْهَا.

وَقِيلَ: هِيَ أَيَّامُ الْعَجْزِ، وَهِيَ آخِرُ الشِّتَاءِ: وَأَسْمَاؤُهَا: الصَّنُّ وَالصِّنَّبْرُ، وَالْوَبْرُ. وَالْآمِرُ، وَالْمُؤْتَمِرُ، وَالْمُعَلَّلُ، وَمُطْفِئُ الْجَمْرِ. وَقِيلَ: مُكْفِئُ الظَّعْنِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَمَعْنَى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾[1] سَلَّطَهَا عَلَيْهِمْ كَمَا شَاءَ.

﴿فِيهَا﴾[2]: فِي مَهَابِّهَا. أَوْ فِي اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ. وَقُرِئَ: "أَعْجَازُ نَخِيلٍ".

﴿مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[3]: مِنْ بَقِيَّةٍ أَوْ مِنْ نَفْسٍ بَاقِيَةٍ. أَوْ مِنْ بَقَاءٍ، كَالطَّاغِيَةِ: بِمَعْنَى الطُّغْيَانِ.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾[4]

﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾[5] يُرِيدُ: وَمَنْ عِنْدَهُ مِنْ تِبَاعِهِ.

وَقُرِئَ: "وَمِنْ قَبْلِهِ"، أَيْ: وَمَنْ تَقَدَّمَهُ.

وَتُعَضِّدُ الْأُولَى قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ وَأُبَيٍّ: وَمَنْ مَعَهُ.

وَقِرَاءَةُ أَبِي مُوسَى: "وَمَنْ تِلْقَاءَهُ".

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾[6] قُرِئَ قَوْمِ لُوطٍ "بِالْخَاطِئَةِ" بِالْخَطَأِ. أَوْ بِالْفِعْلَةِ، أَوِ الْأَفْعَالِ ذَاتِ الْخَطَأِ الْعَظِيمِ.

﴿رَابِيَةً﴾[7]: شَدِيدَةً زَائِدَةً فِي الشِّدَّةِ، كَمَا زَادَتْ قَبَائِحُهُمْ فِي الْقُبْحِ. يُقَالُ: رَبَا الشَّيْءُ يَرْبُو: إِذَا زَادَ ﴿لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾[8]]الرُّوم: 39[.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[9]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾[1]: حَمَلْنَا آبَاءَكُمْ، ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾[2] فِي سَفِينَةِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ نَسْلِ الْمَحْمُولِينَ النَّاجِينَ، كَانَ حَمْلُ آبَائِهِمْ مِنَّةً عَلَيْهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ هُمُ الْمَحْمُولُونَ، لِأَنَّ نَجَاتَهُمْ سَبَبُ وِلَادَتِهِمْ.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾[3]: الضَّمِيرُ لِلْفِعْلَةِ، وَهِيَ نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِغْرَاقُ الْكَفَرَةِ.

﴿تَذْكِرَةً﴾[4] عِظَةً وَعِبْرَةً ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[5] مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَعِيَ وَتَحْفَظَ مَا سَمِعَتْ بِهِ وَلَا تُضَيِّعَهُ بِتَرْكِ الْعَمَلِ؛ وَكُلُّ مَا حَفِظْتَهُ فِي نَفْسِكَ، فَقَدْ وَعَيْتَهُ وَمَا حَفِظْتَهُ فِي غَيْرِ نَفْسِكَ، فَقَدْ أَوْعَيْتَهُ؛ كَقَوْلِكَ: وَعَيْتُ الشَّيْءَ فِي الظَّرْفِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: "سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ يَا عَلِيُّ"، قَالَ عَلِيٌّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدُ، وَمَا كَانَ لِيَ أَنْ أَنْسَى .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ: أُذُنٌ وَاعِيَةٌ، عَلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّنْكِيرِ؟

قُلْتُ: لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ الْوُعَاةَ فِيهِمْ قِلَّةٌ، وَلِتَوْبِيخِ النَّاسِ بِقِلَّةِ مَنْ يَعِي مِنْهُمْ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْأُذُنَ الْوَاحِدَةَ إِذَا وَعَتْ وَعَقَلَتْ عَنِ اللَّهِ فَهِيَ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّ مَا سِوَاهَا لَا يُبَالِي بِهِمْ بَالَةً، وَإِنْ مَلَئُوا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ.

وَقُرِئَ: "وَتَعْيَهَا" بِسُكُونِ الْعَيْنِ لِلتَّخْفِيفِ: شَبَّهَ تَعِي بِكَبِدٍ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5]

أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[1]

أَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَى الْمَصْدَرِ، وَحَسُنَ تَذْكِيرُهُ لِلْفَصْلِ. وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ "نَفْخَةً وَاحِدَةً" بِالنَّصْبِ مُسْنَدًا لِلْفِعْلِ إِلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هُمَا نَفْخَتَانِ، فَلِمَ قِيلَ: وَاحِدَةً؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّهَا لَا تُثْنَى فِي وَقْتِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيُّ النَّفْخَتَيْنِ هِيَ؟

قُلْتُ: الْأُولَى؛ لِأَنَّ عِنْدَهَا فَسَادَ الْعَالَمِ، وَهَكَذَا الرِّوَايَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهَا الثَّانِيَةُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا قَالَ بَعْدُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾[2]، وَالْعَرْضُ إِنَّمَا هُوَ عِنْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ؟

قُلْتُ: جَعَلَ الْيَوْمَ اسْمًا لِلْحِينِ الْوَاسِعِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ النَّفْخَتَانِ وَالصَّعْقَةُ وَالنُّشُورُ وَالْوُقُوفُ وَالْحِسَابُ؛ فَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾[3] كَمَا تَقُولُ: جِئْتُهُ عَامَ كَذَا، وَإِنَّمَا كَانَ مَجِيئُكَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ مِنْ أَوْقَاتِهِ.

﴿وَحُمِلَتْ﴾[4]: وَرُفِعَتْ مِنْ جِهَاتِهَا بِرِيحٍ بَلَغَتْ مِنْ قُوَّةِ عَصْفِهَا أَنَّهَا تَحْمِلُ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ. أَوْ بِخَلْقٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. أَوْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ.

وَقُرِئَ: "وَحَمَلَتْ" بِحَذْفِ الْمُحْمَلِ، وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ.

﴿فَدُكَّتَا﴾[5]: فَدُكَّتِ الْجُمْلَتَانِ: جُمْلَةُ الْأَرْضِينَ وَجُمْلَةُ الْجِبَالِ، فَضُرِبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تَنْدَقَّ وَتَرْجِعَ كَثِيبًا مَهِيلًا وَهَبَاءً مُنْبَثًّا وَالدَّكُّ أَبْلَغُ مِنَ الدَّقِّ.

وَقِيلَ: فَبُسِطَتَا بَسْطَةً وَاحِدَةً، فَصَارَتَا أَرْضًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا، مِنْ قَوْلِكَ: انْدَكَّ السَّنَامُ إِذَا انْفَرَشَ. وَبَعِيرٌ أَدَكُّ. وَنَاقَةٌ دَكَّاءُ. وَمِنْهُ: الدُّكَّانُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾[1]: فَحِينَئِذٍ نَزَلَتِ النَّازِلَةُ، وَهِيَ الْقِيَامَةُ.

﴿وَاهِيَةٌ﴾[2] مُسْتَرْخِيَةٌ سَاقِطَةُ الْقُوَّةِ جِدًّا بَعْدَ مَا كَانَتْ مَحْكَمَةً مُسْتَمْسِكَةً. يُرِيدُ: وَالْخَلْقُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَلَكُ، وَرَدَّ إِلَيْهِ الضَّمِيرَ مَجْمُوعًا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوْقَهُمْ﴾[3] عَلَى الْمَعْنَى.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَالْمَلَكُ﴾[4]، وَبَيْنَ أَنْ يُقَالَ "وَالْمَلَائِكَةُ"؟

قُلْتُ: الْمَلَكُ أَعَمُّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ: مَا مِنْ مَلَكٍ إِلَّا وَهُوَ شَاهِدٌ، أَعَمُّ مِنْ قَوْلِكَ: مَا مِنْ مَلَائِكَةٍ؟

﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾[5]: عَلَى جَوَانِبِهَا، الْوَاحِدُ رَجًا مَقْصُورٌ، يَعْنِي: أَنَّهَا تَنْشَقُّ، وَهِيَ مَسْكَنُ الْمَلَائِكَةِ، فَيَنْضَوُونَ إِلَى أَطْرَافِهَا وَمَا حَوْلَهَا مِنْ حَافَاتِهَا.

﴿ثَمَانِيَةٌ﴾[6]، أَيْ: ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ. وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "هُمُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيَّدَهُمُ اللَّهُ بِأَرْبَعَةٍ آخَرِينَ فَيَكُونُونَ ثَمَانِيَةً".

وَرُوِيَ: ثَمَانِيَةُ أَمْلَاكٍ: أَرْجُلُهُمْ فِي تُخُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ رُؤُوسِهُمْ، وَهُمْ مُطْرِقُونَ مُسَبِّحُونَ.

وَقِيلَ: بَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْأَسَدِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الثَّوْرِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ النَّسْرِ.

وَرُوِيَ: ثَمَانِيَةُ أَمْلَاكٍ فِي خَلْقِ الْأَوْعَالِ، مَا بَيْنَ أَظْلَافِهَا إِلَى رُكَبِهَا: مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَامًا.

وَعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ: أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ، وَأَرْبَعَةٌ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: اللَّهُ أَعْلَمُ كَمْ هُمْ، أَثَمَانِيَةٌ أَمْ ثَمَانِيَةُ آلَافٍ؟

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: ثَمَانِيَةُ صُفُوفٍ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الثَّمَانِيَةُ مِنَ الرُّوحِ، أَوْ مِنْ خَلْقٍ آخَرَ، فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ خَلْقٍ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾[1]]يس: 366].

الْعَرْضُ: عِبَارَةٌ عَنِ الْمُحَاسَبَةِ وَالْمُسَاءَلَةِ. شُبِّهَ ذَلِكَ بِعَرْضِ السُّلْطَانِ الْعَسْكَرَ لِتَعَرُّفِ أَحْوَالِهِ.

وَرُوِيَ أَنَّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ. فَأَمَّا عَرْضَتَانِ، فَاعْتِذَارٌ وَاحْتِجَاجٌ وَتَوْبِيخٌ؛ وَأَمَّا الثَّالِثَةُ، فَفِيهَا تُنْشَرُ الْكُتُبُ؛ فَيَأْخُذُ الْفَائِزُ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَالْهَالِكُ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ.

﴿خَافِيَةٌ﴾[2]: سَرِيرَةٌ وَحَالٌ كَانَتْ تَخْفَى فِي الدُّنْيَا بِسَتْرِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[3]

﴿فَأَمَّا﴾[4] تَفْصِيلٌ لِلْعَرْضِ، هَا: صَوْتٌ يُصَوَّتُ بِهِ، فَيُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنَى "خُذْ" كَأُفٍّ وَحِسَّ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَ﴿كِتَابِيَهْ﴾[5] مَنْصُوبٌ بِهَاؤُمُ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ، وَعِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ بِ ﴿اقْرَءُوا﴾[6]، لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْعَامِلَيْنِ.

وَأَصْلُهُ: هَاؤُمُ كِتَابِي اقْرَءُوا كِتَابِي، فَحَذَفَ الْأَوَّلَ لِدَلَالَةِ الثَّانِي عَلَيْهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَنَظِيرُهُ: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[1]الْكَهْفِ: 966]. قَالُوا: وَلَوْ كَانَ الْعَامِلُ الْأَوَّلَ لَقِيلَ: اقْرَؤُهُ وَأَفْرِغْهُ، وَالْهَاءُ لِلسَّكْتِ فِي ﴿كِتَابِيَهْ﴾[2]، وَكَذَلِكَ فِي ﴿حِسَابِيَهْ﴾[3] وَ﴿مَالِيَهْ﴾[4] وَ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾[5]. وَحَقُّ هَذِهِ الْهَاءَاتِ أَنْ تُثْبَتَ فِي الْوَقْفِ وَتُسْقَطَ فِي الْوَصْلِ، وَقَدِ اسْتُحِبَّ إِيثَارُ الْوَقْفِ إِيثَارًا لِثَبَاتِهَا فِي الْمُصْحَفِ.

وَقِيلَ: لَا بَأْسَ بِالْوَصْلِ وَالْإِسْقَاطِ.

وَقَرَأَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ بِإِسْكَانِ الْيَاءِ بِغَيْرِ هَاءٍ.

وَقَرَأَ جَمَاعَةٌ بِإِثْبَاتِ الْهَاءِ فِي الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ جَمِيعًا لِاتِّبَاعِ الْمُصْحَفِ.

﴿ظَنَنْتُ﴾[6]: عَلِمْتُ. وَإِنَّمَا أُجْرِي الظَّنُّ مَجْرَى الْعِلْمِ، لِأَنَّ الظَّنَّ الْغَالِبَ يُقَامُ مَقَامَ الْعِلْمِ فِي الْعَادَاتِ وَالْأَحْكَامِ.

وَيُقَالُ: أَظُنُّ ظَنًّا كَالْيَقِينِ أَنَّ الْأَمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ.

﴿رَاضِيَةٍ﴾[7] مَنْسُوبَةٍ إِلَى الرِّضَا، كَالدَّارِعِ وَالنَّابِلِ. وَالنِّسْبَةُ نِسْبَتَانِ: نِسْبَةٌ بِالْحَرْفِ، وَنِسْبَةٌ بِالصِّيغَةِ. أَوْ جُعِلَ الْفِعْلُ لَهَا مَجَازًا، وَهُوَ لِصَاحِبِهَا.

﴿عَالِيَةٍ﴾[8]: مُرْتَفِعَةِ الْمَكَانِ فِي السَّمَاءِ. أَوْ رَفِيعَةِ الدَّرَجَاتِ. أَوْ رَفِيعَةِ الْمَبَانِي وَالْقُصُورِ وَالْأَشْجَارِ.

﴿دَانِيَةٍ﴾[9]: يَنَالُهَا الْقَاعِدُ وَالنَّائِمُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

يُقَالُ لَهُمْ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾[1] أَكْلًا وَشُرْبًا هَنِيئًا. أَوْ هُنِّيتُمْ هَنِيئًا عَلَى الْمَصْدَرِ، ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾[2]: بِمَا قَدَّمْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ﴿فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[3]: الْمَاضِيَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَيَّامِ الصِّيَامِ، أَيْ: كُلُوا وَاشْرَبُوا بَدَلَ مَا أَمْسَكْتُمْ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ لِوَجْهِ اللَّهِ.

وَرُوِيَ: يَقُولُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: يَا أَوْلِيَائِي، طَالَمَا نَظَرْتُ إِلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ قَلَصَتْ شِفَاهُكُمْ عَنِ الْأَشْرِبَةِ، وَغَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، وَخَمَصَتْ بُطُونُكُمْ؛ فَكُونُوا الْيَوْمَ فِي نَعِيمِكُمْ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ
يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[4]

الضَّمِيرُ فِي ﴿يَا لَيْتَهَا﴾[5] لِلْمَوْتَةِ: يَقُولُ: يَا لَيْتَ الْمَوْتَةَ الَّتِي مِتُّهَا، ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾[6]، أَيِ: الْقَاطِعَةَ لِأَمْرِي، فَلَمْ أُبْعَثْ بَعْدَهَا، وَلَمْ أَلْقَ مَا أَلْقَى. أَوْ لِلْحَالَةِ، أَيْ: لَيْتَ هَذِهِ الْحَالَةَ كَانَتِ الْمَوْتَةَ الَّتِي قَضَتْ عَلَيَّ، لِأَنَّهُ رَأَى تِلْكَ الْحَالَةَ أَبْشَعَ وَأَمَرَّ مِمَّا ذَاقَهُ مِنْ مَرَارَةِ الْمَوْتِ وَشِدَّتِهِ، فَتَمَنَّاهُ عِنْدَهَا.

﴿مَا أَغْنَى﴾[7] نَفْيٌ أَوِ اسْتِفْهَامٌ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ، أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ أَغْنَى عَنِّي مَا كَانَ لِي مِنَ الْيَسَارِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[1]: مُلْكِي وَتَسَلُّطِي عَلَى النَّاسِ، وَبَقِيتُ فَقِيرًا ذَلِيلًا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ الْأَشَدِّ.

وَعَنْ فَنَاخِسْرَةَ الْمُلَقَّبِ بِالْعَضُدِ، أَنَّهُ لَمَّا قَالَ:

عَضُدُ الدَّوْلَةِ وَابْنُ رُكْنِهَا مَلِكُ الْأَمْلَاكِ غَلَّابُ الْقَدَرْ

لَمْ يُفْلِحْ بَعْدَهُ وَجُنَّ فَكَانَ لَا يَنْطِقُ لِسَانُهُ إِلَّا بِهَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضَلَّتْ عَنِّي حُجَّتِي. وَمَعْنَاهُ: بَطَلَتْ حُجَّتِي الَّتِي كُنْتُ أَحْتَجُّ بِهَا فِي الدُّنْيَا.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾[2]

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[3]: ثُمَّ لَا تُصْلُوهُ إِلَّا الْجَحِيمَ، وَهِيَ النَّارُ الْعُظْمَى، لِأَنَّهُ كَانَ سُلْطَانًا يَتَعَظَّمُ عَلَى النَّاسِ.

يُقَالُ: صَلِيَ النَّارَ وَصَلَّاهُ النَّارَ. سَلَكَهُ فِي السِّلْسِلَةِ: أَنْ تُلْوَى عَلَى جَسَدِهِ حَتَّى تَلْتَفَّ عَلَيْهِ أَثْنَاؤُهَا، وَهُوَ فِيمَا بَيْنَهَا مُرْهَقٌ مُضَيَّقٌ عَلَيْهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَرَكَةٍ، وَجَعَلَهَا سَبْعِينَ ذِرَاعًا إِرَادَةَ الْوَصْفِ بِالطُّولِ. كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[4]]التَّوْبَة: 800[. يُرِيدُ: مَرَّاتٍ كَثِيرَةً، لِأَنَّهَا إِذَا طَالَتْ كَانَ الْإِرْهَاقُ أَشَدَّ.

وَالْمَعْنَى فِي تَقْدِيمِ السِّلْسِلَةِ عَلَى السَّلْكِ: مِثْلُهُ فِي تَقْدِيمِ الْجَحِيمِ عَلَى التَّصْلِيَةِ. أَيْ: لَا تَسْلُكُوهُ إِلَّا فِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ، كَأَنَّهَا أَفْظَعُ مِنْ سَائِرِ مَوَاضِعِ الْإِرْهَاقِ فِي الْجَحِيمِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَمَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾[1] الدَّلَالَةُ عَلَى تَفَاوُتِ مَا بَيْنَ الْغُلِّ وَالتَّصْلِيَةِ بِالْجَحِيمِ، وَمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّلْكِ فِي السِّلْسِلَةِ، لَا عَلَى تَرَاخِي الْمُدَّةِ "أَنَّهُ" تَعْلِيلٌ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِئْنَافِ، وَهُوَ أَبْلَغُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا لَهُ يُعَذَّبُ هَذَا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ؟ فَأُجِيبَ بِذَلِكَ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[2] دَلِيلَانِ قَوِيَّانِ عَلَى عِظَمِ الْجُرْمِ فِي حِرْمَانِ الْمِسْكِينِ:

– أَحَدُهُمَا: عَطْفُهُ عَلَى الْكُفْرِ، وَجَعْلُهُ قَرِينَةً لَهُ.

– وَالثَّانِي: ذِكْرُ الْحَضِّ دُونَ الْفِعْلِ، لِيُعْلَمَ أَنَّ تَارِكَ الْحَضِّ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، فَكَيْفَ بِتَارِكِ الْفِعْلِ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ:

إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَذَوَّرًا عَلَى الْحَيِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهْ

يُرِيدُ: حَضَّهُمْ عَلَى الْقِرَى وَاسْتَعْجَلَهُمْ وَتَشَاكَسَ عَلَيْهِمْ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَحُضُّ امْرَأَتَهُ عَلَى تَكْثِيرِ الْمَرَقِ لِأَجْلِ الْمَسَاكِينِ، وَكَانَ يَقُولُ: خَلَعْنَا نِصْفَ السِّلْسِلَةِ بِالْإِيمَانِ، أَفَلَا نَخْلَعُ نِصْفَهَا الْآخَرَ؟

وَقِيلَ: هُوَ مَنْعُ الْكُفَّارِ. وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾[3]]يس: 477].

وَالْمَعْنَى عَلَى بَذْلِ طَعَامِ الْمِسْكِينِ.

﴿حَمِيمٌ﴾[4]: قَرِيبٌ يَدْفَعُ عَنْهُ وَيَحْزَنُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ يَتَحَامَوْنَهُ وَيَفِرُّونَ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[5]]الْمَعَارِجِ: 100].

وَالْغِسْلِينُ: غُسَالَةُ أَهْلِ النَّارِ وَمَا يَسِيلُ مِنْ أَبْدَانِهِمْ مِنَ الصَّدِيدِ وَالدَّمِ، فِعْلِينٌ مِنَ الْغَسْلِ.

﴿الْخَاطِئُونَ﴾[6]: الْآثِمُونَ أَصْحَابُ الْخَطَايَا.

وَخَطِئَ الرَّجُلُ: إِذَا تَعَمَّدَ الذَّنْبَ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَقُرِئَ: "الْخَاطِيُونَ" بِإِبْدَالِ الْهَمْزَةِ يَاءً، وَالْخَاطُونَ بِطَرْحِهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا الْخَاطُونَ؟ كُلُّنَا نَخْطُو.

وَرَوَى عَنْهُ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ: مَا الْخَاطُونَ؟ إِنَّمَا هُوَ الْخَاطِئُونَ، مَا الصَّابُونُ؟ إِنَّمَا هُوَ الصَّابِئُونَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: الَّذِينَ يَتَخَطَّوْنَ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَيَتَعَدَّوْنَ حُدُودَ اللَّهِ.

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]

هُوَ إِقْسَامٌ بِالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا عَلَى الشُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ، لِأَنَّهَا لَا تَخْرُجُ مِنْ قِسْمَيْنِ: مُبْصَرٍ وَغَيْرِ مُبْصَرٍ.

وَقِيلَ: الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَالْأَجْسَامُ وَالْأَرْوَاحُ، وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَالْخَلْقُ وَالْخَالِقُ، وَالنِّعَمُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[2]، أَيْ: يَقُولُهُ وَيَتَكَلَّمُ بِهِ عَلَى وَجْهِ الرِّسَالَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[3] وَلَا كَاهِنٍ كَمَا تَدَّعُونَ وَالْقِلَّةُ فِي مَعْنَى الْعَدَمِ. أَيْ: لَا تُؤْمِنُونَ وَلَا تَذَكَّرُونَ أَلْبَتَّةَ.

وَالْمَعْنَى: مَا أَكْفَرَكُمْ وَمَا أَغْفَلَكُمْ "تَنْزِيلٌ" هُوَ تَنْزِيلٌ. بَيَانًا، لِأَنَّهُ قَوْلُ رَسُولٍ نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ: تَنْزِيلًا، أَيْ: نُزِّلَ تَنْزِيلًا.

وَقِيلَ: الرَّسُولُ الْكَرِيمُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[1] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لِأَنَّ الْمَعْنَى عَلَى إِثْبَاتِ أَنَّهُ رَسُولٌ، لَا شَاعِرٌ وَلَا كَاهِنٌ.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[2]

التَّقَوُّلُ: افْتِعَالُ الْقَوْلِ، لِأَنَّ فِيهِ تَكَلُّفًا مِنَ الْمُفْتَعِلِ، وَسَمَّى الْأَقْوَالَ الْمُتَقَوَّلَةَ "أَقَاوِيلَ" : تَصْغِيرًا بِهَا وَتَحْقِيرًا، كَقَوْلِكَ: الْأَعَاجِيبُ وَالْأَضَاحِيكُ، كَأَنَّهَا جَمْعُ أُفْعُولَةٍ مِنَ الْقَوْلِ.

وَالْمَعْنَى: وَلَوِ ادَّعَى عَلَيْنَا شَيْئًا لَمْ نَقُلْهُ لَقَتَلْنَاهُ صَبْرًا، كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ بِمَنْ يَتَكَذَّبُ عَلَيْهِمْ مُعَاجَلَةً بِالسُّخْطِ وَالِانْتِقَامِ، فَصَوَّرَ قَتْلَ الصَّبْرِ بِصُورَتِهِ، لِيَكُونَ أَهْوَلَ: وَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ بِيَدِهِ وَتُضْرَبَ رَقَبَتُهُ.

وَخَصَّ الْيَمِينَ عَنِ الْيَسَارِ، لِأَنَّ الْقِتَالَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوقِعَ الضَّرْبَ فِي قَفَاهُ أَخَذَ بِيَسَارِهِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُوقِعَهُ فِي جِيدِهِ وَأَنْ يَكْفَحَهُ بِالسَّيْفِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَى الْمَصْبُورِ لِنَظَرِهِ إِلَى السَّيْفِ أُخِذَ بِيَمِينِهِ.

وَمَعْنَى: أَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ لَأَخَذْنَا بِيَمِينِهِ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[3]: لَقَطَعْنَا وَتِينَهُ. وَهَذَا بَيِّنٌ.

وَالْوَتِينُ: نِيَاطُ الْقَلْبِ، وَهُوَ حَبْلُ الْوَرِيدِ: إِذَا قُطِعَ مَاتَ صَاحِبُهُ.

وَقُرِئَ: "وَلَوْ تَقَوَّلَ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

قِيلَ: ﴿حَاجِزِينَ﴾[1] فِي وَصْفِ أَحَدٍ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْجَمَاعَةِ، وَهُوَ اسْمٌ يَقَعُ فِي النَّفْيِ الْعَامِّ مُسْتَوِيًا فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ، وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[2]]الْبَقَرَة: 285.[، ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾[3]]الْأَحْزَاب: 322.[

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿عَنْهُ﴾[4] لِلْقَتْلِ، أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَحْجِزَهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَدْفَعَهُ عَنْهُ. أَوْ لِرَسُولِ اللَّهِ، أَيْ: لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَحْجِزُوا عَنْهُ الْقَاتِلَ وَتَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَالْخِطَابُ لِلنَّاسِ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾[5]، وَهُوَ إِيعَادٌ عَلَى التَّكْذِيبِ.

وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ مِنْهُمْ نَاسًا سَيَكْفُرُونَ بِالْقُرْآنِ.

﴿وَإِنَّهُ﴾[6]: الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ، ﴿لَحَسْرَةٌ﴾[7] عَلَى الْكَافِرِينَ بِهِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ إِذَا رَأَوْا ثَوَابَ الْمُصَدِّقِينَ بِهِ. أَوْ لِلتَّكْذِيبِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْيَقِينُ حَقُّ الْيَقِينُ، كَقَوْلِكَ: هُوَ الْعَالِمُ حَقُّ الْعَالِمِ، وَجِدُّ الْعَالِمِ.

وَالْمَعْنَى: لَعَيْنُ الْيَقِينِ، وَمَحْضُ الْيَقِينِ.

﴿فَسَبِّحِ﴾[8] اللَّهَ بِذِكْرِ اسْمِهِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاعْبُدْهُ شُكْرًا عَلَى مَا أَهَّلَكَ لَهُ مِنْ إِيحَائِهِ إِلَيْكَ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [الْحَاقَّةِ] حَاسَبَهُ اللَّهُ حِسَابًا يَسِيرًا".

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

سورة المؤمنون

سورة المعارج

مَكِّيَّةٌ،
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْحَاقَّةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ كَلا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾[1]

ضُمِّنَ "سَأَلَ" مَعْنَى دَعَا، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: دَعَا دَاعٍ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[2] مِنْ قَوْلِكَ: دَعَا بِكَذَا. إِذَا اسْتَدْعَى وَطَلَبَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾[3]]الدُّخَانِ: 55].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ قَالَ: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

وَقِيلَ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، اسْتَعْجَلَ بِعَذَابٍ لِلْكَافِرِينَ.

وَقُرِئَ: سَالَ سَائِلٌ وَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ السُّؤَالِ، وَهِيَ لُغَةُ قُرَيْشٍ، يَقُولُونَ: سَلْتَ تَسَالُ، وَهُمَا يَتَسَايَلَانِ، وَأَنْ يَكُونَ مِنَ السَّيَلَانِ.

وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ "سَالَ سَيْلٌ"، وَالسَّيْلُ: مَصْدَرٌ فِي مَعْنَى السَّائِلِ، كَالْغَوْرِ بِمَعْنَى الْغَائِرِ.

وَالْمَعْنَى: انْدَفَعَ عَلَيْهِمْ وَادِي عَذَابٍ فَذَهَبَ بِهِمْ وَأَهْلَكَهُمْ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ عَلَى مَنْ يَنْزِلُ وَبِمَنْ يَقَعُ؟ فَنَزَلَتْ، وَسَأَلَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مُضَمَّنٌ مَعْنَى: عَنَى وَاهْتَمَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَّصِلُ قَوْلُهُ: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾[1]؟

قُلْتُ: هُوَ:

– عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مُتَّصِلٌ بِعَذَابٍ صِفَةٌ لَهُ، أَيْ: بِعَذَابٍ وَاقِعٍ كَائِنٍ لِلْكَافِرِينَ، أَوْ بِالْفِعْلِ، أَيْ: دَعَا لِلْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، أَوْ بِوَاقِعٍ، أَيْ: بِعَذَابٍ نَازِلٍ لِأَجْلِهِمْ؛

– وَعَلَى الثَّانِي: هُوَ كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ جَوَابٍ لِلسَّائِلِ، أَيْ: هُوَ لِلْكَافِرِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَوْلُهُ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾[2] بِمَ يَتَّصِلُ؟

قُلْتُ: يَتَّصِلُ بِوَاقِعٍ، أَيْ: وَاقِعٍ مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ بِدَافِعٍ، بِمَعْنَى: لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنْ جِهَتِهِ إِذَا جَاءَ وَقْتُهُ وَأَوْجَبَتِ الْحِكْمَةُ وُقُوعَهُ.

﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾[3]: ذِي الْمَصَاعِدِ جَمْعُ مِعْرَجٍ، ثُمَّ وَصَفَ الْمَصَاعِدَ وَبُعْدَ مَدَاهَا فِي الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ، فَقَالَ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[4] إِلَى عَرْشِهِ، وَحَيْثُ تَهْبِطُ مِنْهُ أَوَامِرُهُ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾[5] كَمِقْدَارِ مُدَّةِ ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[6] مِمَّا يُعُدُّ النَّاسُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَالرُّوحُ: جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–، أَفْرَدَهُ لِتَمَيُّزِهِ بِفَضْلِهِ.

وَقِيلَ: الرُّوحُ خَلْقٌ هُمْ حَفَظَةٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَفَظَةٌ عَلَى النَّاسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَعَلَّقُ قَوْلُهُ: ﴿فَاصْبِرْ﴾[1]؟

قُلْتُ: بِـ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾[2]، لِأَنَّ اسْتِعْجَالَ النَّصْرِ بِالْعَذَابِ إِنَّمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالتَّكْذِيبِ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُضْجِرُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَأُمِرَ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مِنْ سَأَلَ عَنِ الْعَذَابِ لِمَنْ هُوَ، فَإِنَّمَا سَأَلَ عَلَى طَرِيقِ التَّعَنُّتِ، وَكَانَ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ.

وَمَنْ قَرَأَ: سَالَ سَائِلٌ أَوْ سَيْلٌ، فَمَعْنَاهُ: جَاءَ الْعَذَابُ لِقُرْبِ وُقُوعِهِ، فَاصْبِرْ فَقَدْ شَارَفْتَ الِانْتِقَامَ.

وَقَدْ جَعَلَ ﴿فِي يَوْمٍ﴾[3] مِنْ صِلَةِ "وَاقِعٍ"، أَيْ: يَقَعُ فِي يَوْمٍ طَوِيلٍ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ سِنِيكُمْ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ اسْتِطَالَةً لَهُ لِشَدَّتِهِ عَلَى الْكُفَّارِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَذَلِكَ.

قِيلَ: فِيهِ خَمْسُونَ مَوْطِنًا كُلُّ مَوْطِنٍ أَلْفُ سَنَةٍ، وَمَا قَدْرُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِ إِلَّا كَمَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ.

الضَّمِيرُ فِي ﴿يَرَوْنَهُ﴾[4] لِلْعَذَابِ الْوَاقِعِ، أَوْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيمَنْ عَلَّقَ ﴿فِي يَوْمٍ﴾[5] بِوَاقِعٍ، أَيْ: يَسْتَبْعِدُونَهُ عَلَى جِهَةِ الْإِحَالَةِ.

﴿وَ﴾[6] نَحْنُ ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[7] هَيِّنًا فِي قَدْرٍ فِي قُدْرَتِنَا غَيْرِ بَعِيدٍ عَلَيْنَا وَلَا مُتَعَذِّرٍ، فَالْمُرَادُ بِالْبَعِيدِ مِنَ الْإِمْكَانِ، وَبِالْقَرِيبِ: الْقَرِيبُ مِنْهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

نَصَبَ ﴿يَوْمَ تَكُونُ﴾[1] بِـ ﴿قَرِيبًا﴾[2]، أَيْ: يُمْكِنُ وَلَا يَتَعَذَّرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. أَوْ بِإِضْمَارِ يَقَعُ، لِدَلَالَةِ ﴿وَاقِعٍ﴾[3] عَلَيْهِ أَوْ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ. كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ. أَوْ هُوَ بَدَلٌ عَنْ ﴿فِي يَوْمٍ﴾[4] فِيمَنْ عَلَّقَهُ بِوَاقِعٍ، ﴿كَالْمُهْلِ﴾[5]: كَدُرْدِيِّ الزَّيْتِ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: كَالْفِضَّةِ الْمُذَابَةِ فِي تَلَوُّنِهَا ﴿كَالْعِهْنِ﴾[6] وَغَرَابِيبُ سُودٌ؛ فَإِذَا بُسَّتْ وَطُيِّرَتْ فِي الْجَوِّ، أَشْبَهَتِ الْعِهْنَ الْمَنْفُوشَ إِذَا طَيَّرَتْهُ الرِّيحُ.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[7]، أَيْ: لَا يَسْأَلُهُ بِكَيْفَ حَالُكَ وَلَا يُكَلِّمُهُ، لِأَنَّ بِكُلِّ أَحَدٍ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ الْمُسَاءَلَةِ.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[8]، أَيْ: يُبْصِرُ الْأَحِمَّاءُ الْأَحِمَّاءَ، فَلَا يَخْفَوْنَ عَلَيْهِمْ، فَمَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْمُسَاءَلَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ لَا يُبْصِرُ بَعْضًا، وَإِنَّمَا يَمْنَعُهُمُ التَّشَاغُلُ:

وَقُرِئَ: "يُبْصِرُونَهُمْ" وَقُرِئَ: وَلَا يُسْأَلُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيْ: لَا يُقَالُ لِحَمِيمٍ: أَيْنَ حَمِيمُكَ وَلَا يُطْلَبُ مِنْهُ، لِأَنَّهُمْ يُبْصِرُونَهُمْ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى السُّؤَالِ وَالطَّلَبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَوْقِعُ يُبَصَّرُونَهُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، كَأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[9].

قِيلَ: لَعَلَّهُ لَا يُبْصِرُهُ، فَقِيلَ: يُبَصَّرُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ -لِتَشَاغُلِهِمْ- لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ تَسَاؤُلِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جُمِعَ الضَّمِيرَانِ فِي ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[10]، وَهُمَا لِلْحَمِيمَيْنِ؟

قُلْتُ: الْمَعْنَى عَلَى الْعُمُومِ لِكُلِّ حَمِيمَيْنِ لَا لِحَمِيمَيْنِ اثْنَيْنِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[1] صِفَةً، أَيْ: حَمِيمًا مُبْصَرِينَ مُعَرَّفِينَ إِيَّاهُمْ.

قُرِئَ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[2] بِالْجَرِّ وَالْفَتْحِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْإِضَافَةِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ، وَمِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ، بِتَنْوِينِ ﴿عَذَابٍ﴾[3] وَنَصْبِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[4] وَانْتِصَابِهِ بِعَذَابٍ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى تَعْذِيبٍ.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾[5]: عَشِيرَتِهِ.

﴿الْأَدْنَوْنَ﴾[6]: الَّذِينَ فُصِلَ عَنْهُمْ.

﴿تُؤْوِيهِ﴾[7]: تَضُمُّهُ انْتِمَاءً إِلَيْهَا، أَوْ لِيَاذًا بِهَا فِي النَّوَائِبِ.

﴿يُنْجِيهِ﴾[8] عُطِفَ عَلَى يَفْتَدِي، أَيْ: يَوَدُّ لَوْ يَفْتَدِي، ثُمَّ لَوْ يُنْجِيهِ الِافْتِدَاءُ. أَوْ مَنْ فِي الْأَرْضِ.

وَثُمَّ: لِاسْتِبْعَادِ الْإِنْجَاءِ، يَعْنِي: تَمَنَّى لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا تَحْتَ يَدِهِ وَبَذَلَهُمْ فِي فِدَاءِ نَفْسِهِ، ثُمَّ يُنْجِيهِ ذَلِكَ وَهَيْهَاتَ أَنْ يُنْجِيَهُ.

﴿كَلَّا﴾[9]: رَدٌّ لِلْمُجْرِمِ عَنِ الْوِدَادَةِ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ الِافْتِدَاءُ وَلَا يُنْجِيهِ مِنَ الْعَذَابِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّهَا﴾[10]، وَالضَّمِيرُ لِلنَّارِ، وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، لِأَنَّ ذِكْرَ الْعَذَابِ دَلَّ عَلَيْهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرًا مُبْهَمًا تَرْجَمَ عَنْهُ الْخَبَرُ، أَوْ ضَمِيرُ الْقِصَّةِ.

وَ﴿لَظَى﴾[11]: عَلَمٌ لِلنَّارِ، مَنْقُولٌ مِنَ اللَّظَى: بِمَعْنَى اللَّهَبِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

[10] سورة ، الآية .

[11] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ اللَّهَبُ.

وَ﴿نَزَّاعَةً﴾[1] خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، لِأَنَّ أَوْ خَبَرٌ لِلَّظَى إِنْ كَانَتِ الْهَاءُ ضَمِيرَ الْقِصَّةِ، أَوْ صِفَةً لَهُ إِنْ أَرَدْتَ اللَّهَبَ، وَالتَّأْنِيثُ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى النَّارِ. أَوْ رَفْعٌ عَلَى التَّهْوِيلِ، أَيْ: هِيَ نَزَّاعَةٌ.

وَقُرِئَ: نَزَّاعَةً بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ الْمُؤَكِّدَةِ، أَوْ عَلَى أَنَّهَا مُتَلَظِّيَةٌ نَزَّاعَةٌ، أَوْ عَلَى الِاخْتِصَاصِ لِلتَّهْوِيلِ.

وَالشَّوَى: الْأَطْرَافُ أَوْ جَمْعُ شَوَاةٍ: وَهِيَ جِلْدَةُ الرَّأْسِ تَنْزِعُهَا نَزْعًا فَتَبْتِكُهَا؟

ثُمَّ تُعَادُ ﴿تَدْعُو﴾[2] مَجَازٌ عَنْ إِحْضَارِهِمْ، كَأَنَّهَا تَدْعُوهُمْ، فَتُحْضِرُهُمْ.

وَنَحْوَهُ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ:

..... تَدْعُو أَنْفَهُ الرِّبَبُ

وَقَوْلِهِ:

لَيَالِي اللَّهْوِ يُطْبِينِي فَأَتْبَعَهُ..... .

وَقَوْلِ أَبِي النَّجْمِ:

تَقُولُ لِلرَّائِدِ أَعْشَبْتَ انْزِلِ

وَقِيلَ: تَقُولُ لَهُمْ: إِلَيَّ، إِلَيَّ، يَا كَافِرُ يَا مُنَافِقُ.

وَقِيلَ: تَدْعُو الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ الْتِقَاطَ الْحَبِّ، فَيَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ فِيهَا كَلَامًا كَمَا يَخْلُقُهُ فِي جُلُودِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ، وَكَمَا خَلَقَهُ فِي الشَّجَرَةِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءَ الزَّبَانِيَةِ.

وَقِيلَ: تَدْعُو: تُهْلِكُ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: دَعَاكَ اللَّهُ، أَيْ: أَهْلَكَكَ.

قَالَ:

دَعَاكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ بِأَفْعَى..... .

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾[1] عَنِ الْحَقِّ، ﴿وَتَوَلَّى﴾[2] عَنْهُ، ﴿وَجَمَعَ﴾[3] الْمَالَ فَجَعَلَهُ فِي وِعَاءٍ وَكَنَزَهُ، وَلَمْ يُؤَدِّ الزَّكَاةَ وَالْحُقُوقَ الْوَاجِبَةَ فِيهِ، وَتَشَاغَلَ بِهِ عَنِ الدِّينِ، وَزَهَى بِاقْتِنَائِهِ وَتَكَبَّرَ.

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[4]

أُرِيدَ بِالْإِنْسَانِ النَّاسُ، فَلِذَلِكَ اسْتَثْنَى مِنْهُ إِلَّا الْمُصَلِّينَ.

وَالْهَلَعُ: سُرْعَةُ الْجَزَعِ عِنْدَ مَسِّ الْمَكْرُوهِ وَسُرْعَةُ الْمَنْعِ عِنْدَ مَسِّ الْخَيْرِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَاقَةٌ هِلْوَاعٌ؛ سَرِيعَةُ السَّيْرِ.

وَعَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى، قَالَ لِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ: مَا الْهَلَعُ؟ فَقُلْتُ: قَدْ فَسَّرَهُ اللَّهُ، وَلَا يَكُونُ تَفْسِيرٌ أَبْيَنَ مِنْ تَفْسِيرِهِ، وَهُوَ الَّذِي إِذَا نَالَهُ شَرٌّ أَظْهَرَ شِدَّةَ الْجَزَعِ، وَإِذَا نَالَهُ خَيْرٌ بَخِلَ بِهِ وَمَنَعَهُ النَّاسَ.

وَالْخَيْرُ: الْمَالُ وَالْغِنَى، وَالشَّرُّ: الْفَقْرُ. أَوِ الصِّحَّةُ وَالْمَرَضُ: إِذَا صَحَّ الْغَنِيُّ مَنَعَ الْمَعْرُوفَ وَشَحَّ بِمَالِهِ، وَإِذَا مَرِضَ جَزِعَ وَأَخَذَ يُوصِي.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْإِنْسَانَ لِإِيثَارِهِ الْجَزَعَ وَالْمَنْعَ وَتَمَكُّنِهِمَا مِنْهُ وَرُسُوخِهِمَا فِيهِ، كَأَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَيْهِمَا مَطْبُوعٌ، وَكَأَنَّهُ أَمْرٌ خِلْقِيٌّ وَضَرُورِيٌّ غَيْرُ اخْتِيَارِيٍّ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[1]]الْأَنْبِيَاءِ: 377.[

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: أَنَّهُ حِينَ كَانَ فِي الْبَطْنِ وَالْمَهْدِ لَمْ يَكُنْ بِهِ هَلَعٌ، وَلِأَنَّهُ ذَمٌّ وَاللَّهُ لَا يُذَمُّ فِعْلُهُ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: اسْتِثْنَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاهَدُوا أَنْفُسَهُمْ وَحَمَلُوهَا عَلَى الْمَكَارِهِ وَظَلَّفُوهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، حَتَّى لَمْ يَكُونُوا جَازِعِينَ وَلَا مَانِعِينَ.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "شَرُّ مَا أُعْطِيَ ابْنُ آدَمَ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ".

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[2]، ثُمَّ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ؟

قُلْتُ: مَعْنَى دَوَامِهِمْ عَلَيْهَا أَنْ يُوَاظِبُوا عَلَى أَدَائِهَا لَا يُخِلُّونَ بِهَا وَلَا يَشْتَغِلُونَ عَنْهَا بِشَيْءٍ مِنَ الشَّوَاغِلِ، كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَفْضَلُ الْعَمَلِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ"، وَقَوْلِ عَائِشَةَ: "كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً".

وَمُحَافَظَتُهُمْ عَلَيْهَا أَنْ يُرَاعُوا إِسْبَاغَ الْوُضُوءِ لَهَا وَمَوَاقِيتَهَا وَيُقِيمُوا أَرْكَانَهَا وَيُكْمِلُوهَا بِسُنَّتِهَا وَآدَابِهَا، وَيَحْفَظُوهَا مِنَ الْإِحْبَاطِ بِاقْتِرَافِ الْمَآثِمِ؛ فَالدَّوَامُ يَرْجِعُ إِلَى أَنْفُسِ الصَّلَوَاتِ وَالْمُحَافَظَةِ إِلَى أَحْوَالِهَا.

﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾[3] هُوَ الزَّكَاةُ، لِأَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ مَعْلُومَةٌ، أَوْ صَدَقَةٌ يُوَظِّفُهَا الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ يُؤَدِّيهَا فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ.

السَّائِلُ: الَّذِي يَسْأَلُ ﴿وَالْمَحْرُومُ﴾[4] الَّذِي يَتَعَفَّفُ عَنِ السُّؤَالِ فَيُحْسَبُ غَنِيًّا فَيُحْرَمُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[1] تَصْدِيقًا بِأَعْمَالِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لَهُ، وَيُشْفِقُونَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، وَاعْتُرِضَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[2]، أَيْ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ، وَإِنْ بَالَغَ فِي الطَّاعَةِ وَالِاجْتِهَادِ أَنْ يَأْمَنَهُ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُتَرَجِّحًا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ.

قُرِئَ: "بِشَهَادَتِهِمْ" "وَبِشَهَادَاتِهِمْ" وَالشَّهَادَةُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمَانَاتِ. وَخَصَّهَا مِنْ بَيْنِهَا إِبَانَةً لِفَضْلِهَا، لِأَنَّ فِي إِقَامَتِهَا إِحْيَاءَ الْحُقُوقِ وَتَصْحِيحَهَا. وَفِي زَيِّهَا: تَضْيِيعُهَا وَإِبْطَالُهَا.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[3]

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَحْتَفُّونَ حَوْلَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِلَقًا حِلَقًا وَفِرَقًا فِرَقًا، يَسْتَمِعُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِكَلَامِهِ. وَيَقُولُونَ: إِنْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ الْجَنَّةَ كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ فَلَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلَهُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾[4]: مُسْرِعِينَ نَحْوَكَ، مَادِّي أَعْنَاقِهِمْ إِلَيْكَ، مُقْبِلِينَ بِأَبْصَارِهِمْ عَلَيْكَ؛ ﴿عِزِينَ﴾[5]: فِرَقًا شَتَّى جَمْعُ عِزَةٍ، وَأَصْلُهَا عِزْوَةٌ، كَأَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ تُعْتَزَى إِلَى غَيْرِ مَنْ تُعْتَزَى إِلَيْهِ الْأُخْرَى: فَهُمْ مُفْتَرِقُونَ.

قَالَ الْكُمَيْتُ:

وَنَحْنُ وَجَنْدَلٌ بَاغٍ تَرَكْنَا كَتَائِبَ جَنْدَكٍ شَتَّى عِزِينَا

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: كَانَ الْمُسْتَهْزِئُونَ خَمْسَةَ أَرْهُطٍ.

﴿كَلَّا﴾[1] رَدْعٌ لَهُمْ عَنْ طَمَعِهِمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾[2] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَهُوَ كَلَامٌ دَالٌّ عَلَى إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: كَلَّا إِنَّهُمْ مُنْكِرُونَ لِلْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ؛ فَمِنْ أَيْنَ يَطْعَمُونَ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيِّ وَجْهٍ دَلَّ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ؟

قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ احْتِجَاجٌ عَلَيْهِمْ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى، كَالِاحْتِجَاجِ بِهَا عَلَيْهِمْ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّنْزِيلِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾[3]، أَيْ: مِنَ النُّطَفِ، وَبِالْقُدْرَةِ عَلَى أَنْ يُهْلِكَهُمْ وَيُبَدِّلَ نَاسًا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمَسْبُوقٍ عَلَى مَا يُرِيدُ تَكْوِينَهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَالْغَرَضُ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ تُعْجِزْهُ الْإِعَادَةُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ، أَيْ: مِنَ النُّطْفَةِ الْمَذِرَةِ، وَهِيَ مَنْصِبُهُمُ الَّذِي لَا مَنْصِبَ أَوْضَعَ مِنْهُ. وَلِذَلِكَ أُبْهِمَ وَأُخْفِيَ: إِشْعَارًا بِأَنَّهُ مَنْصِبٌ يُسْتَحَيَا مِنْ ذِكْرِهِ، فَمِنْ أَيْنَ يَتَشَرَّفُونَ وَيَدَّعُونَ التَّقَدُّمَ وَيَقُولُونَ: لَنَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ قَبْلَهُمْ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ نُطْفَةٍ كَمَا خَلَقْنَا بَنِي آدَمَ كُلَّهُمْ، وَمِنْ حُكْمِنَا أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْهُمُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَلَمْ يَطْمَعْ أَنْ يَدْخُلَهَا مَنْ لَيْسَ لَهُ إِيمَانٌ وَعَمَلٌ.

وَقُرِئَ: بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَيَخْرُجُونَ وَيُخْرَجُونَ وَمِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا، بِالْإِظْهَارِ وَالْإِدْغَامِ.

وَنُصْبٍ، وَنُصُبٍ: وَهُوَ كُلُّ مَا نُصِبَ فَعُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

﴿يُوفِضُونَ﴾[4]: يُسْرِعُونَ إِلَى الدَّاعِي مُسْتَبِقِينَ كَمَا كَانُوا يَسْتَبِقُونَ إِلَى أَنْصَابِهِمْ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَأَلَ سَائِلٌ، أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

سورة نوح

- دنيهة سنان -

سورة [نوح]
- تسمية السورة -

مَكِّيَّةٌ،
وَهِيَ ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [النَّحْلِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]

﴿أَنْ أَنْذِرْ﴾[2] أَصْلُهُ: بِأَنْ أَنْذِرْ، فَحَذَفَ الْجَارَّ وَأَوْصَلَ الْفِعْلَ، وَهِيَ أَنْ النَّاصِبَةُ لِلْفِعْلِ.

وَالْمَعْنَى: أَرْسَلْنَاهُ بِأَنْ قُلْنَا لَهُ أَنْذِرْ، أَيْ: أَرْسَلْنَاهُ بِالْأَمْرِ بِالْإِنْظَارِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُفَسِّرَةً، لِأَنَّ الْإِرْسَالَ فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ "أَنْذِرْ" بِغَيْرِ "أَنْ" عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَ﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾[1] نَحْوَ ﴿أَنْ أَنْذِرْ﴾[2] فِي الْوَجْهَيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ "وَيُؤَخِّرْكُمْ" مَعَ إِخْبَارِهِ بِامْتِنَاعِ تَأْخِيرِ الْأَجَلِ؟ وَهَلْ هَذَا إِلَّا تَنَاقُضٌ؟

قُلْتُ: قَضَى اللَّهُ مَثَلًا أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ إِنْ آمَنُوا عُمْرُهُمْ أَلْفُ سَنَةٍ، وَإِنْ بَقُوا عَلَى كُفْرِهِمْ أَهْلَكَهُمْ عَلَى رَأْسِ تِسْعِمِائَةٍ.

فَقِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا يُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، أَيْ: إِلَى وَقْتٍ سَمَّاهُ اللَّهُ وَضَرَبَهُ أَمَدًا تَنْتَهُونَ إِلَيْهِ لَا تَتَجَاوَزُونَهُ، وَهُوَ الْوَقْتُ الْأَطْوَلُ تَمَامَ الْأَلْفِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ ذَلِكَ الْأَجَلُ الْأَمَدُ لَا يُؤَخَّرُ كَمَا يُؤَخَّرُ هَذَا الْوَقْتُ، وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ حِيلَةٌ، فَبَادَرُوا فِي أَوْقَاتِ الْإِمْهَالِ وَالتَّأْخِيرِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[3]

﴿لَيْلا وَنَهَارًا﴾[4]: دَائِبًا مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ مُسْتَغْرَقًا بِهِ الْأَوْقَاتُ كُلُّهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي﴾[1]: جَعَلَ الدُّعَاءَ فَاعِلَ زِيَادَةِ الْفِرَارِ. وَالْمَعْنَى عَلَى أَنَّهُمُ ازْدَادُوا عِنْدَهُ فِرَارًا، لِأَنَّهُ سَبَبُ الزِّيَادَةِ.

وَنَحْوَهُ: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[2]]التَّوْبَةِ: 125[، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[3]]التَّوْبَةِ: 124.[

﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾[4]: لِيَتُوبُوا عَنْ كُفْرِهِمْ فَتَغْفِرَ لَهُمْ، فَذَكَرَ الْمُسَبِّبَ الَّذِي هُوَ حَظُّهُمْ خَالِصًا لِيَكُونَ أَقْبَحَ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ. سَدُّوا مَسَامِعَهُمْ عَنِ اسْتِمَاعِ الدَّعْوَةِ.

﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾[5]: وَتَغَطَّوْا بِهَا، كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا أَنْ تَغْشَاهُمْ ثِيَابُهُمْ، أَوْ تَغَشِّيهِمْ لِئَلَّا يُبْصِرُوهُ كَرَاهَةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ مَنْ يَنْصَحُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ.

وَقِيلَ: لِئَلَّا يَعْرِفَهُمْ، وَيُعَضِّدُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾[6]]هُودٍ: 55].

الْإِصْرَارُ: مِنْ أَصَرَّ الْحِمَارُ عَلَى الْعَانَةِ إِذَا صَرَّ أُذُنَيْهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يَكْدُمُهَا وَيَطْرُدُهَا: اسْتُعِيرَ لِلْإِقْبَالِ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْإِكْبَابِ عَلَيْهَا.

﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾[7]: وَأَخَذَتْهُمُ الْعِزَّةُ مِنَ اتِّبَاعِ نُوحٍ وَطَاعَتِهِ، وَذِكْرُ الْمَصْدَرِ تَأْكِيدٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى فَرْطِ اسْتِقْبَالِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: ذُكِرَ أَنَّهُ دَعَاهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا، ثُمَّ دَعَاهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ دَعَاهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ ثَلَاثَ دَعَوَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ حَتَّى يَصِحَّ الْعَطْفُ.

قُلْتُ: قَدْ فَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا يَفْعَلُ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ: فِي الِابْتِدَاءِ بِالْأَهْوَنِ وَالتَّرَقِّي فِي الْأَشَدِّ فَالْأَشَدِّ، فَافْتَتَحَ بِالْمُنَاصَحَةِ فِي السِّرِّ.، فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلُوا، ثَنَّى بِالْمُجَاهَرَةِ. فَلَمَّا لَمْ تُؤَثِّرْ، ثَلَّثَ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7

وَمَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾[1]: الدَّلَالَةُ عَلَى تَبَاعُدِ الْأَحْوَالِ، لِأَنَّ الْجِهَارَ أَغْلَظُ مِنَ الْإِسْرَارِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، أَغْلَظُ مِنْ إِفْرَادِ أَحَدِهِمَا.

وَ﴿جِهَارًا﴾[2] مَنْصُوبٌ بِدَعْوَتِهِمْ، نَصَبَ الْمَصْدَرَ، لِأَنَّ الدُّعَاءَ أَحَدُ نَوْعَيْهِ الْجِهَارُ، فَنُصِبَ بِهِ نَصْبَ الْقُرْفُصَاءِ بِقَعَدَ، لِكَوْنِهَا أَحَدَ أَنْوَاعِ الْقُعُودِ. أَوْ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِدَعْوَتِهِمْ جَاهِرَتَهُمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِمَصْدَرِ دَعَا، بِمَعْنَى دُعَاءً جِهَارًا، أَيْ: مُجَاهِرًا بِهِ. أَوْ مَصْدَرًا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: مُجَاهِرًا. أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي هُوَ التَّوْبَةُ عَنِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْمَوْعِدَ بِمَا هُوَ أَوْقَعُ فِي نُفُوسِهِمْ وَأَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَنَافِعِ الْحَاضِرَةِ وَالْفَوَائِدِ الْعَاجِلَةِ، تَرْغِيبًا فِي الْإِيمَانِ وَبَرَكَاتِهِ وَالطَّاعَةِ وَنَتَائِجِهَا مِنْ خَيْرِ الدَّارَيْنِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾[3]]الصَّفِّ: 13[، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾[4]]الْأَعْرَافِ: 96[، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[5]]الْمَائِدَةِ: 66[، ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ﴾[6]]الْجِنِّ: 166].

وَقِيلَ: لَمَّا كَذَّبُوهُ بَعْدَ طُولِ تَكْرِيرِ الدَّعْوَةِ: حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ نِسَائِهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَرُوِيَ: سَبْعِينَ. فَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ آمَنُوا رَزَقَهُمُ اللَّهُ –تَعَالَى– الْخِصْبَ وَدَفَعَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ.

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّهُ خَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَمَا زَادَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا رَأَيْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ! فَقَالَ: لَقَدِ اسْتَسْقَيْتُ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْقُطْرُ. شَبَّهَ الِاسْتِغْفَارَ بِالْأَنْوَاءِ الصَّادِقَةِ الَّتِي لَا تُخْطِئُ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَيْهِ الْجَدْبَ فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ الْفَقْرَ، وَآخَرُ قِلَّةَ النَّسْلِ، وَآخَرُ قِلَّةَ رَيْعِ أَرْضِهِ، فَأَمَرَهُمْ كُلَّهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ بْنُ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

صُبَيْحٍ: أَتَاكَ رِجَالٌ يَشْكُونَ أَبْوَابًا وَيَسْأَلُونَ أَنْوَاعًا، فَأَمَرْتَهُمْ كُلَّهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ! فَتَلَا لَهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَالسَّمَاءُ: الْمَظَلَّةُ، لِأَنَّ الْمَطَرَ مِنْهَا يَنْزِلُ إِلَى السَّحَابِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ السَّحَابُ أَوِ الْمَطَرُ، مِنْ قَوْلِهِ:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ.....

وَالْمِدْرَارُ: الْكَثِيرُ الدَّرُورِ، وَمِفْعَالٌ مِمَّا يَسْتَوِي فِيهِ الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، كَقَوْلِهِمْ: رَجُلٌ أَوِ امْرَأَةٌ مِعْطَارٌ وَمِتْفَالٌ.

﴿جَنَّاتٍ﴾[1]: بَسَاتِينَ.

﴿لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[2]: لَا تَأْمُلُونَ لَهُ تَوْقِيرًا أَيْ تَعْظِيمًا.

وَالْمَعْنَى: مَا لَكُمْ لَا تَكُونُونَ عَلَى حَالٍ تَأْمُلُونَ فِيهَا تَعْظِيمَ اللَّهِ إِيَّاكُمْ فِي دَارِ الثَّوَابِ.

وَ﴿لِلَّهِ﴾[3]: بَيَانٌ لِلْمُوَقَّرِ، وَلَوْ تَأَخَّرَ لَكَانَ صِلَةً لِلْوَقَارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[4] فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، كَأَنَّهُ قَالَ: مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْحَالُ هَذِهِ وَهِيَ حَالٌ مُوجِبَةٌ لِلْإِيمَانِ بِهِ، لِأَنَّهُ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَيْ تَارَاتٍ: خَلَقَكُمْ أَوَّلًا تُرَابًا، ثُمَّ خَلَقَكُمْ نُطَفًا، ثُمَّ خَلَقَكُمْ عَلَقًا، ثُمَّ خَلَقَكُمْ مُضَغًا، ثُمَّ خَلَقَكُمْ عِظَامًا وَلَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأَكُمْ خَلْقًا آخَرَ. أَوَلَا تَخَافُونَ لِلَّهِ حِلْمًا وَتَرْكَ مُعَاجَلَةِ الْعِقَابِ فَتُؤْمِنُوا؟ وَقِيلَ: مَا لَكُمْ لَا تَخَافُونَ لِلَّهِ عَظَمَةً؟

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تَخَافُونَ لِلَّهِ عَاقِبَةً، لِأَنَّ الْعَاقِبَةَ حَالُ اسْتِقْرَارِ الْأُمُورِ وَثَبَاتُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، مِنْ "وَقَرَ" إِذَا ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ.

نَبَّهَهُمْ عَلَى النَّظَرِ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوَّلًا، لِأَنَّهَا أَقْرَبُ مَنْظُورٍ فِيهِ مِنْهُمْ، ثُمَّ عَلَى النَّظَرِ فِي الْعَالَمِ وَمَا سُوِّيَ فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ الشَّاهِدَةِ عَلَى الصَّانِعِ الْبَاهِرِ قُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿فِيهِنَّ﴾[1]: فِي السَّمَوَاتِ، وَهُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ بَيْنَ السَّمَوَاتِ مُلَابَسَةً مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا طِبَاقٌ فَجَازَ أَنْ يُقَالَ: فِيهِنَّ كَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي جَمِيعِهِنَّ، كَمَا يُقَالُ: فِي الْمَدِينَةِ كَذَا، وَهُوَ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وُجُوهُهُمَا مِمَّا يَلِي السَّمَاءَ وَظُهُورُهُمَا مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[2] يُبْصِرُ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي ضَوْئِهَا كَمَا يُبْصِرُ أَهْلُ الْبَيْتِ فِي ضَوْءِ السِّرَاجِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى إِبْصَارِهِ، وَالْقَمَرُ لَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ نُورٌ لَمْ يَبْلُغْ قُوَّةَ ضِيَاءِ الشَّمْسِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾[3]]يُونُسَ: 55].

وَالضِّيَاءُ: أَقْوَى مِنَ النُّورِ. اسْتُعِيرَ الْإِنْبَاتُ لِلْإِنْشَاءِ، كَمَا يُقَالُ: زَرَعَكَ اللَّهُ لِلْخَيْرِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الِاسْتِعَارَةُ أَدَلَّ عَلَى الْحُدُوثِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا نَبَاتًا كَانُوا مُحْدَثِينَ لَا مَحَالَةَ حُدُوثَ النَّبَاتِ.

وَمِنْهُ قِيلَ لِلْحَشْوِيَّةِ: النَّابِتَةُ وَالنَّوَابِتُ، لِحُدُوثِ مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ أَوَّلِيَّةٍ لَهُمْ فِيهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نَجْمُ فُلَانٍ؛ لِبَعْضِ الْمَارِقَةِ. وَالْمَعْنَى: أَنْبَتَكُمْ فَنَبَتُّمْ نَبَاتًا. أَوْ نُصِبَ بِأَنْبَتَكُمْ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى نَبَتُّمْ.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾[4] مَقْبُورِينَ، ثُمَّ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾[5] يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَكَّدَهُ بِالْمَصْدَرِ كَأَنَّهُ قَالَ: يُخْرِجُكُمْ حَقًّا وَلَا مَحَالَةَ جَعَلَهَا بِسَاطًا مَبْسُوطَةً تَتَقَلَّبُونَ عَلَيْهَا، كَمَا يَتَقَلَّبُ الرَّجُلُ عَلَى بِسَاطِهِ.

﴿فِجَاجًا﴾[6]: وَاسِعَةً مُنْفَجَّةً.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾[1]

﴿وَاتَّبَعُوا﴾[2] رُؤُوسَهُمُ الْمُقَدَّمِينَ أَصْحَابَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَارْتَسَمُوا مَا رَسَمُوا لَهُمْ مِنَ التَّمَسُّكِ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَجَعْلِ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمُ الَّتِي لَمْ تَزِدْهُمْ إِلَّا وَجَاهَةً وَمَنْفَعَةً فِي الدُّنْيَا زَائِدَةً.

﴿خَسَارًا﴾[3] فِي الْآخِرَةِ، وَأَجْرَى ذَلِكَ مَجْرَى صِفَةٍ لَازِمَةٍ لَهُمْ وَسِمَةٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، تَحْقِيقًا لَهُ وَتَثْبِيتًا، وَإِبْطَالًا لِمَا سِوَاهُ.

وَقُرِئَ: "وَوُلْدُهُ" بِضَمِّ الْوَاوِ وَكَسْرِهَا.

﴿وَمَكَرُوا﴾[4] مَعْطُوفٌ عَلَى لَمْ يَزِدْهُ، وَجُمِعَ الضَّمِيرُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى مَنْ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ. وَالْمَاكِرُونَ: هُمُ الرُّؤَسَاءُ. وَمَكْرُهُمُ: احْتِيَالُهُمْ فِي الدِّينِ وَكَيْدُهُمْ لِنُوحٍ، وَتَحْرِيشُ النَّاسِ عَلَى أَذَاهُ، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْمَيْلِ إِلَيْهِ وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُمْ لَهُمْ: لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ نُوحٍ.

﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾[5] قُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ. وَالْكُبَّارُ كَبُرَ مِنَ الْكَبِيرِ وَالْكُبَّارُ أَكْبَرُ مِنَ الْكِبَارِ، وَنَحْوَهُ: طِوَالٌ وَطُوَّالٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾[1] كَأَنَّ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ كَانَتْ أَكْبَرَ أَصْنَامِهِمْ وَأَعْظَمَهَا عِنْدَهُمْ، فَخَصُّوهَا بَعْدَ قَوْلِهِمْ: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾[2]، وَقَدْ انْتَقَلَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ إِلَى الْعَرَبِ.

فَكَانَ وَدٌّ لِكَلْبٍ، وَسُوَاعٌ لِهَمَذَانَ، وَيَغُوثُ لِمُذْحِجٍ، وَيَعُوقُ لِمُرَادٍ، وَنَسْرٌ لِحِمْيَرَ، وَلِذَلِكَ سَمَّتِ الْعَرَبُ بِعَبْدِ وَدٍّ وَعَبْدِ يَغُوثَ.

وَقِيلَ: هِيَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ. وَقِيلَ: مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ مَاتُوا، فَقَالَ إِبْلِيسُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ: لَوْ صَوَّرْتُمْ صُوَرَهُمْ فَكُنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمَّا مَاتَ أُولَئِكَ قَالَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، فَعَبَدُوهُمْ.

وَقِيلَ: كَانَ وَدٌّ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ، وَسُوَاعٌ عَلَى صُورَةِ امْرَأَةٍ، وَيَغُوثُ عَلَى صُورَةِ أَسَدٍ، وَيَعُوقُ عَلَى صُورَةِ فَرَسٍ، وَنَسْرٌ عَلَى صُورَةِ نَسْرٍ. وَقُرِئَ: "وُدًّا" بِضَمِّ الْوَاوِ.

وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: وَلَا يَغُوثًا وَيَعُوقًا بِالصَّرْفِ، وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ مُشْكِلَةٌ؛ لِأَنَّهُمَا إِنْ كَانَا عَرَبِيَّيْنِ أَوْ عَجَمِيَّيْنِ فَفِيهِمَا سَبَبَا مَنْعِ الصَّرْفِ: إِمَّا التَّعْرِيفُ وَوَزْنُ الْفِعْلِ، وَإِمَّا التَّعْرِيفُ وَالْعُجْمَةُ.

وَلَعَلَّهُ قَصَدَ الِازْدِوَاجَ فَصَرَفَهُمَا، لِمُصَادَفَتِهِ أَخَوَاتِهِمَا مُنْصَرِفَاتٍ وَدًّا وَسُوَاعًا وَنَسْرًا، كَمَا قُرِئَ: "وَضُحَاهَا" بِالْإِمَالَةِ، لِوُقُوعِهِ مَعَ الْمُمَالَاتِ لِلِازْدِوَاجِ.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾[3] الضَّمِيرُ لِلرُّؤَسَاءِ. وَمَعْنَاهُ: وَقَدْ أَضَلُّوا، "كَثِيرًا" قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُوصَيْنَ بِأَنْ يَتَمَسَّكُوا بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ لَيْسُوا بِأَوَّلِ مَنْ أَضَلُّوهُمْ. أَوْ وَقَدْ أَضَلُّوا بِإِضْلَالِهِمْ كَثِيرًا، يَعْنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُضَلِّينَ فِيهِمْ كَثْرَةٌ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْأَصْنَامِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ]إِبْرَاهِيمَ: 36].

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ قَوْلَهُ: ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾[4]؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قُلْتُ: عَلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾[1] عَلَى حِكَايَةِ كَلَامِ نُوحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بَعْدَ: ﴿قَالَ﴾[2] وَبَعْدَ الْوَاوِ النَّائِبَةِ عَنْهُ.

وَمَعْنَاهُ: قَالَ: رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي، وَقَالَ: لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا، أَيْ: قَالَ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ وَهُمَا فِي مَحَلِّ النَّصْبِ، لِأَنَّهُمَا مَفْعُولَا ﴿قَالَ﴾[3]، كَقَوْلِكَ: قَالَ زَيْدٌ: نُودِيَ لِلصَّلَاةِ وَصَلِّ فِي الْمَسْجِدِ، تَحْكِي قَوْلَيْهِ مَعْطُوفًا أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يُرِيدَ لَهُمُ الضَّلَالَ وَيَدْعُوَ اللَّهَ بِزِيَادَتِهِ؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ بِالضَّلَالِ: أَنْ يُخْذَلُوا وَيُمْنَعُوا الْأَلْطَافَ، لِتَصْمِيمِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَوُقُوعِ الْيَأْسِ مِنْ إِيمَانِهِمْ، وَذَلِكَ حَسَنٌ جَمِيلٌ يَجُوزُ الدُّعَاءُ بِهِ، بَلْ لَا يَحْسُنُ الدُّعَاءُ بِخِلَافِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالضَّلَالِ: الضَّيَاعَ وَالْهَلَاكَ، لِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا﴾[4]]نُوحٍ: 28[.

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[5]

تَقْدِيمُ ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾[6] لِبَيَانِ أَنْ لَمْ يَكُنْ إِغْرَاقُهُمْ بِالطُّوفَانِ، فَإِدْخَالُهُمُ النَّارَ إِلَّا مِنْ أَجْلِ خَطِيئَاتِهِمْ، وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِزِيَادَةِ "مَا".

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾[7] بِتَأْخِيرِ الصِّلَةِ، وَكَفَى بِهَا مَزْجَرَةً لِمُرْتَكِبِ الْخَطَايَا. فَإِنَّ كُفْرَ قَوْمِ نُوحٍ كَانَ وَاحِدَةً مِنْ خَطِيئَاتِهِمْ؛ وَإِنْ كَانَتْ كُبْرَاهُنَّ، وَقَدْ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

نُعِيَتْ عَلَيْهِمْ سَائِرُ خَطِيئَاتِهِمْ كَمَا نُعِيَ عَلَيْهِمْ كُفْرُهُمْ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُنَّ فِي اسْتِيجَابِ الْعَذَابِ، لِئَلَّا يَتَّكِلَ الْمُسْلِمُ الْخَاطِئُ عَلَى إِسْلَامِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْعَذَابَ وَإِنْ خَلَا مِنَ الْخَطِيئَةِ الْكُبْرَى.

وَقُرِئَ: "خَطِيئَاتِهِمْ" بِالْهَمْزَةِ.

وَخَطِيَّاتِهِمْ بِقَلْبِهَا يَاءً وَإِدْغَامِهَا وَخَطَايَاهُمْ وَخَطِيئَتِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ عَلَى إِرَادَةِ الْجِنْسِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ الْكُفْرُ.

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾[1]: جَعَلَ دُخُولَهُمُ النَّارَ فِي الْآخِرَةِ كَأَنَّهُ مُتَعَقِّبٌ لِإِغْرَاقِهِمْ، لِاقْتِرَابِهِ، وَلِأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، فَكَأَنَّهُ قَدْ كَانَ. أَوْ أُرِيدُ عَذَابُ الْقَبْرِ.

وَمَنْ مَاتَ فِي مَاءٍ أَوْ فِي نَارٍ أَوْ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ وَالطَّيْرُ: أَصَابَهُ مَا يُصِيبُ الْمَقْبُورَ مِنَ الْعَذَابِ.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: كَانُوا يُغْرَقُونَ مِنْ جَانِبٍ وَيُحْرَقُونَ مِنْ جَانِبٍ.

وَتَنْكِيرُ النَّارِ إِمَّا لِتَعْظِيمِهَا، أَوْ لِأَنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لَهُمْ عَلَى حَسَبِ خَطِيئَاتِهِمْ نَوْعًا مِنَ النَّارِ.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾[2]: تَعْرِيضٌ بِاتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى نَصْرِهِمْ، وَتَهَكُّمٌ بِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَنْصُرُونَهُمْ وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾[3]]الْأَنْبِيَاءِ: 433].

﴿دَيَّارًا﴾[4] مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي النَّفْيِ الْعَامِّ، يُقَالُ: مَا بِالدَّارِ دَيَّارٌ وَدَيُّورٌ، كَقَيَّامٍ وَقَيُّومٍ، وَهُوَ فَيْعَالٌ مِنَ الدَّوْرِ. أَوْ مِنَ الدَّارِ، أَصْلُهُ دِيوَارٌ، فَفُعِلَ بِهِ مَا فُعِلَ بِأَصْلِ سَيِّدٍ وَمَيِّتٍ، وَلَوْ كَانَ فَعَّالًا لَكَانَ دَوَّارًا.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ عَلِمَ أَنَّ أَوْلَادَهُمْ يَكْفُرُونَ، وَكَيْفَ وَصَفَهُمْ بِالْكُفْرِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَذَاقَهُمْ وَأَكَلَهُمْ وَعَرَفَ طِبَاعَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَنْطَلِقُ بِابْنِهِ إِلَيْهِ، وَيَقُولُ: احْذَرْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، وَإِنَّ أَبِي حَذَّرَنِيهِ فَيَمُوتُ الْكَبِيرُ وَيَنْشَأُ الصَّغِيرُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ أَخْبَرَهُ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ.

وَمَعْنَى ﴿لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1]: لَا يَلِدُوا إِلَّا مَنْ سَيَفْجُرُ وَيَكْفُرُ. فَوَصَفَهُمْ بِمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ".

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾[2]

﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾[3] أَبُوهُ لَمَكُ بْنُ مُتَوَشْلِخَ، وَأُمُّهُ شَمْخَا بِنْتُ أَنُوشَ: كَانَا مُؤْمِنَيْنِ.

وَقِيلَ: هُمَا آدَمُ وَحَوَّاءُ. وَقَرَأَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ: وَلِوَلَدَيَّ، يُرِيدُ: سَامًا وَحَامًا.

﴿بَيْتِيَ﴾[4]: مَنْزِلِي.

وَقِيلَ: مَسْجِدِي. وَقِيلَ: سَفِينَتِي.

خَصَّ أَوَّلًا مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ، لِأَنَّهُمْ أَوْلَى وَأَحَقُّ بِدُعَائِهِ.

ثُمَّ عَمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿تَبَارًا﴾[5]: هَلَاكًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَعَلَ صِبْيَانُهُمْ حِينَ أُغْرِقُوا؟

قُلْتُ: غَرِقُوا مَعَهُمْ لَا عَلَى وَجْهِ الْعِقَابِ، وَلَكِنْ كَمَا يَمُوتُونَ بِالْأَنْوَاعِ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ، وَكَمْ مِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ بِالْغَرَقِ وَالْحَرْقِ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي عَذَابِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ إِذَا أَبْصَرُوا أَطْفَالَهُمْ يَغْرَقُونَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "يَهْلَكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: عَلِمَ اللَّهُ بَرَاءَتَهُمْ فَأَهْلَكَهُمْ بِغَيْرِ عَذَابٍ.

وَقِيلَ: أَعْقَمَ اللَّهُ أَرْحَامَ نِسَائِهِمْ وَأَيْبَسَ أَصْلَابَ آبَائِهِمْ قَبْلَ الطُّوفَانِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ صَبِيٌّ حِينَ أُغْرِقُوا.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ نُوحٍ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي تُدْرِكُهُمْ دَعْوَةُ نُوحٍ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–".

سورة [الأنفال]

سُورَةُ [الْجِنِّ]

مَكِّيَّةٌ،
وَآيَاتُهَا 28
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْأَعْرَافِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ -تَعَالَى- جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[1]

قُرِئَ "أُحِيَ" وَأَصْلُهُ وُحِيَ، يُقَالُ: أُوحِيَ إِلَيْهِ وَوُحِيَ إِلَيْهِ، فَقُلِبَتِ الْوَاوُ هَمْزَةً، كَمَا يُقَالُ: أَعِدْ وَأَزِنْ. ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾[2]]الْمُرْسَلَاتِ: 11].

وَهُوَ مِنَ الْقَلْبِ الْمُطْلَقِ جَوَازُهُ فِي كُلِّ وَاوٍ مَضْمُومَةٍ، وَقَدْ أَطْلَقَهُ الْمَازِنِيُّ فِي الْمَكْسُورَةِ أَيْضًا كَإِشَاحٍ وَإِسَادَةٍ، وَإِعَاءِ أَخِيهِ.

وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: "وُحِيَ" عَلَى الْأَصْلِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾[1] بِالْفَتْحِ، لِأَنَّهُ فَاعِلُ أُوحِيَ. وَإِنَّا سَمِعْنَا: بِالْكَسْرِ، لِأَنَّهُ مُبْتَدَأٌ مَحْكِيٌّ بَعْدَ الْقَوْلِ، ثُمَّ تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا الْبَوَاقِي، فَمَا كَانَ مِنَ الْوَحْيِ فُتِحَ، وَمَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْجِنِّ كَسِرَ: وَكُلُّهُنَّ مِنْ قَوْلِهِمْ إِلَّا الثِّنْتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾[2]]الْجِنِّ: 18[، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾]الْجِنِّ: 199].

وَمَنْ فَتَحَ كُلَّهُنَّ فَعَطْفًا عَلَى مَحَلِّ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي آمَنَّا بِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: صَدَّقْنَاهُ وَصَدَّقْنَا أَنَّهُ -تَعَالَى- جَدُّ رَبِّنَا، وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا، وَكَذَلِكَ الْبَوَاقِي ﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾[3] جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ.

وَقِيلَ: كَانُوا مِنَ الشَّيْصَبَانِ، وَهُمْ أَكْثَرُ الْجِنِّ عَدَدًا، وَعَامَّةُ جُنُودِ إِبْلِيسَ مِنْهُمْ.

﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾[4]، أَيْ: قَالُوا لِقَوْمِهِمْ حِينَ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾[5].

﴿عَجَبًا﴾[6] بَدِيعًا مُبَايِنًا لِسَائِرِ الْكُتُبِ فِي حُسْنِ نَظْمِهِ وَصِحَّةِ مَعَانِيهِ، قَائِمَةٌ فِيهِ دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ. وَعَجَبٌ مَصْدَرٌ يُوضَعُ مَوْضِعَ الْعَجِيبِ. وَفِيهِ مُبَالَغَةٌ، وَهُوَ مَا خَرَجَ عَنْ حَدِّ أَشْكَالِهِ وَنَظَائِرِهِ.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾[7]: يَدْعُو إِلَى الصَّوَابِ.

وَقِيلَ: إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿بِهِ﴾[8] لِلْقُرْآنِ، وَلَمَّا كَانَ الْإِيمَانُ بِهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَبِوَحْدَانِيَّتِهِ وَبَرَاءَةً مِنَ الشِّرْكِ: قَالُوا: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[9]، أَيْ: وَلَنْ نَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِهِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِرَبِّنَا﴾[1] يُفَسِّرُهُ ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾[2]: عَظَمَتُهُ مِنْ قَوْلِكَ: جَدَّ فُلَانٌ فِي عَيْنِي، أَيْ: عَظُمَ. وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِينَا.

وَرُوِيَ: فِي أَعْيُنِنَا، أَوْ مُلْكُهُ وَسُلْطَانُهُ أَوْ غِنَاهُ، اسْتِعَارَةً مِنَ الْجَدِّ الَّذِي هُوَ الدَّوْلَةُ وَالْبَخْتُ، لِأَنَّ الْمُلُوكَ وَالْأَغْنِيَاءَ هُمُ الْمَجْدُودُونَ، وَالْمَعْنَى: وَصَفَهُ بِالتَّعَالِي عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ لِعَظَمَتِهِ. أَوْ لِسُلْطَانِهِ وَمَلَكُوتِهِ أَوْ لِغِنَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾[3] بَيَانٌ لِذَلِكَ.

وَقُرِئَ جِدًّا رَبُّنَا عَلَى التَّمْيِيزِ وَجِدُّ رَبِّنَا، بِالْكَسْرِ، أَيْ صِدْقُ رُبُوبِيَّتُهُ وَحُقُّ إِلَهِيَّتُهُ عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَوُفِّقُوا لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ: تَنَبَّهُوا عَلَى الْخَطَأِ فِيمَا اعْتَقَدَهُ كَفَرَةُ الْجِنِّ مِنْ تَشْبِيهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ وَاتِّخَاذِهِ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، فَاسْتَعْظَمُوهُ وَنَزَّهُوهُ عَنْهُ.

سَفِيهُهُمْ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ مَرَدَةِ الْجِنِّ.

وَالشَّطَطُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الظُّلْمِ وَغَيْرِهِ.

وَمِنْهُ: أَشَطَّ فِي السَّوْمِ، إِذَا أَبْعَدَ فِيهِ، أَيْ: يَقُولُ قَوْلًا هُوَ فِي نَفْسِهِ شَطَطٌ، لِفَرْطِ مَا أَشَطَّ فِيهِ، وَهُوَ نِسْبَةُ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ، وَكَانَ فِي ظَنِّنَا أَنَّ أَحَدًا مِنَ الثَّقَلَيْنِ لَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَلَنْ يَفْتَرِيَ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ، فَكُنَّا نُصَدِّقُهُمْ فِيمَ أَضَافُوا إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى تَبَيَّنَ لَنَا بِالْقُرْآنِ كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ.

﴿كَذِبًا﴾[4]: قَوْلًا كَذِبًا، أَيْ: مَكْذُوبًا فِيهِ. أَوْ نُصِبَ الْمَصْدَرُ لِأَنَّ الْكَذِبَ نَوْعٌ مِنَ الْقَوْلِ.

وَمَنْ قَرَأَ: أَنْ لَنْ تَقُولَ: وَضَعَ كَذِبًا مَوْضِعَ تَقُولَا، وَلَمْ يَجْعَلْهُ صِفَةً، لِأَنَّ التَّقَوُّلَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذِبًا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾[1]

الرَّهَقُ: غَشِيَانُ الْمَحَارِمِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْإِنْسَ بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ زَادُوهُمْ كِبْرًا وَكُفْرًا. وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْعَرَبِ كَانَ إِذَا أَمْسَى فِي وَادٍ قَفْرٍ فِي بَعْضِ مَسَايِرِهِ وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ، قَالَ: أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سُفَهَاءَ قَوْمِهِ، يُرِيدُ الْجِنَّ وَكَبِيرَهُمْ. فَإِذَا سَمِعُوا بِذَلِكَ، اسْتَكْبَرُوا وَقَالُوا: سُدْنَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ؛ فَذَلِكَ رَهَقُهُمْ. أَوْ فَزَادَ الْجِنُّ الْإِنْسَ رَهَقًا بِإِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ لِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾[2]: وَأَنَّ الْإِنْسَ ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾[3]، وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ، يَقُولُهُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

وَقِيلَ: الْآيَتَانِ مِنْ جُمْلَةِ الْوَحْيِ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾[4] لِلْجِنِّ.

وَالْخِطَابُ فِي ﴿ظَنَنْتُمْ﴾[5] لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[6]

اللَّمْسُ: الْمَسُّ، فَاسْتُعِيرَ لِلطَّلَبِ، لِأَنَّ الْمَاسَّ طَالِبٌ مُتَعَرِّفٌ.

قَالَ:

مَسَسْنَا مِنَ الْآبَاءِ شَيْئًا وَكُلُّنَا إِلَى نَسَبٍ فِي قَوْمِهِ غَيْرِ وَاضِعِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

يُقَالُ: لَمَسَهُ وَالْتَمَسَهُ، وَتَلَمَّسَهُ "كَطَلَبَهُ وَأَطْلَبَهُ وَتَطَلَّبَهُ".

وَنَحْوَهُ: الْجَسُّ. فِي قَوْلِهِمْ، جَسُّوهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَتَجَسَّسُوهُ

. وَالْمَعْنَى: طَلَبْنَا بُلُوغَ السَّمَاءِ وَاسْتِمَاعَ كَلَامِ أَهْلِهَا.

وَالْحَرَسُ: اسْمٌ مُفْرَدٌ فِي مَعْنَى الْحُرَّاسِ، كَالْخَدَمِ فِي مَعْنَى الْخُدَّامِ، وَلِذَلِكَ وُصِفَ بِشَدِيدٍ.

وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَاهُ لَقِيلَ: شِدَادًا، وَنَحْوَهُ:

أَخْشَى رُجَيْلًا أَوْ رُكَيْبًا غَادِيَـــــا

لِأَنَّ الرَّجُلَ وَالرَّكْبَ مُفْرَدَانِ فِي مَعْنَى الرِّجَالِ وَالرِّكَابِ.

وَالرَّصَدُ: مِثْلَ الْحَرَسِ: اسْمُ جَمْعٍ لِلرَّاصِدِ، عَلَى مَعْنَى: ذَوِي شِهَابٍ رَاصِدِينَ بِالرَّجْمِ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَرْجُمُونَهُمْ بِالشُّهُبِ، وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنَ الِاسْتِمَاعِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِلشِّهَابِ. بِمَعْنَى الرَّاصِدِ أَوْ كَقَوْلِهِ:

.....وَمِعًى جِيَاعَا

يَعْنِي يَجِدُ شِهَابًا رَاصِدًا لَهُ وَلِأَجْلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَأَنَّ الرَّجْمَ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[1]]الْمُلْكِ: 55]. فَذَكَرَ فَائِدَتَيْنِ فِي خَلْقِ الْكَوَاكِبِ: التَّزْيِينَ، وَرَجْمَ الشَّيَاطِينِ؟

قُلْتُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: حَدَثَ بَعْدَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَهُوَ إِحْدَى آيَاتِهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْمَبْعَثِ، وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُهُ فِي شِعْرِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

قَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ:

وَالْعَيْرُ يُرْهِقُهَا الْغُبَارُ وَجَحْشُهَا يَنْقَضُّ خَلْفَهُمَا انْقِضَاضَ الْكَوْكَـــبِ

وَقَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ:

وَانْقَضَّ كَالدُّرِّيِّ يَتْبَعُـــــــهُ نَقْعٌ يَثُورُ تَخَالُهُ طُنُبَـــــــــــــا

وَقَالَ عَوْفُ بْنُ الْخَرْعِ:

يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعِبَرَ مِنْ دُونِ إِلْفــهِ أَوِ الثَّوْرَ كَالدُّرِّيِّ يَتْبَعُهُ الـــــــدَّمُ

[1] سورة ، الآية .

وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَانَتْ تَسْتَرِقُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: كَثُرَ الرَّجْمُ وَزَادَ زِيَادَةً ظَاهِرَةً، حَتَّى تَنَبَّهَ لَهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَمُنِعَ الِاسْتِرَاقُ أَصْلًا.

وَعَنْ مَعْمَرٍ: قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِالنُّجُومِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قُلْتُ: أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾[1]؟ فَقَالَ: غَلُظَتْ وَشُدِّدَ أَمْرُهَا حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جَالِسٌ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي مِثْلِ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: يَمُوتُ عَظِيمٌ أَوْ يُولَدُ عَظِيمٌ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مُلِئَتْ﴾[2] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَادِثَ هُوَ الْمَلُّ وَالْكَثْرَةُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾[3]، أَيْ: كُنَّا نَجِدُ فِيهَا بَعْضَ الْمَقَاعِدِ خَالِيَةً مِنَ الْحَرَسِ وَالشُّهُبِ، وَالْآنَ مُلِئَتِ الْمَقَاعِدُ كُلُّهَا.

وَهَذَا ذِكْرُ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى الضَّرْبِ فِي الْبِلَادِ حَتَّى عَثَرُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَاسْتَمَعُوا قِرَاءَتَهُ.

﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[4]

يَقُولُونَ: لَمَّا حَدَثَ هَذَا الْحَادِثُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّجْمِ وَمَنْعِ الِاسْتِرَاقِ.

قُلْنَا: مَا هَذَا إِلَّا لِأَمْرٍ أَرَادَهُ اللَّهُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ؛ وَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ شَرًّا أَوْ رَشَدًا، أَيْ: خَيْرًا، مِنْ عَذَابٍ أَوْ رَحْمَةٍ، أَوْ مِنْ خِذْلَانٍ أَوْ تَوْفِيقٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾[1]

﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾[2]: مِنَّا الْأَبْرَارُ الْمُتَّقُونَ، ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾[3]: وَمِنَّا قَوْمٌ دُونَ ذَلِكَ، فَحَذَفَ الْمَوْصُوفَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[4]]الصَّافَّاتِ: 164].

وَهُمُ الْمُقْتَصِدُونَ فِي الصَّلَاحِ غَيْرُ الْكَامِلِينَ فِيهِ أَوْ أَرَادُوا الطَّالِحِينَ.

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾[5]: بَيَانٌ لِلْقِسْمَةِ الْمَذْكُورَةِ، أَيْ: كُنَّا ذَوِي مَذَاهِبَ مُفْتَرِقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ.

أَوْ كُنَّا فِي اخْتِلَافِ أَحْوَالِنَا مِثْلَ الطَّرَائِقِ الْمُخْتَلِفَةِ.

أَوْ كُنَّا فِي طَرَائِقَ مُخْتَلِفَةٍ، كَقَوْلِهِ:

..... كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ

أَوْ كَانَتْ طَرَائِقُنَا طَرَائِقَ قِدَدًا عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ الَّذِي هُوَ الطَّرَائِقُ وَإِقَامَةِ الضَّمِيرِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، وَالْقِدَّةُ مِنْ قَدَّ، كَالْقِطْعَةِ مِنْ قَطَعَ، وَوُصِفَتِ الطَّرَائِقُ بِالْقِدَدِ؛ لِدَلَالَتِهَا عَلَى مَعْنَى التَّقَطُّعِ وَالتَّفَرُّقِ.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿فِي الأَرْضِ﴾[1] وَ﴿هَرَبًا﴾[2] حَالَانِ، أَيْ: لَنْ نُعْجِزَهُ كَائِنِينَ فِي الْأَرْضِ أَيْنَمَا كُنَّا فِيهَا، وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَارِبِينَ مِنْهَا إِلَى السَّمَاءِ.

وَقِيلَ: لَنْ نُعْجِزَهُ فِي الْأَرْضِ إِنْ أَرَادَ بِنَا أَمْرًا، وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا إِنْ طَلَبَنَا.

وَالظَّنُّ بِمَعْنَى الْيَقِينِ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَحْوَالِ الْجِنِّ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ: مِنْهُمْ أَخْيَارٌ، وَأَشْرَارٌ، وَمُقْتَصِدُونَ، وَأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– عَزِيزٌ غَالِبٌ لَا يَفُوتُهُ مَطْلَبٌ وَلَا يُنْجِي عَنْهُ مَهْرَبٌ.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾[3]

﴿لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾[4] هُوَ سَمَاعُهُمُ الْقُرْآنَ وَإِيمَانُهُمْ بِهِ.

﴿فَلا يَخَافُ﴾[5]: فَهُوَ لَا يَخَافُ، أَيْ فَهُوَ غَيْرُ خَائِفٍ، وَلِأَنَّ الْكَلَامَ فِي تَقْدِيرِ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ دَخَلَتِ الْفَاءُ، وَلَوْلَا ذَاكَ لَقِيلَ: لَا يَخَفْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي رَفْعِ الْفِعْلِ وَتَقْدِيرِ مُبْتَدَأٍ قَبْلَهُ حَتَّى يَقَعَ خَبَرًا لَهُ وَوُجُوبِ إِدْخَالِ الْفَاءِ، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مُسْتَغْنًى عَنْهُ بِأَنْ يُقَالَ: لَا يَخَفْ؟

قُلْتُ: الْفَائِدَةُ فِيهِ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فَهُوَ لَا يَخَافُ، فَكَانَ دَالًّا عَلَى تَحْقِيقِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ نَاجٍ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ.

وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : فَلَا يَخَفْ، عَلَى النَّهْيِ.

﴿بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾[6]، أَيْ: جَزَاءَ بَخْسٍ وَلَا رَهَقٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يَبْخَسْ أَحَدًا حَقًّا وَلَا رَهِقَ ظُلْمَ أَحَدٍ فَلَا يَخَافُ جَزَاءَهُمَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مِنْ حَقِّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْمَظَالِمَ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ".

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: فَلَا يَخَافُ أَنْ يُبْخَسَ بَلْ يُجْزَى الْجَزَاءَ الْأَوْفَى، وَلَا أَنْ تَرْهَقَهُ ذِلَّةٌ، مِنْ قَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[1]]الْقَلَمْ: 43[.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[2]

﴿الْقَاسِطُونَ﴾[3]: الْكَافِرُونَ الْجَائِرُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لَهُ حِينَ أَرَادَ قَتْلَهُ: مَا تَقُولُ فِيَّ؟ قَالَ: قَاسِطٌ عَادِلٌ، فَقَالَ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ؛ حَسِبُوا أَنَّهُ يَصِفُهُ بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: يَا جَهَلَةُ، إِنَّهُ سَمَّانِي ظَالِمًا مُشْرِكًا، وَتَلَا لَهُمْ قَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾[4]، وَقَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[5]]الْأَنْعَامِ: 11[.

وَقَدْ زَعَمَ مَنْ لَا يَرَى لِلْجِنِّ ثَوَابًا أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– أَوْعَدَ قَاسِطِيهِمْ وَمَا وَعَدَ مُسْلِمِيهِمْ، وَكَفَى بِهِ وَعْدًا أَنْ قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾[6]، فَذَكَرَ سَبَبَ الثَّوَابِ وَمُوجِبَهُ، وَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُعَاقِبَ الْقَاسِطَ وَلَا يُثِيبَ الرَّاشِدَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[1]

أَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُوحَى. وَالْمَعْنَى: وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ لَوِ اسْتَقَامَ الْجِنُّ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى، أَيْ: لَوْ ثَبَتَ أَبُوهُمُ الْجَانُّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَالطَّاعَةِ وَلَمْ يَسْتَكْبِرْ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ، وَلَمْ يَكْفُرْ، وَتَبِعَهُ وَلَدُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، لَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَلَوَسَّعْنَا رِزْقَهُمْ.

وَذِكْرُ الْمَاءِ الْغَدَقِ، وَهُوَ الْكَثِيرُ بِفَتْحِ الدَّالِ وَكَسْرِهَا.

وَقُرِئَ بِهِمَا، لِأَنَّهُ أَصْلُ الْمَعَاشِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[2]: لِنَخْتَبِرَهُمْ فِيهِ كَيْفَ يَشْكُرُونَ مَا خُوِّلُوا مِنْهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامَ الْجِنُّ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ الِاسْتِمَاعِ وَلَمْ يَنْتَقِلُوا عَنْهَا إِلَى الْإِسْلَامِ لَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ مُسْتَدْرِجِينَ لَهُمْ، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ: لِتَكُونَ النِّعْمَةُ سَبَبًا فِي اتِّبَاعِهِمْ شَهَوَاتِهِمْ، وَوُقُوعِهِمْ فِي الْفِتْنَةِ، وَازْدِيَادِهِمْ إِثْمًا، أَوْ لِنُعَذِّبَهُمْ فِي كُفْرَانِ النِّعْمَةِ.

﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾[3]: عَنْ عِبَادَتِهِ أَوْ عَنْ مَوْعِظَتِهِ أَوْ عَنْ وَحْيِهِ.

﴿يَسْلُكْهُ﴾[4] وَقُرِئَ بِالنُّونِ مَضْمُومَةً وَمَفْتُوحَةً، أَيْ: نُدْخِلُهُ عَذَابًا وَالْأَصْلُ: نَسْلُكُهُ فِي عَذَابٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[5]]الْمُدَّثِّرِ: 422]. فَعُدِّيَ إِلَى مَفْعُولَيْنِ: إِمَّا بِحَذْفِ الْجَارِّ وَإِيصَالِ الْفِعْلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[6]]الْأَعْرَافِ: 155]. وَإِمَّا بِتَضْمِينِهِ مَعْنَى ﴿نُدْخِلُهُ﴾[7]، يُقَالُ: سَلَكَهُ وَأَسْلَكَهُ.

قَالَ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَتَائِدَةٍ.....

وَالصَّعَدُ: مَصْدَرُ صَعِدَ، يُقَالُ: صَعِدَ صَعَدًا وَصُعُودًا، فَوَصَفَ بِهِ الْعَذَابَ، لِأَنَّهُ يَتَصَعَّدُ الْمُعَذَّبَ؛ أَيْ يَعْلُوهُ وَيَغْلِبُهُ فَلَا يُطِيقُهُ.

وَمِنْهُ قَوْلُ عَمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: مَا تَصَعَّدَنِي شَيْءٌ مَا تَصَعَّدَتْنِي خُطْبَةُ النِّكَاحِ، يُرِيدُ: مَا شَقَّ عَلَيَّ وَلَا غَلَبَنِي.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[1]

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾[2] مِنْ جُمْلَةِ الْمُوحَى. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَلِأَنَّ الْمَسَاجِدَ ﴿لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا﴾[3]، عَلَى أَنَّ اللَّامَ مُتَعَلِّقَةٌ بِلَا تَدْعُوا، أَيْ: فَلَا تَدْعُوا ﴿مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[4] فِي الْمَسَاجِدِ، لِأَنَّهَا لِلَّهِ خَاصَّةً وَلِعِبَادَتِهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: يَعْنِي الْأَرْضَ كُلَّهَا، لِأَنَّهَا جُعِلَتْ لِلنَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَسْجِدًا.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ؛ لِأَنَّهُ قِبْلَةُ الْمَسَاجِدِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[5]]الْبَقَرَةِ: 114].

وَعَنْ قَتَادَةَ: كَانَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا بِيَعَهُمْ وَكَنَائِسَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، فَأُمِرْنَا أَنْ نُخْلِصَ لِلَّهِ الدَّعْوَةَ إِذَا دَخَلْنَا الْمَسَاجِدَ.

وَقِيلَ: الْمَسَاجِدُ أَعْضَاءُ السُّجُودِ السَّبْعَةُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ آرَابٍ: وَهِيَ الْجَبْهَةُ، وَالْأَنْفُ، وَالْيَدَانِ، وَالرُّكْبَتَانِ، وَالْقَدَمَانِ".

وَقِيلَ: هِيَ جَمْعُ مَسْجِدٍ وَهُوَ السُّجُودُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[1]

﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾[2]: النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: رَسُولُ اللَّهِ أَوِ النَّبِيِّ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ تَقْدِيرَهُ: وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَ وَاقِعًا فِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنْ نَفْسِهِ: جِيءَ بِهِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ التَّوَاضُعُ وَالتَّذَلُّلُ أَوْ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ عِبَادَةَ عَبْدِ اللَّهِ لِلَّهِ لَيْسَتْ بِأَمْرٍ مُسْتَبْعَدٍ عَنِ الْعَقْلِ وَلَا مُسْتَنْكَرٍ، حَتَّى يَكُونُوا عَلَيْهِ لِبَدًا.

وَمَعْنَى "قَامَ يَدْعُوهُ": قَامَ يَعْبُدُهُ، يُرِيدُ: قِيَامَهُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ بِنَخْلَةٍ حِينَ أَتَاهُ الْجِنُّ فَاسْتَمَعُوا لِقِرَاءَتِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[3]، أَيْ: يَزْدَحِمُونَ عَلَيْهِ مُتَرَاكِمِينَ تَعَجُّبًا مِمَّا رَأَوْا مِنْ عِبَادَتِهِ وَاقْتِدَاءِ أَصْحَابِهِ بِهِ قَائِمًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا، وَإِعْجَابًا بِمَا تَلَا مِنَ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا مَا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ، وَسَمِعُوا بِمَا لَمْ يَسْمَعُوا بِنَظِيرِهِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَمَّا قَامَ رَسُولًا يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخَالِفًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْآلِهَةَ مِنْ دُونِهِ: كَادَ الْمُشْرِكُونَ لِتَظَاهُرِهِمْ عَلَيْهِ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى عَدَاوَتِهِ يَزْدَحِمُونَ عَلَيْهِ مُتَرَاكِمِينَ.

﴿لِبَدًا﴾[4]: جَمْعُ لُبْدَةٍ وَهُوَ مَا تَلَبَّدَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهَا "لُبْدَةُ الْأَسَدِ."

وَقُرِئَ "لُبَدًا" وَاللُّبْدَةُ فِي مَعْنَى اللُّبْدَةِ، وَلُبَّدًا: جَمْعُ لَابِدٍ، كَسَاجِدٍ وَسُجَّدٍ وَلُبُدًا بِضَمَّتَيْنِ: جَمْعُ لُبُودٍ، كَصَبُورٍ وَصُبُرٍ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ.

وَمَنْ قَرَأَ: "وَإِنَّهُ" بِالْكَسْرِ: جَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ: قَالُوهُ لِقَوْمِهِمْ حِينَ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ حَاكِينَ مَا رَأَوْا مِنْ صِلَاتِهِ وَازْدِحَامِ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ فِي ائْتِمَامِهِمْ بِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[1]

"قَالَ" لِلْمُتَظَاهِرِينَ عَلَيْهِ ﴿إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾[2]، يُرِيدُ: مَا أَتَيْتُكُمْ بِأَمْرٍ مُنْكَرٍ، إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ.

﴿وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾[3]: وَلَيْسَ ذَاكَ مِمَّا يُوجِبُ إِطْبَاقَكُمْ عَلَى مَقْتِي وَعَدَاوَتِي.

أَوْ قَالَ لِلْجِنِّ عِنْدَ ازْدِحَامِهِمْ مُتَعَجِّبِينَ: لَيْسَ مَا تَرَوْنَ مِنْ عِبَادَتِي اللَّهَ وَرَفْضِي الْإِشْرَاكَ بِهِ بِأَمْرٍ يُتَعَجَّبُ مِنْهُ؛ إِنَّمَا يُتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ، وَيَجْعَلُ لَهُ شَرِيكًا.

أَوْ قَالَ الْجِنُّ لِقَوْمِهِمْ ذَلِكَ حِكَايَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

﴿وَلا رَشَدًا﴾[4]: وَلَا نَفْعًا. أَوْ أَرَادَ بِالضُّرِّ: الْغَيُّ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أُبَيٍّ: "غَيًّا وَلَا رَشَدًا".

وَالْمَعْنَى: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَضُرَّكُمْ وَأَنْ أَنْفَعَكُمْ، إِنَّمَا الضَّارُّ وَالنَّافِعُ اللَّهُ. أَوْ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُقْسِرَكُمْ عَلَى الْغَيِّ وَالرَّشَدِ، إِنَّمَا الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: وَ﴿إِلا بَلاغًا﴾[5]: اسْتِثْنَاءٌ مِنْهُ، أَيْ لَا أَمْلِكُ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي﴾[1] جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ اعْتُرِضَ بِهَا لِتَأْكِيدِ نَفْيِ الِاسْتِطَاعَةِ عَنْ نَفْسِهِ وَبَيَانِ عَجْزِهِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّ اللَّهَ إِنْ أَرَادَ بِهِ سُوءًا مِنْ مَرَضٍ أَوْ مَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِمَا: لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُجِيرَهُ مِنْهُ أَحَدٌ أَوْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلَاذًا يَأْوِي إِلَيْهِ: وَالْمُلْتَحَدُ الْمُلْتَجَأُ، وَأَصْلُهُ الْمَدْخَلُ، مِنَ اللَّحْدِ.

وَقِيلَ: مَحِيصًا وَمَعْدِلًا.

وَقُرِئَ: "قَالَ لَا أَمْلِكُ" أَيْ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ أَوْ لِلْجِنِّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ حِكَايَةِ الْجِنِّ لِقَوْمِهِمْ.

وَقِيلَ: "بَلَاغًا" بَدَلًا مِنْ ﴿مُلْتَحَدًا﴾[2]، أَيْ: لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مَنْجًى إِلَّا أَنْ أُبَلِّغَ عَنْهُ مَا أَرْسَلَنِي بِهِ.

وَقِيلَ: ﴿إِلاَّ﴾[3] هِيَ "إِنْ لَا" وَمَعْنَاهُ: إِنْ لَا أُبَلِّغْ بَلَاغًا كَقَوْلِكَ: إِنْ لَا قِيَامًا فَقُعُودًا.

﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾[4] عُطِفَ عَلَى بَلَاغًا، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ إِلَّا التَّبْلِيغَ وَالرِّسَالَاتِ.

وَالْمَعْنَى: إِلَّا أَنْ أُبَلِّغَ عَنِ اللَّهِ فَأَقُولَ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، نَاسِبًا لِقَوْلِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَاتِهِ الَّتِي أَرْسَلَنِي بِهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَا يُقَالُ: بَلَّغَ عَنْهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "بَلِّغُوا عَنِّي بَلِّغُوا عَنِّي"؟

قُلْتُ: مِنْ لَيْسَتْ بِصِلَةٍ لِلتَّبْلِيغِ، إِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ مِنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾[5]]التَّوْبَةِ: 11]. بِمَعْنَى بَلَاغًا كَائِنًا مِنَ اللَّهِ.

وَقُرِئَ: "فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ" عَلَى: فَجَزَاؤُهُ أَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[6]]الْأَنْفَالِ: 41]، أَيْ: فَحُكْمُهُ أَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ.

وَقَالَ: ﴿خَالِدِينَ﴾[7] حَمْلًا عَلَى مَعْنَى الْجَمْعِ فِي مَنْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَ "حَتَّى"، وَجُعِلَ مَا بَعْدَهُ غَايَةً لَهُ؟

قُلْتُ: بِقَوْلِهِ: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[1]]الْجِنِّ: 199]. عَلَى أَنَّهُمْ يَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِ بِالْعَدَاوَةِ، وَيَسْتَضْعِفُونَ أَنْصَارَهُ وَيَسْتَقِلُّونَ عَدَدَهُمْ.

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾[2] مِنْ يَوْمِ بَدْرٍ وَإِظْهَارِ اللَّهِ لَهُ عَلَيْهِمْ. أَوْ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾[3] حِينَئِذٍ أَنَّهُمْ ﴿أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾[4].

وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَحْذُوفٍ دَلَّتْ عَلَيْهِ الْحَالُ: مِنَ اسْتِضْعَافِ الْكُفَّارِ لَهُ وَاسْتِقْلَالِهِمْ لِعَدَدِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا يَزَالُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾[5]: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: مَتَى يَكُونُ هَذَا الْمَوْعُودُ؟ إِنْكَارًا لَهُ؛ فَقِيلَ: ﴿قُلْ﴾[6] إِنَّهُ كَائِنٌ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَلَا تُنْكِرُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

وَأَمَّا وَقْتُهُ، فَمَا أَدْرِي مَتَى يَكُونُ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُبَيِّنْهُ لِمَا رَأَى فِي إِخْفَاءِ وَقْتِهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾[7]، وَالْأَمَدُ يَكُونُ قَرِيبًا وَبَعِيدًا؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[8]]آلِ عِمْرَانَ: 300]؟!

قُلْتُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَسْتَقْرِبُ الْمَوْعِدَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: مَا أَدْرِي أَهُوَ حَالٌ مُتَوَقَّعٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ أَمْ مُؤَجَّلٌ ضُرِبَتْ لَهُ غَايَةٌ. أَيْ: هُوَ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ﴾[9]، فَلَا يَطَّلِعُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

و﴿مِنْ رَسُولٍ﴾[1] تَبْيِينٌ لِمَنِ ارْتَضَى، يَعْنِي: أَنَّهُ لَا يَطَّلِعُ عَلَى الْغَيْبِ إِلَّا الْمُرْتَضَى الَّذِي هُوَ مُصْطَفًى لِلنُّبُوَّةِ خَاصَّةً، لَا كُلُّ مُرْتَضًى. وَفِي هَذَا إِبْطَالٌ لِلْكَرَامَاتِ، لِأَنَّ الَّذِينَ تُضَافُ إِلَيْهِمْ وَإِنْ كَانُوا أَوْلِيَاءَ مُرْتَضِينَ، فَلَيْسُوا بِرُسُلٍ. وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ الرُّسُلَ مِنْ بَيْنِ الْمُرْتَضِينَ بِالِاطِّلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ وَإِبْطَالِ الْكِهَانَةِ وَالتَّنْجِيمِ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَهُمَا أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنَ الِارْتِضَاءِ وَأَدْخَلُهُ فِي السُّخْطِ.

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾[2]: يَدَيْ مِنِ ارْتَضَى لِلرِّسَالَةِ.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[3]: حَفَظَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَطْرُدُونَهُمْ عَنْهُ وَيَعْصِمُونَهُ مِنْ وَسَاوِسِهِمْ وَتَخَالِيطِهِمْ، حَتَّى يُبَلِّغَ مَا أُوحِيَ بِهِ إِلَيْهِ.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَائِكَةٌ يَحْرُسُونَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِصُورَةِ الْمَلَكِ.

﴿لِيَعْلَمَ﴾[4] اللَّهُ ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾[5]، يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ: وَحَّدَ أَوَّلًا عَلَى اللَّفْظِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾[6]؛ ثُمَّ جَمَعَ عَلَى الْمَعْنَى، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾[7]]الْجِنِّ: 233].

وَالْمَعْنَى: لِيُبَلِّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ كَمَا هِيَ، مَحْرُوسَةً مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَذِكْرُ الْعِلْمِ كَذِكْرِهِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾[8]]مُحَمَّدٍ: 31].

وَقُرِئَ: "لِيُعْلَمُ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾[9] بِمَا عِنْدَ الرُّسُلِ مِنَ الْحِكَمِ وَالشَّرَائِعِ، لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ وَلَا يَنْسَى مِنْهَا حَرْفًا، فَهُوَ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا حَافِظٌ لَهَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[1] مِنَ الْقَطْرِ وَالرَّمْلِ وَوَرَقِ الْأَشْجَارِ، وَزَبَدِ الْبِحَارِ، فَكَيْفَ لَا يُحِيطُ بِمَا عِنْدَ الرُّسُلِ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ؟!

وَ﴿عَدَدًا﴾[2]: حَالٌ، أَيْ: وَضَبَطَ كُلَّ شَيْءٍ مَعْدُودًا مَحْصُورًا. أَوْ مَصْدَرٌ فِي مَعْنَى "إِحْصَاءً".

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْجِنِّ كَانَ لَهُ بِعَدَدِ كُلِّ جِنٍّ صَدَّقَ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَذَّبَ بِهِ عِتْقُ رَقَبَةٍ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

سورة المزمل

سورة المزمل

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ 10 وَ 11 وَ 20 فَمَدَنِيَّةٌ]
وَآيَاتُهَا 19 وَقِيلَ: 20
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْقَلَمِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[1]

﴿الْمُزَّمِّلُ﴾[2]: الْمُتَزَمِّلُ، وَهُوَ الَّذِي تَزَمَّلَ فِي ثِيَابِهِ: أَيْ تَلَفَّفَ بِهَا، بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الزَّايِ: وَنَحْوَهُ: الْمُدَّثِّرُ فِي الْمُتَدَثِّرِ.

وَقُرِئَ "الْمُتَزَمِّلُ" عَلَى الْأَصْلِ: وَالْمُزَمِّلُ بِتَخْفِيفِ الزَّايِ وَفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا. عَلَى أَنَّهُ اسْمُ فَاعِلٍ أَوْ مَفْعُولٍ، مِنْ زَمَّلَهُ، وَهُوَ الَّذِي زَمَّلَهُ غَيْرُهُ أَوْ زَمَّلَ نَفْسَهُ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَائِمًا بِاللَّيْلِ مُتَزَمِّلًا فِي قَطِيفَةٍ، فَنُبِّهَ وَنُودِيَ بِمَا يُهَجِّنُ إِلَيْهِ الْحَالَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا مِنَ التَّزَمُّلِ فِي قَطِيفَتِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ لِلِاسْتِثْقَالِ فِي النَّوْمِ، كَمَا يَفْعَلُ مَنْ لَا يُهِمُّهُ أَمْرٌ وَلَا يَعْنِيهِ شَأْنٌ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ:

وَكَائِنٍ تَخَطَّتْ نَاقَتِي مِنْ مَفَازَةٍ وَمِنْ نَائِمٍ عَنْ لَيْلِهَا مُتَزَمِّلِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

يُرِيدُ: الْكَسْلَانَ الْمُتَقَاعِسَ الَّذِي لَا يَنْهَضُ فِي مَعَاظِمِ الْأُمُورِ وَكِفَايَاتِ الْخُطُوبِ، وَلَا يُحَمِّلُ نَفْسَهُ الْمَشَاقَّ وَالْمَتَاعِبَ، وَنَحْوَهُ:

فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الْفُؤَادِ مُبَطَّنًا سُهُدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهَوْجَلِ

وَفِي أَمْثَالِهِمْ:

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ مَا هَكَذَا تُورَدُ يَا سَعْدُ الْإِبِلْ

فَذَمَّهُ بِالِاشْتِمَالِ بِكِسَائِهِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ خِلَافَ الْجَلَدِ وَالْكَيْسِ، وَأَمَرَ بِأَنْ يَخْتَارَ عَلَى الْهُجُودِ التَّهَجُّدَ، وَعَلَى التَّزَمُّلِ التَّشَمُّرَ، وَالتَّخَفُّفَ لِلْعِبَادَةِ وَالْمُجَاهَدَةَ فِي اللَّهِ؛ لَا جَرَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَدْ تَشَمَّرَ لِذَلِكَ مَعَ أَصْحَابِهِ حَقَّ التَّشَمُّرِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى إِحْيَاءِ لَيَالِيهِمْ، وَرَفَضُوا لَهُ الرُّقَادَ وَالدَّعَةَ، وَتَجَاهَدُوا فِيهِ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ وَاصْفَرَّتْ أَلْوَانُهُمْ، وَظَهَرَتِ السِّيمَى فِي وُجُوهِهِمْ وَتَرَامَى أَمْرُهُمْ إِلَى حَدٍّ رَحِمِهِمْ لَهُ رَبُّهُمْ. فَخَفَّفَ عَنْهُمْ.

وَقِيلَ: كَانَ مُتَزَمِّلًا فِي مِرْطٍ لِعَائِشَةَ يُصَلِّي، فَهُوَ عَلَى هَذَا لَيْسَ بِتَهْجِينٍ، بَلْ هُوَ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ وَتَحْسِينٌ لِحَالِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، وَأَمْرٌ بِأَنْ يَدُومَ عَلَى ذَلِكَ وَيُوَاظِبَ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: أَنَّهَا سُئِلَتْ مَا كَانَ تَزْمِيلُهُ؟ قَالَتْ: كَانَ مِرْطًا طُولُهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا نِصْفُهُ عَلَيَّ وَأَنَا نَائِمَةٌ وَنِصْفُهُ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَسُئِلَتْ: مَا كَانَ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا كَانَ خَزًّا وَلَا قَزًّا وَلَا مِرْعِزًّى وَلَا إِبْرِيسَمًا وَلَا صُوفًا: كَانَ سُدَاهُ شَعْرًا وَلُحْمَتُهُ وَبَرًا.

وَقِيلَ: دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، وَقَدْ جِئْتُ فِرَقًا أَوَّلَ مَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَبَوَادِرُهُ تَرْعِدُ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، وَحَسَبَ أَنَّهُ عُرِضَ لَهُ، فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَادَاهُ جِبْرِيلُ: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: أَنَّ الْمَعْنَى: يَا أَيُّهَا الَّذِي زُمِّلَ أَمْرًا عَظِيمًا، أَيْ: حُمِّلَهُ، وَالزَّمْلُ: الْحَمْلُ. وَازْدَمَلَهُ: احْتَمَلَهُ.

وَقُرِئَ: "قُمُ اللَّيْلَ" بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا.

قَالَ عُثْمَانُ بْنُ جَنَى: الْغَرَضُ بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ التَّبَلُّغُ بِهَا هَرَبًا مِنَ الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، فَبِأَيِّ الْحَرَكَاتِ تَحَرَّكَ، فَقَدْ وَقَعَ الْغَرَضُ ﴿نِصْفَهُ﴾[1] بَدَلٌ مِنَ اللَّيْلِ.

وَ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]: اسْتِثْنَاءٌ مِنَ النِّصْفِ، كَأَنَّهُ قَالَ: قُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَالضَّمِيرُ فِي مِنْهُ وَعَلَيْهِ لِلنِّصْفِ، وَالْمَعْنَى التَّخْيِيرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، بَيْنَ أَنْ يَقُومَ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ عَلَى الْبَتِّ، وَبَيْنَ أَنْ يَخْتَارَ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ وَهُمَا النُّقْصَانُ مِنَ النِّصْفِ وَالزِّيَادَةُ عَلَيْهِ.

وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ نِصْفَهُ بَدَلًا مِنْ قَلِيلًا، وَكَانَ تَخْيِيرًا بَيْنَ ثَلَاثٍ: بَيْنَ قِيَامِ النِّصْفِ بِتَمَامِهِ، وَبَيْنَ قِيَامِ النَّاقِصِ مِنْهُ وَبَيْنَ قِيَامِ الزَّائِدِ عَلَيْهِ. وَإِنَّمَا وُصِفَ النِّصْفُ بِالْقِلَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُلِّ.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: لَمَّا كَانَ مَعْنَى ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا نِصْفَهُ﴾[1]: إِذَا أَبْدَلْتَ النِّصْفَ مِنَ اللَّيْلِ، قُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ، رَجَعَ الضَّمِيرُ فِي مِنْهُ وَعَلَيْهِ إِلَى الْأَقَلِّ مِنَ النِّصْفِ؛ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: قُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ. أَوْ: قُمْ أَنْقَصَ مِنْ ذَلِكَ الْأَقَلِّ أَوْ أَزْيَدَ مِنْهُ قَلِيلًا. فَيَكُونُ التَّخْيِيرُ فِيمَا وَرَاءَ النِّصْفِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الثُّلُثِ.

وَيَجُوزُ إِذَا أَبْدَلْتَ ﴿نِصْفَهُ﴾[2] مِنْ ﴿قَلِيلًا﴾[3]، وَفَسَّرْتَهُ بِهِ، أَنْ تَجْعَلَ قَلِيلًا الثَّانِيَ بِمَعْنَى نِصْفِ النِّصْفِ: وَهُوَ الرُّبْعُ، كَأَنَّهُ قِيلَ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا نِصْفَهُ. وَتَجْعَلَ الْمَزِيدَ عَلَى هَذَا الْقَلِيلِ، أَعْنِي الرُّبْعَ، نِصْفَ الرُّبْعِ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: أَوْ زِدْ عَلَيْهِ قَلِيلًا نِصْفَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَجْعَلَ الزِّيَادَةَ لِكَوْنِهَا مُطْلَقَةً تَتِمَّةَ الثُّلُثِ، فَيَكُونُ تَخْيِيرًا بَيْنَ النِّصْفِ وَالثُّلُثِ وَالرُّبْعِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَكَانَ الْقِيَامُ فَرْضًا أَمْ نَفْلًا ؟

قُلْتُ: عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ تَطَوُّعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ فَرِيضَةً.

وَقِيلَ: كَانَ فَرْضًا قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، ثُمَّ نُسِخَ بِهِنَّ إِلَّا مَا تَطَوَّعُوا بِهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: كَانَ قِيَامُ ثُلُثِ اللَّيْلِ فَرِيضَةً، وَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ سَنَةً. وَقِيلَ: كَانَ وَاجِبًا، وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّخْيِيرُ فِي الْمِقْدَارِ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: كَانَ يَقُومُ الرَّجُلُ حَتَّى يُصْبِحَ مَخَافَةَ أَنْ لَا يُحْفَظَ مَا بَيْنَ النِّصْفِ وَالثُّلُثِ وَالثُّلْثَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كَانَ نَفْلًا بِدَلِيلِ التَّخْيِيرِ فِي الْمِقْدَارِ، وَلِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾[1]]الْإِسْرَاءِ: 799].

تَرْتِيلُ الْقُرْآنِ: قِرَاءَتُهُ عَلَى تَرَسُّلٍ وَتُؤَدَةٍ بِتَبْيِينِ الْحُرُوفِ وَإِشْبَاعِ الْحَرَكَاتِ، حَتَّى يَجِيءَ الْمَتْلُوُّ مِنْهُ شَبِيهًا بِالثَّغْرِ الْمُرَتَّلِ: وَهُوَ الْمُفَلَّجُ الْمُشَبَّهُ بِنَوْرِ الْأُقْحُوَانِ، وَأَلَّا يَهُذَّهُ هَذًّا وَلَا يَسْرُدُهُ سَرْدًا، كَمَا قَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: شَرُّ السَّيْرِ الْحَقْحَقَةُ. وَشَرُّ الْقِرَاءَةِ الْهَذْرَمَةُ، حَتَّى يُشْبِهَ الْمَتْلُوُّ فِي تَتَابُعِهِ الثَّغْرَ الْأَلَصَّ.

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟ فَقَالَتْ: لَا كَسَرْدِكُمْ هَذَا، لَوْ أَرَادَ السَّامِعُ أَنْ يَعُدَّ حُرُوفَهُ لَعَدَّهَا.

وَ﴿تَرْتِيلا﴾[2]: تَأْكِيدٌ فِي إِيجَابِ الْأَمْرِ بِهِ، وَأَنَّهُ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ لِلْقَارِئِ.

﴿إنّا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا﴾[3]

هذه الآية اعتراض، ويعني بالقول الثّقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنّواهي التي هي تكاليف شاقّة ثقيلة على المكلّفين، خاصة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لأنّه متحمّلها بنفسه ومحمّلها أمّته، فهي أثقل عليه وأبهظ له.

وأراد بهذا الاعتراض: أنّ ما كلّفه من قيام اللّيل من جملة التّكاليف الثّقيلة الصّعبة التي ورد بها القرآن، لأنّ اللّيل وقت السّبات والرّاحة والهدوء، فلا بدّ لمَن أحياه مضادّة لطبعه ومجاهدة لنفسه.

وعن ابن عبّاس -رضي الله عنه-: كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد له جلده.

وعن عائشة -رضي الله عنها-: رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشّديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وعن الحسن: ثقيل في الميزان.

وقيل: ثقيل على المنافقين.

وقيل: كلام له وزن ورجْحان ليس بالسّفساف.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[1]

﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾[2] النَّفْسُ النَّاشِئَةُ بِاللَّيْلِ، الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ مَضْجَعِهَا إِلَى الْعِبَادَةِ، أَيْ: تَنْهَضُ وَتَرْتَفِعُ، مَنْ نَشَأَتِ السَّحَابَةُ: إِذَا ارْتَفَعَتْ، وَنَشَأَ مِنْ مَكَانِهِ وَنَشَزَ: إِذَا نَهَضَ.

قَالَ:

نَشَأْنَا إِلَى خُوصٍ بَرَى نَيَّهَا السُّرَى وَأَلْصَقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ الْقَمَاحِدِ

وَقِيَامُ اللَّيْلِ، عَلَى أَنَّ النَّاشِئَةَ مَصْدَرٌ مِنْ نَشَأَ إِذَا قَامَ وَنَهَضَ عَلَى فَاعِلَةٍ: كَالْعَاقِبَةِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ: رَجُلٌ قَامَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، أَتَقُولِينَ لَهُ قَامَ نَاشِئَةً؟ قَالَتْ لَا، إِنَّمَا النَّاشِئَةُ الْقِيَامُ بَعْدَ النَّوْمِ. فَفَسَّرَتِ النَّاشِئَةَ بِالْقِيَامِ عَنِ الْمَضْجَعِ أَوِ الْعِبَادَةِ الَّتِي تَنْشَأُ بِاللَّيْلِ، أَيْ: تَحْدُثُ، وَتَرْتَفِعُ.

وَقِيلَ: هِيَ سَاعَاتُ اللَّيْلِ كُلُّهَا، لِأَنَّهَا تَحْدُثُ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى. وَقِيلَ: السَّاعَاتُ الْأُوَلُ مِنْهُ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ وَيَقُولُ: أَمَّا سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾[3] هَذِهِ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾[4]: هِيَ خَاصَّةً دُونَ نَاشِئَةِ النَّهَارِ، أَشَدُّ مُوَاطَأَةً يُوَاطِئُ قَلْبُهَا لِسَانَهَا: إِنْ أَرَدْتَ النَّفْسَ. أَوْ يُوطِئُ فِيهَا قَلْبُ الْقَائِمِ لِسَانَهُ: إِنْ أَرَدْتَ الْقِيَامَ أَوِ الْعِبَادَةَ أَوِ السَّاعَاتِ. أَوْ أَشَدَّ مُوَافَقَةً لِمَا يُرَادُ مِنَ الْخُشُوعِ وَالْإِخْلَاصِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَشَدُّ مُوَافَقَةً بَيْنَ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، لِانْقِطَاعِ رُؤْيَةِ الْخَلَائِقِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "أَشَدُّ وَطْئًا" بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ. وَالْمَعْنَى: أَشَدُّ ثَبَاتَ قَدَمٍ وَأَبْعَدُ مِنَ الزَّلَلِ. أَوْ أَثْقَلُ وَأَغْلَظُ عَلَى الْمُصَلِّي مِنْ صَلَاةِ النَّهَارِ، مِنْ قَوْلِهِ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ".

﴿وَأَقْوَمُ قِيلا﴾[1] وَأَسَدُّ مَقَالًا وَأَثْبَتُ قِرَاءَةً لِهُدُوِّ الْأَصْوَاتِ.

وَعَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ قَرَأَ: وَأَصْوَبُ قِيلًا، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، إِنَّمَا هِيَ: وَأَقْوَمُ، فَقَالَ: إِنَّ أَقْوَمَ وَأَصْوَبَ وَأَهْيَأَ وَاحِدٌ.

وَرَوَى أَبُو زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ أَبِي سَرَارٍ الْغَنَوِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ: فَحَاسُوا، بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّمَا هُوَ: ﴿فَجَاسُوا﴾[2]]الْإِسْرَاءِ: 5]. بِالْجِيمِ، فَقَالَ: وَجَاسُوا وَحَاسُوا وَاحِدٌ.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾[3]

﴿سَبْحًا﴾[4]: تَصَرُّفًا وَتَقَلُّبًا فِي مُهِمَّاتِكَ وَشَوَاغِلِكَ، وَلَا تَفْرَغْ إِلَّا بِاللَّيْلِ، فَعَلَيْكَ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ الَّتِي تَقْتَضِي فَرَاغَ الْبَالِ وَانْتِفَاءَ الشَّوَاغِلِ.

وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ بِالْخَاءِ، فَاسْتِعَارَةٌ مِنْ سَبْخِ الصُّوفِ: وَهُوَ نَفْشُهُ وَنَشْرُ أَجْزَائِهِ، لِانْتِشَارِ الْهَمِّ وَتَفَرُّقِ الْقَلْبِ بِالشَّوَاغِلِ: كَلَّفَهُ قِيَامَ اللَّيْلِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْحِكْمَةَ فِيمَا كَلَّفَهُ مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّ اللَّيْلَ أَعْوَنُ عَلَى الْمُوَاطَأَةِ وَأَشَدُّ لِلْقِرَاءَةِ، لِهُدُوِّ الرِّجْلِ وَخُفُوتِ الصَّوْتِ: وَأَنَّهُ أَجْمَعُ لِلْقَلْبِ وَأَضَمُّ لِنَشْرِ الْهَمِّ مِنَ النَّهَارِ، لِأَنَّهُ وَقْتُ تَفَرُّقِ الْهُمُومِ وَتَوَزُّعِ الْخَوَاطِرِ وَالتَّقَلُّبِ فِي حَوَائِجِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ.

وَقِيلَ: فَرَاغًا وَسِعَةً لِنَوْمِكَ وَتَصَرُّفِكَ فِي حَوَائِجِكَ وَقِيلَ: إِنْ فَاتَكَ مِنَ اللَّيْلِ شَيْءٌ فَلَكَ فِي النَّهَارِ فَرَاغٌ تَقْدِرُ عَلَى تَدَارُكِهِ فِيهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[1]

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾[2] وَدُمْ عَلَى ذِكْرِهِ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَاحْرِصْ عَلَيْهِ، وَذِكْرُ اللَّهِ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذِكْرٍ طَيِّبٍ: تَسْبِيحٍ، وَتَهْلِيلٍ، وَتَكْبِيرٍ، وَتَمْجِيدٍ، وَتَوْحِيدٍ، وَصَلَاةٍ، وَتِلَاوَةِ قُرْآنٍ، وَدِرَاسَةِ عِلْمٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَسْتَغْرِقُ بِهِ سَاعَةَ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾[3] وَانْقَطِعْ إِلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: ﴿تَبْتِيلا﴾[4] مَكَانَ تَبَتُّلًا؟ قُلْتُ: لِأَنَّ مَعْنَى تَبَتَّلَ بَتَلَ نَفْسَهُ، فَجِيءَ بِهِ عَلَى مَعْنَاهُ مُرَاعَاةً لِحَقِّ الْفَوَاصِلِ.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[5] قُرِئَ مَرْفُوعًا عَلَى الْمَدْحِ، وَمَجْرُورًا عَلَى الْبَدَلِ مِنْ رَبِّكَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: عَلَى الْقَسَمِ بِإِضْمَارِ حَرْفِ الْقَسَمِ، كَقَوْلِكَ: اللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ، وَجَوَابُهُ: ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾[6]، كَمَا تَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَحَدَ فِي الدَّارِ إِلَّا زَيْدٌ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا" مُسَبَّبٌ عَلَى التَّهْلِيلَةِ، لِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَجِبُ لِتَوَحُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ أَنْ تُوَكَلَ إِلَيْهِ الْأُمُورُ.

وَقِيلَ: ﴿وَكِيلا﴾[7]: كَفِيلًا بِمَا وَعَدَكَ مِنَ النَّصْرِ وَالْإِظْهَارِ. الْهَجْرُ الْجَمِيلُ: أَنْ يُجَانِبَهُمْ بِقَلْبِهِ وَهَوَاهُ، وَيُخَالِفَهُمْ مَعَ حُسْنِ الْمُخَالَفَةِ وَالْمُدَارَاةِ وَالْإِغْضَاءِ وَتَرْكِ الْمُكَافَأَةِ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إِنَّا لَنُكَشِّرُ فِي وُجُوهِ قَوْمٍ وَنَضْحَكُ إِلَيْهِمْ، وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتُقْلِيهِمْ. وَقِيلَ: هُوَ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾[1]

إِذَا عَرَفَ الرَّجُلُ مِنْ صَاحِبِهِ أَنَّهُ مُسْتَهَمٌّ بِخَطْبٍ يُرِيدُ أَنْ يُكْفَاهُ، أَوْ بِعَدُوٍّ يَشْتَهِي أَنْ يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْهُ وَهُوَ مُضْطَلِعٌ بِذَلِكَ مُقْتَدِرٌ عَلَيْهِ قَالَ: ذَرْنِي وَإِيَّاهُ أَيْ: لَا تَحْتَاجُ إِلَى الظَّفَرِ بِمُرَادِكَ وَمُشْتَهَاكَ، إِلَّا أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بِأَنْ تَكِلَ أَمْرَهُ إِلَيَّ وَتَسْتَكْفِينِيهِ، فَإِنَّ فِيَّ مَا يُفْرِغُ بَالَكَ وَيُجَلِّي هَمَّكَ، وَلَيْسَ ثَمَّ مَنْعٌ حَتَّى يَطْلُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَذَرَهُ وَإِيَّاهُ إِلَّا تَرْكُ الِاسْتِكْفَاءِ وَالتَّفْوِيضِ، كَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكِلْ أَمْرَهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ مَنَعَهُ مِنْهُ، فَإِذَا وَكَلَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَزَالَ الْمَنْعَ وَتَرَكَهُ وَإِيَّاهُ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْوُثُوقِ بِأَنَّهُ يَتَمَكَّنُ مِنَ الْوَفَاءِ بِأَقْصَى مَا تَدُورُ حَوْلَهُ أُمْنِيَةُ الْمُخَاطَبِ وَبِمَا يَزِيدُ عَلَيْهِ.

النَّعْمَةُ بِالْفَتْحِ التَّنَعُّمُ، وَبِالْكَسْرِ: الْإِنْعَامُ وَبِالضَّمِّ: الْمَسَرَّةُ، يُقَالُ: نَعَمْ، وَنُعْمَةِ عَيْنٍ، وَهُمْ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا أَهْلَ تَنَعُّمٍ وَتَرَفُّهٍ.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾[2] مَا يُضَادُّ تَنَعُّمَهُمْ مِنْ أَنْكَالٍ: وَهِيَ الْقُيُودُ الثِّقَالُ: عَنِ الشَّعْبِيِّ، إِذَا ارْتَفَعُوا اسْتَقَلَّتْ بِهِمْ. الْوَاحِدُ: نَكَلٌ وَنِكْلٌ.

وَمِنْ جَحِيمٍ: وَهِيَ النَّارُ الشَّدِيدَةُ الْحَرِّ وَالِاتِّقَادِ. وَمِنْ طَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ وَهُوَ الَّذِي يَنْشَبُ فِي الْحُلُوقِ، فَلَا يُسَاغُ يَعْنِي الضَّرِيعَ وَشَجَرَ الزَّقُّومِ. وَمِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ مِنْ سَائِرِ الْعَذَابِ فَلَا تَرَى مَوْكُولًا إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ مَوْذُورًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ يُنْتَقَمُ مِنْهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ الِانْتِقَامِ.

وَرُوِيَ: أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَصَعِقَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهُ أَمْسَى صَائِمًا. فَأُتِيَ بِطَعَامٍ، فَعَرَضَتْ لَهُ هَذِهِ الْآيَةُ، فَقَالَ: ارْفَعْهُ، وَوُضِعَ عِنْدَهُ اللَّيْلَةَ الثَّانِيَةَ، فَعَرَضَتْ لَهُ، فَقَالَ: ارْفَعْهُ، وَكَذَلِكَ اللَّيْلَةَ الثَّالِثَةَ، فَأُخْبِرَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ وَيَزِيدُ الضَّبِّيُّ وَيَحْيَى الْبَكَّاءُ، فَجَاءُوا فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى شَرِبَ شَرْبَةً مِنْ سَوِيقٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾[1] مَنْصُوبٌ بِمَا فِي لَدَيْنَا. وَالرَّجْفَةُ. الزَّلْزَلَةُ وَالزَّعْزَعَةُ الشَّدِيدَةُ.
وَالْكَثِيبُ: الرَّمْلُ الْمُجْتَمِعُ مِنْ كَثَبَ الشَّيْءَ إِذَا جَمَعَهُ، كَأَنَّهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ فِي أَصْلِهِ.
وَمِنْهُ الْكُثْبَةُ مِنَ اللَّبَنِ، قَالَتِ الضَّائِنَةُ: أُجَزُّ جُفَالًا، وَأُحْلَبُ كُثَبًا عِجَالًا. أَيْ: كَانَتْ مِثْلَ رَمْلٍ مُجْتَمِعٍ هِيلَ هَيْلًا، أَيْ: نُثِرَ وَأُسِيلَ.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[2]

الْخِطَابُ لِأَهْلِ مَكَّةَ.
﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾[3]: يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ.
فَإِنْ قُلْتُ: لِمَ نُكِّرَ الرَّسُولُ ثُمَّ عُرِّفَ؟ قُلْتُ: لِأَنَّهُ أَرَادَ: أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ بَعْضَ الرُّسُلِ، فَلَمَّا أَعَادَهُ، وَهُوَ مَعْهُودٌ بِالذِّكْرِ أَدْخَلَ لَامَ التَّعْرِيفِ إِشَارَةً إِلَى الْمَذْكُورِ بِعَيْنِهِ.
﴿وَبِيلًا﴾[4] ثَقِيلًا غَلِيظًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: كَلَأٌ وَبِيلٌ: وَخِمٌ لَا يُسْتَمْرَأُ لِثِقَلِهِ.
وَالْوَبِيلُ: الْعَصَا الضَّخْمَةُ، وَمِنْهُ الْوَابِلُ لِلْمَطَرِ الْعَظِيمِ.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾[5]

﴿يَوْمًا﴾[6] مَفْعُولٌ بِهِ، أَيْ: فَكَيْفَ تَقُونَ أَنْفُسَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ لَهُ، إِنْ بَقِيتُمْ عَلَى الْكُفْرِ. وَلَمْ تُؤْمِنُوا وَتَعْمَلُوا صَالِحًا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا، أَيْ: فَكَيْفَ لَكُمْ بِالتَّقْوَى فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ كَفَرْتُمْ فِي الدُّنْيَا؟

وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ بِكَفَرْتُمْ عَلَى تَأْوِيلِ جَحَدْتُمْ، أَيْ: فَكَيْفَ تَتَّقُونَ اللَّهَ وَتَخْشَوْنَهُ إِنْ جَحَدْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْجَزَاءَ، لِأَنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَوْفٌ عِقَابِهِ.

﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[1] مَثَلٌ فِي الشِّدَّةِ؛ يُقَالُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ: يَوْمٌ يُشِيبُ نَوَاصِيَ الْأَطْفَالِ.

وَالْأَصْلُ فِيهِ: أَنَّ الْهُمُومَ وَالْأَحْزَانَ إِذَا تَفَاقَمَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَسْرَعَ فِيهِ الشَّيْبُ.

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

وَقَدْ مَرَّ بِي فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّ رَجُلًا أَمْسَى فَاحِمَ الشَّعْرِ كَحَنَكِ الْغُرَابِ. وَأَصْبَحَ وَهُوَ أَبْيَضُ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ كَالثَّغَامَةِ، فَقَالَ: أُرِيتُ الْقِيَامَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ فِي الْمَنَامِ، وَرَأَيْتُ النَّاسَ يُقَادُونَ فِي السَّلَاسِلِ إِلَى النَّارِ، فَمِنْ هَوْلِ ذَلِكَ أَصْبَحْتُ كَمَا تَرَوْنَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ الْيَوْمُ بِالطُّولِ، وَأَنَّ الْأَطْفَالَ يَبْلُغُونَ فِيهِ أَوَانَ الشَّيْخُوخَةِ وَالشَّيْبِ.

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾[2]: وَصْفٌ لِلْيَوْمِ بِالشِّدَّةِ أَيْضًا. وَأَنَّ السَّمَاءَ عَلَى عِظَمِهَا وَإِحْكَامِهَا تَنْفَطِرُ فِيهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهَا مِنَ الْخَلَائِقِ.

وَقُرِئَ: "مُنْفَطِرٌ وَمُتَفَطِّرٌ" وَالْمَعْنَى: ذَاتُ انْفِطَارٍ. أَوْ عَلَى تَأْوِيلِ السَّمَاءِ بِالسَّقْفِ أَوْ عَلَى تَأْوِيلِ السَّمَاءِ شَيْءٌ مُنْفَطِرٌ وَالْبَاءُ فِي بِهِ مِثْلَهَا فِي قَوْلِكَ: فَطَرْتُ الْعُودَ بِالْقَدُومِ، فَانْفَطَرَ بِهِ، يَعْنِي: أَنَّهَا تَنْفَطِرُ بِشِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ لَهُ كَمَا يَنْفَطِرُ الشَّيْءُ بِمَا يُفْطَرُ بِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: السَّمَاءُ مُثْقَلَةٌ بِهِ إِثْقَالًا يُؤَدِّي إِلَى انْفِطَارِهَا لِعِظَمِهِ عَلَيْهَا وَخَشْيَتِهَا مِنْ وُقُوعِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3]]الْأَعْرَافِ: 187.[

﴿ وَعْدُهُ﴾[4] مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، وَالضَّمِيرُ لِلْيَوْمِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُضَافًا إِلَى الْفَاعِلِ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَعَلَا، وَلَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ لِكَوْنِهِ مَعْلُومًا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[1]

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾[2] الْآيَاتِ النَّاطِقَةَ بِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾[3]: مَوْعِظَةٌ.

﴿فَمَنْ شَاءَ﴾[4] اتَّعَظَ بِهَا.

وَاتَّخَذَ سَبِيلًا إِلَى اللَّهِ بِالتَّقْوَى وَالْخَشْيَةِ.

وَمَعْنَى اتِّخَاذِ السَّبِيلِ إِلَيْهِ: التَّقَرُّبُ وَالتَّوَسُّلُ بِالطَّاعَةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]

﴿أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾[6] أَقَلَّ مِنْهُمَا، وَإِنَّمَا اسْتُعِيرَ الْأَدْنَى وَهُوَ الْأَقْرَبُ لِلْأَقَلِّ، لِأَنَّ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِذَا دَنَتْ: قَلَّ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَحْيَازِ، وَإِذَا بَعُدَتْ كَثُرَ ذَلِكَ.

وَقُرِئَ: "وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ" بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّكَ تَقُومُ أَقَلَّ مِنَ الثُّلُثَيْنِ، وَتَقُومُ النِّصْفَ وَالثُّلُثَ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا مَرَّ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: مِنَ التَّخْيِيرِ بَيْنَ قِيَامِ النِّصْفِ بِتَمَامِهِ وَبَيْنَ قِيَامِ النَّاقِصِ مِنْهُ –وَهُوَ الثُّلُثُ– وَبَيْنَ قِيَامِ الزَّائِدِ عَلَيْهِ –وَهُوَ الْأَدْنَى مِنَ الثُّلُثَيْنِ–.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: وَنِصْفِهِ، وَثُلُثِهِ: بِالْجَرِّ، أَيْ: تَقُومُ أَقَلَّ مِنَ الثُّلُثَيْنِ وَأَقَلَّ مِنَ النِّصْفِ وَالثُّلُثِ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِلتَّخْيِيرِ بَيْنَ النِّصْفِ، وَهُوَ أَدْنَى مِنَ الثُّلُثَيْنِ وَالثُّلُثِ، وَهُوَ أَدْنَى مِنَ النِّصْفِ. وَالرُّبْعُ، وَهُوَ أَدْنَى مِنَ الثُّلُثِ، وَهُوَ الْوَجْهُ الْأَخِيرُ.

﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾[1]: وَيَقُومُ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِكَ.

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[2]: وَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَعْرِفَةِ مَقَادِيرِ سَاعَاتِهِمَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَتَقْدِيمُ اسْمِهِ –عَزَّ وَجَلَّ– مُبْتَدَأً مَبْنِيًّا عَلَيْهِ يُقَدِّرُ: هُوَ الدَّالُّ عَلَى مَعْنَى الِاخْتِصَاصِ بِالتَّقْدِيرِ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿لَنْ تُحْصُوهُ﴾[3] لِمَصْدَرِ يُقَدِّرُ، أَيْ: عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ مِنْكُمْ ضَبْطُ الْأَوْقَاتِ وَلَا يَتَأَتَّى حِسَابُهَا بِالتَّعْدِيلِ وَالتَّسْوِيَةِ، إِلَّا أَنْ تَأْخُذُوا بِالْأَوْسَعِ لِلِاحْتِيَاطِ: وَذَلِكَ شَاقٌّ عَلَيْكُمْ بَالِغٌ مِنْكُمْ.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[4] عِبَارَةٌ عَنِ التَّرْخِيصِ فِي تَرْكِ الْقِيَامِ الْمُقَدَّرِ. كَقَوْلِهِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾[5]]الْبَقَرَةِ: 1877].

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ رَفَعَ التَّبِعَةَ فِي تَرْكِهِ عَنْكُمْ، كَمَا يَرْفَعُ التَّبِعَةَ عَنِ التَّائِبِ. وَعَبَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ بِالْقِرَاءَةِ، لِأَنَّهَا بَعْضُ أَرْكَانِهَا؛ كَمَا عَبَّرَ عَنْهَا بِالْقِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ يُرِيدُ: فَصَلُّوا مَا تَيَسَّرَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يَتَعَذَّرْ مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ. وَهَذَا نَاسِخٌ لِلْأَوَّلِ، ثُمَّ نُسِخَا جَمِيعًا بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ.

وَقِيلَ: هِيَ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِعَيْنِهَا، قِيلَ: يَقْرَأُ مِائَةَ آيَةٍ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يُحَاجُّهُ الْقُرْآنُ. وَقِيلَ: مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ. وَقِيلَ: خَمْسِينَ آيَةً.

وَقَدْ بَيَّنَ الْحِكْمَةَ فِي النَّسْخِ. وَهِيَ تَعَذُّرُ الْقِيَامِ عَلَى الْمَرْضَى، وَالضَّارِبِينَ فِي الْأَرْضِ لِلتِّجَارَةِ، وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَقِيلَ: سَوَّى اللَّهُ بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ وَالْمُسَافِرِينَ لِكَسْبِ الْحَلَالِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَيُّمَا رَجُلٍ جَلَبَ شَيْئًا إِلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الْمُسْلِمِينَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ: كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشُّهَدَاءِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: مَا خَلَقَ اللَّهُ مَوْتَةً أَمُوتُهَا بَعْدَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيِ رَجُلٍ: أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ أَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.

وَ﴿عَلِمَ﴾[1]: اسْتِئْنَافٌ عَلَى تَقْدِيرِ السُّؤَالِ عَنْ وَجْهِ النَّسْخِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[2] يَعْنِي: الْمَفْرُوضَةَ وَالزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ. وَقِيلَ: زَكَاةَ الْفِطْرِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ زَكَاةٌ. وَإِنَّمَا وَجَبَتْ بَعْدَ ذَلِكَ. وَمَنْ فَسَّرَهَا بِالزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ جَعَلَ آخِرَ السُّورَةِ مَدَنِيًّا.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[3] يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: سَائِرَ الصَّدَقَاتِ وَأَنْ يُرِيدَ: أَدَاءَ الزَّكَاةِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ: مِنْ إِخْرَاجِ أَطْيَبِ الْمَالِ وَأَعْوَدِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَمُرَاعَاةِ النِّيَّةِ وَابْتِغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ، وَالصَّرْفِ إِلَى الْمُسْتَحِقِّ، وَأَنْ يُرِيدَ: كُلَّ شَيْءٍ يُفْعَلُ مِنَ الْخَيْرِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ.

﴿خَيْرًا﴾[4]: ثَانِي مَفْعُولَيْ وَجَدَ. وَهُوَ فَصْلٌ. وَجَازَ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ بَيْنَ مَعْرِفَتَيْنِ. لِأَنَّ أَفْعَلَ مِنْ أَشْبَهَ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْ حَرْفِ التَّعْرِيفِ الْمَعْرِفَةَ.

وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ: "هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا" بِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُزَّمِّلِ دَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ الْعُسْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

سورة [الدين]

سورة المدثر

مَكِّيَّةٌ،
وَهِيَ سِتٌّ وَخَمْسُونَ آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْمُزَّمِّلِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1]

﴿الْمُدَّثِّرُ﴾[2]: لَابِسُ الدِّثَارِ، وَهُوَ مَا فَوْقَ الشِّعَارِ: وَهُوَ الثَّوْبُ الَّذِي يَلِي الْجَسَدَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: "الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ".

وَقِيلَ: هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ.

وَرَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "كُنْتُ عَلَى جَبَلِ حِرَاءَ، فَنُودِيتُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَيَسَارِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَنَظَرْتُ فَوْقِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا".

وَفِي رِوَايَةِ عَائِشَةَ: "فَنَظَرْتُ فَوْقِي فَإِذَا بِهِ قَاعِدٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ -يَعْنِي: الْمَلَكَ الَّذِي نَادَاهُ-، فَرُعِبْتُ وَرَجَعْتُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي! دَثِّرُونِي! فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَقَالَ: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ: أَوَّلُ مَا نَزَلَ: سُورَةُ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[1] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]، فَحَزِنَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَجَعَلَ يَعْلُو شَوَاهِقَ الْجِبَالِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ، فَرَجَعَ إِلَى خَدِيجَةَ وَقَالَ: دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، فَنَزَلَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[3].

وَقِيلَ: سَمِعَ مِنْ قُرَيْشٍ مَا كَرِهَهُ فَاغْتَمَّ، فَتَغَطَّى بِثَوْبِهِ مُفَكِّرًا كَمَا يَفْعَلُ الْمَغْمُومُ. فَأُمِرَ أَنْ لَا يَدَعَ إِنْذَارَهُمْ وَإِنْ أَسْمَعُوهُ وَآذَوْهُ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى لَفْظِ اسْمِ الْمَفْعُولِ. مِنْ دَثَّرَهُ. وَقَالَ: دَثَّرْتُ هَذَا الْأَمْرَ وَعُصِبَ بِكَ، كَمَا قَالَ فِي الْمُزَّمِّلِ: قُمْ مِنْ مَضْجَعِكَ أَوْ قُمْ قِيَامَ عَزْمٍ وَتَصْمِيمٍ.

﴿فَأَنْذِرْ﴾[4]: فَحَذِّرْ قَوْمَكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَعْنَى: فَافْعَلِ الْإِنْذَارَ مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصٍ لَهُ بِأَحَدٍ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[5]: وَاخْتَصَّ رَبَّكَ بِالتَّكْبِيرِ: وَهُوَ الْوَصْفُ بِالْكِبْرِيَاءِ، وَأَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ. وَيُرْوَى: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "اللَّهُ أَكْبَرُ"، فَكَبَّرَتْ خَدِيجَةُ وَفَرِحَتْ، وَأَيْقَنَتْ أَنَّهُ الْوَحْيُ، وَقَدْ يُحْمَلُ عَلَى تَكْبِيرِ الصَّلَاةِ، وَدَخَلَتِ الْفَاءُ لِمَعْنَى الشَّرْطِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا كَانَ فَلَا تَدَعْ تَكْبِيرَهُ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[6]: أُمِرَ بِأَنْ تَكُونَ ثِيَابُهُ طَاهِرَةً مِنَ النَّجَاسَةِ، لِأَنَّ طَهَارَةَ الثِّيَابِ شَرْطٌ فِي الصَّلَاةِ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ الْأَوْلَى وَالْأَحَبُّ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، وَقَبِيحٌ بِالْمُؤْمِنِ الطَّيِّبِ أَنْ يَحْمِلَ خَبَثًا.

وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ بِتَقْصِيرِهَا، وَمُخَالَفَةِ الْعَرَبِ فِي تَطْوِيلِهِمُ الثِّيَابَ وَجَرِّهِمُ الذُّيُولَ، وَذَلِكَ مَا لَا يُؤْمَنُ مَعَهُ إِصَابَةُ النَّجَاسَاتِ.

وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ بِتَطْهِيرِ النَّفْسِ مِمَّا يُسْتَقْذَرُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَيُسْتَهْجَنُ مِنَ الْعَادَاتِ. يُقَالُ: فُلَانٌ طَاهِرُ الثِّيَابِ وَطَاهِرُ الْجَيْبِ وَالذَّيْلِ وَالْأَرْدَانِ إِذَا وَصَفُوهُ بِالنَّقَاءِ مِنَ الْمَعَايِبِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَمَدَانِسِ الْأَخْلَاقِ. وَفُلَانٌ دَنِسُ الثِّيَابِ لِلْغَادِرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الثَّوْبَ يُلَابِسُ الْإِنْسَانَ وَيَشْتَمِلُ عَلَيْهِ، فَكُنِّيَ بِهِ عَنْهُ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ ثَوْبُهُ، كَمَا يَقُولُونَ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ عَقْلُهُ وَخُلُقُهُ، وَيَقُولُونَ: الْمَجْدُ فِي ثَوْبِهِ، وَالْكَرْمُ تَحْتَ حُلَّتِهِ؟! وَلِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ مَنْ طَهَّرَ بَاطِنَهُ وَنَقَّاهُ عَنَى بِتَطْهِيرِ الظَّاهِرِ وَتَنْقِيَتِهِ، وَأَبِي إِلَّا اجْتِنَابَ الْخُبْثِ وَإِيثَارَ الطُّهْرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

"وَالرُّجْزَ" قُرِئَ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ، وَهُوَ الْعَذَابُ، وَمَعْنَاهُ: اهْجُرْ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَآثِمِ. وَالْمَعْنَى: الثَّبَاتُ عَلَى هَجْرِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ بَرِيئًا مِنْهُ.

﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1]

قَرَأَ الْحَسَنُ: "وَلَا تَمُنَّ" "وَتَسْتَكْثِرُ" مَرْفُوعٌ مَنْصُوبَ الْمَحَلِّ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: وَلَا تُعْطِ مُسْتَكْثِرًا رَائِيًا لِمَا تُعْطِيهِ كَثِيرًا، أَوْ طَالِبًا لِلْكَثِيرِ: نَهَى عَنِ الِاسْتِغْزَارِ، وَهُوَ أَنْ يَهَبَ شَيْئًا وَهُوَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَعَوَّضَ مِنَ الْمَوْهُوبِ لَهُ أَكْثَرَ مِنَ الْمَوْهُوبِ، وَهَذَا جَائِزٌ.

وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: "الْمُسْتَغْزِرُ يُثَابُ مِنْ هِبَتِهِ".

وَفِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ نَهْيًا خَاصًّا بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– اخْتَارَ لَهُ أَشْرَفَ الْآدَابِ وَأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ،

– وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ نَهْيَ تَنْزِيهٍ لَا تَحْرِيمٍ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "تَسْتَكْثِرْ" بِالسُّكُونِ. وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ: الْإِبْدَالُ مِنْ تَمُنَّ. كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَا تَمْنُنْ لَا تَسْتَكْثِرْ، عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمَنِّ فِي قَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى﴾[2]]الْبَقَرَةِ: 2622]، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمَنَّانِ بِمَا يُعْطِي أَنْ يَسْتَكْثِرَهُ، أَيْ: يَرَاهُ كَثِيرًا وَيَعْتَدُّ بِهِ، وَأَنْ يُشَبَّهَ ثَرَوَ بِعَضُدَ، فَيُسَكَّنُ تَخْفِيفًا، وَأَنْ يُعْتَبَرَ حَالَ الْوَقْفِ.

وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ بِالنَّصْبِ بِإِضْمَارِ "أَنْ" كَقَوْلِهِ:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الْوَغَى.....

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَتُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: وَلَا تَمْنُنْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ. وَيَجُوزُ فِي الرَّفْعِ أَنْ تُحْذَفَ "أَنْ" وَيُبْطَلَ عَمَلُهَا، كَمَا رُوِيَ: أَحْضُرُ الْوَغَى بِالرَّفْعِ.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1]: وَلِوَجْهِ اللَّهِ فَاسْتَعْمِلِ الصَّبْرَ. وَقِيلَ: عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ.

وَقِيلَ: عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ. وَعَنِ النَّخَعِيِّ: عَلَى عَطِيَّتِكَ، كَأَنَّهُ وَصَلَهُ بِمَا قَبْلَهُ، وَجَعَلَهُ صَبْرًا عَلَى الْعَطَاءِ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْثَارٍ، وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ أَمْرًا بِنَفْسِ الْفِعْلِ، وَأَنْ يَتَنَاوَلَ عَلَى الْعُمُومِ كُلَّ مَصْبُورٍ عَلَيْهِ وَمَصْبُورٍ عَنْهُ، وَيُرَادُ الصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ، لِأَنَّهُ أَحَدُ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْعَامُّ.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[2]

وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾[3] لِلتَّسْبِيبِ، كَأَنَّهُ قَالَ: اصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ فَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَوْمٌ عَسِيرٌ يَلْقَوْنَ فِيهِ عَاقِبَةَ أَذَاهُمْ، وَتَلْقَى فِيهِ عَاقِبَةَ صَبْرِكَ عَلَيْهِ. وَالْفَاءُ فِي ﴿فَذَلِكَ﴾[4] لِلْجَزَاءِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ إِذَا؟ وَكَيْفَ صَحَّ أَنْ يَقَعَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[5] ظَرْفًا لِ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[6]؟ قُلْتُ: انْتَصَبَ إِذَا بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ عَسُرَ الْأَمْرُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَالَّذِي أَجَازَ وُقُوعَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[7] ظَرْفًا لِ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[8]: أَنَّ الْمَعْنَى: فَذَلِكَ وَقْتُ النَّقْرِ وُقُوعُ يَوْمٍ عَسِيرٍ، لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتِي وَيَقَعُ حِينَ يُنْقَرُ فِي النَّاقُورِ. وَاخْتُلِفَ فِي أَنَّهَا النَّفْخَةُ الْأُولَى أَمِ الثَّانِيَةُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَئِذٍ مَبْنِيًّا مَرْفُوعَ الْمَحَلِّ، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، وَ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[1] خَبَرٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَيَوْمُ النَّقْرِ يَوْمٌ عَسِيرٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[2] وَ﴿عَسِيرٌ﴾[3] مُغْنٍ عَنْهُ؟

قُلْتُ: لَمَّا قَالَ: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4]، فَقَصَرَ الْعُسْرَ عَلَيْهِمْ قَالَ: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[5]، لِيُؤْذِنَ بِأَنْ لَا يَكُونَ عَلَيْهِمْ كَمَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يَسِيرًا هَيِّنًا، لِيَجْمَعَ بَيْنَ وَعِيدِ الْكَافِرِينَ وَزِيَادَةِ غَيْظِهِمْ وَبِشَارِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَسْلِيَتِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ عَسِيرٌ لَا يُرْجَى أَنْ يَرْجِعَ يَسِيرًا، كَمَا يُرْجَى تَيَسُّرُ الْعُسْرِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[6]

﴿وَحِيدًا﴾[7]: حَالٌ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَى مَعْنَيَيْنِ، أَحَدُهُمَا: ذَرْنِي وَحْدِي مَعَهُ، فَأَنَا أَجْزِيكَ فِي الِانْتِقَامِ مِنْهُ عَنْ كُلِّ مُنْتَقِمٍ. وَالثَّانِي: خَلَقْتُهُ وَحْدِي لَمْ يَشْرُكْنِي فِي خُلُقِهِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

أَحَدٌ. أَوْ حَالٌ مِنَ الْمَخْلُوقِ عَلَى مَعْنَى: خَلَقْتُهُ وَهُوَ وَحِيدٌ فَرِيدٌ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1]الْأَنْعَامِ: 94].

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ وَكَانَ يُلَقَّبُ فِي قَوْمِهِ بِالْوَحِيدِ، وَلَعَلَّهُ لُقِّبَ بِذَلِكَ بَعْدَ نُزُولِ الْآيَةِ، فَإِنْ كَانَ مُلَقَّبًا بِهِ قَبْلُ فَهُوَ تَهَكُّمٌ بِهِ وَبِلَقَبِهِ، وَتَغْيِيرٌ لَهُ عَنِ الْغَرَضِ الَّذِي كَانُوا يَؤُمُّونَهُ –مِنْ مَدْحِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ وَحِيدُ قَوْمِهِ لِرِيَاسَتِهِ وَيَسَارِهِ وَتَقَدُّمِهِ فِي الدُّنْيَا– إِلَى وَجْهِ الذَّمِّ وَالْعَيْبِ: وَهُوَ أَنَّهُ خُلِقَ وَحِيدًا لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، فَآتَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ، فَكَفَرَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِدِينِهِ.

﴿مَمْدُودًا﴾[2]: مَبْسُوطًا كَثِيرًا: أَوْ مُمَدًّا بِالنَّمَاءِ، مِنْ مَدَّ الْهِرَّ وَمُدَّ نَهَرَهَ آخَرُ.

قِيلَ: كَانَ لَهُ الزَّرْعُ وَالضَّرْعُ وَالتِّجَارَةُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ مَا كَانَ لَهُ بَيْنَمَكَّةَ وَالطَّائِفِ مِنْ صُنُوفِ الْأَمْوَالِ.

وَقِيلَ: كَانَ لَهُ بُسْتَانٌ بِالطَّائِفِ لَا يَنْقَطِعُ ثِمَارُهُ صَيْفًا وَشِتَاءً. وَقِيلَ: كَانَ لَهُ أَلْفُ مِثْقَالٍ. وَقِيلَ: أَرْبَعَةُ آلَافٍ. وَقِيلَ: تِسْعَةُ آلَافٍ. وَقِيلَ: أَلْفُ أَلْفٍ.

وَعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ: غَلَّةُ شَهْرٍ بِشَهْرٍ.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾[3]: حُضُورًا مَعَهُ بِمَكَّةَ لَا يُفَارِقُونَهُ لِلتَّصَرُّفِ فِي عَمَلٍ أَوْ تِجَارَةٍ، لِأَنَّهُمْ مَكْفِيُّونَ لِوُفُورِ نِعْمَةِ أَبِيهِمْ وَاسْتِغْنَائِهِمْ عَنِ التَّكَسُّبِ وَطَلَبِ الْمَعَاشِ بِأَنْفُسِهِمْ، فَهُوَ مُسْتَأْنِسٌ بِهِمْ لَا يَشْتَغِلُ قَلْبُهُ بِغَيْبَتِهِمْ، وَخَوْفِ مَعَاطِبِ السَّفَرِ عَلَيْهِمْ وَلَا يَحْزَنُ لِفِرَاقِهِمْ وَالِاشْتِيَاقِ إِلَيْهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ رِجَالٌ يَشْهَدُونَ مَعَهُ الْمَجَامِعَ وَالْمَحَافِلَ. أَوْ تُسْمَعُ شَهَادَتُهُمْ فِيمَا يُتَحَاكَمُ فِيهِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ لَهُ عَشَرَةُ بَنِينَ. وَقِيلَ: ثَلَاثَةَ عَشَرَ. وَقِيلَ: سَبْعَةٌ كُلُّهُمْ رِجَالٌ: الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَخَالِدٌ، وَعِمَارَةُ، وَهِشَامٌ، وَالْعَاصُ، وَقَيْسٌ، وَعَبْدُ شَمْسٍ: أَسْلَمَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ: خَالِدٌ، وَهِشَامٌ، وَعِمَارَةُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾[1]: وَبَسَطْتُ لَهُ الْجَاهَ الْعَرِيضَ وَالرِّيَاسَةَ فِي قَوْمِهِ، فَأَتْمَمْتُ عَلَيْهِ نِعْمَتَيِ الْمَالِ وَالْجَاهِ. اجْتِمَاعُهُمَا: هُوَ الْكَمَالُ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّاسِ: آدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَكَ وَتَمْهِيدَكَ، يُرِيدُونَ: زِيَادَةَ الْجَاهِ وَالْحِشْمَةِ.

وَكَانَ الْوَلِيدُ مِنْ وُجَهَاءِ قُرَيْشٍ، وَصَنَادِيدِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ لُقِّبَ: الْوَحِيدَ، وَرَيْحَانَةَ قُرَيْشٍ.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾[2]: اسْتِبْعَادٌ وَاسْتِنْكَارٌ لِطَمَعِهِ وَحِرْصِهِ، يَعْنِي أَنَّهُ لَا مَزِيدَ عَلَى مَا أُوتِيَ سِعَةً وَكَثْرَةً.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فَمَا خُلِقَتِ الْجَنَّةُ إِلَّا لِي.

﴿كَلا﴾[3]: رَدْعٌ لَهُ وَقَطْعٌ لِرَجَائِهِ وَطَمَعِهِ.

﴿إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾[4]: تَعْلِيلٌ لِلرَّدْعِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِئْنَافِ كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: لِمَ لَا يُزَادُ؟ فَقِيلَ: إِنَّهُ عَانَدَ آيَاتِ الْمُنْعِمِ وَكَفَرَ بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ، وَالْكَافِرُ لَا يَسْتَحِقُّ الْمَزِيدَ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ مَا زَالَ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي نُقْصَانٍ مِنْ مَالِهِ حَتَّى هَلَكَ.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾[5]] الْمُدَّثِّرِ: 17]: سَأُغْشِيهِ عَقَبَةً شَاقَّةَ الْمِصْعَدِ، وَهُوَ مَثَلٌ لِمَا يَلْقَى مِنَ الْعَذَابِ الشَّاقِّ الصَّعَدِ الَّذِي لَا يُطَاقُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "يُكَلَّفُ أَنْ يَصْعَدَ عَقَبَةً فِي النَّارِ كُلَّمَا وَضَعَ عَلَيْهَا يَدَهُ ذَابَتْ، فَإِذَا رَفَعَهَا عَادَتْ، وَإِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ ذَابَتْ، فَإِذَا رَفَعَهَا عَادَتْ".

وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا ثُمَّ يَهْوِي فِيهِ كَذَلِكَ أَبَدًا".

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾[6]: تَعْلِيلٌ لِلْوَعِيدِ، كَأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– عَاجَلَهُ بِالْفَقْرِ بَعْدَ الْغِنَى، وَالذُّلِّ بَعْدَ الْعِزِّ فِي الدُّنْيَا بِعِنَادِهِ، وَيُعَاقِبُ فِي الْآخِرَةِ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ وَأَفْظَعِهِ لِبُلُوغِهِ بِالْعِنَادِ غَايَتَهُ وَأَقْصَاهُ فِي تَفْكِيرِهِ، وَتَسْمِيَتِهِ الْقُرْآنَ سِحْرًا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ الرَّدْعِ مَتْبُوعَةً بِقَوْلِهِ: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾[1]، رَدًّا لِزَعْمِهِ أَنَّ الْجَنَّةَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُ، وَإِخْبَارًا بِأَنَّهُ مِنْ أَشَدِّ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا، وَيُعَلَّلُ ذَلِكَ بِعِنَادِهِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾[2] بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾[3]: بَيَانًا لِكُنْهِ عِنَادِهِ.

وَمَعْنَاهُ: "فَكَّرَ" مَاذَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ.

﴿وَقَدَّرَ﴾[4] فِي نَفْسِهِ مَا يَقُولُ وَهَيَّأَهُ، ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[5]: تَعْجِيبٌ مِنْ تَقْدِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ فِيهِ الْمَحَزَّ. وَرَمْيِهِ الْغَرَضَ الَّذِي كَانَ تَنْتَحِيهِ قُرَيْشٌ. أَوْ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِهْزَاءِ بِهِ أَوْ هِيَ حِكَايَةٌ لِمَا كَرَّرُوهُ مِنْ قَوْلِهِمْ.

﴿قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[6]: تَهَكُّمًا بِهِمْ وَبِإِعْجَابِهِمْ بِتَقْدِيرِهِ، وَاسْتِعْظَامِهِمْ لِقَوْلِهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: قَتَلَهُ اللَّهُ مَا أَشْجَعَهُ. وَأَخْزَاهُ اللَّهُ مَا أَشْعَرَهُ: الْإِشْعَارُ بِأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الْمَبْلَغَ الَّذِي هُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُحْسَدَ وَيَدْعُوَ عَلَيْهِ حَاسِدُهُ بِذَلِكَ.

رُوِيَ: أَنَّ الْوَلِيدَ قَالَ لِبَنِي مَخْزُومٍ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ آنِفًا كَلَامًا مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَمَا يُعْلَى، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: صَبَأَ وَاللَّهِ الْوَلِيدُ، وَاللَّهِ لَتَصْبَأَنَّ قُرَيْشٌ كُلُّهُمْ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَنَا أَكْفِيكُمُوهُ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ حَزِينًا وَكَلَّمَهُ بِمَا أَحْمَاهُ فَقَامَ فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَخْنُقُ، وَتَقُولُونَ إِنَّهُ كَاهِنٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ قَطُّ يَتَكَهَّنُ، وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَاعِرٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَعَاطَى شِعْرًا قَطُّ، وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذَّابٌ، فَهَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْكَذِبِ، فَقَالُوا فِي كُلِّ ذَلِكَ: اللَّهُمَّ لَا، ثُمَّ قَالُوا: فَمَا هُوَ؟ فَفَكَّرَ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا سَاحِرٌ. أَمَا رَأَيْتُمُوهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَوَالِيهِ، وَمَا الَّذِي يَقُولُهُ إِلَّا سِحْرٌ يَأْثُرُهُ عَنْ مُسَيْلِمَةَ وَعَنْ أَهْلِ بَابِلَ، فَارْتَجَّ النَّادِي فَرَحًا، وَتَفَرَّقُوا مُعْجَبِينَ بِقَوْلِهِ مُتَعَجِّبِينَ مِنْهُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾[1] فِي وُجُوهِ النَّاسِ، ثُمَّ قَطَّبَ وَجْهَهُ، ثُمَّ زَحَفَ مُدَبِّرًا، وَتَشَاوَسَ مُسْتَكْبِرًا لَمَّا خَطَرَتْ بِبَالِهِ الْكَلِمَةُ الشَّنْعَاءُ، وَهَمَّ بِأَنْ يَرْمِيَ بِهَا وَصْفَ أَشْكَالِهِ الَّتِي تَشَكَّلَ بِهَا حَتَّى اسْتَنْبَطَ مَا اسْتَنْبَطَ، اسْتِهْزَاءً بِهِ.

وَقِيلَ: قَدَّرَ مَا يَقُولُهُ، ثُمَّ نَظَرَ فِيهِ، ثُمَّ عَبَسَ لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْحِيَلُ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ.

وَقِيلَ: قَطَّبَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾[2] عَنِ الْحَقِّ، ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾[3] عَنْهُ، فَقَالَ مَا قَالَ.

وَ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾[4] عَطْفٌ عَلَى ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾[5]، وَالدُّعَاءُ: اعْتِرَاضٌ بَيْنِهِمَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾[6] الدَّاخِلَةِ فِي تَكْرِيرِ الدُّعَاءِ؟ قُلْتُ، الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْكَرَّةَ الثَّانِيَةَ أَبْلَغُ مِنَ الْأُولَى. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ:

أَلَا يَا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي.....

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الْمُتَوَسِّطَةِ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي بَعْدَهَا؟

قُلْتُ: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَأَنَّى فِي التَّأَمُّلِ وَتَمَهَّلَ، وَكَأَنَّ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الْمُتَنَاسِقَةِ تَرَاخِيًا وَتَبَاعُدًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ قِيلَ: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا﴾[7] بِالْفَاءِ بَعْدَ عَطْفِ مَا قَبْلَهُ بِثُمَّ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْكَلِمَةَ لَمَّا خَطَرَتْ بِبَالِهِ بَعْدَ التَّطَلُّبِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ نَطَقَ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَلَبُّثٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ لَمْ يُوَسِّطْ حَرْفَ الْعَطْفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْأُخْرَى جَرَتْ مِنَ الْأُولَى مَجْرَى التَّوْكِيدِ مِنَ الْمُؤَكَّدِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾[1]

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[2] بَدَلٌ مِنْ ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا، لا تُبْقِي﴾[3] شَيْئًا يُلْقَى فِيهَا إِلَّا أَهْلَكَتْهُ، وَإِذَا هَلَكَ لَمْ تَذَرْهُ هَالِكًا حَتَّى يُعَادَ. أَوْ لَا تُبْقِي عَلَى شَيْءٍ، وَلَا تَدَعُهُ مِنَ الْهَلَاكِ، بَلْ كُلُّ مَا يُطْرَحُ فِيهَا هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ.

﴿لَوَّاحَةٌ﴾[4]: مِنْ لَوَّحَ الْهَجِيرُ.

قَالَ:

تَقُولُ مَا لَاحَكَ يَا مُسَافِرُ؟ يَا ابْنَةَ عَمِّي لَاحَنِي الْهَوَاجِرُ

قِيلَ: تَلْفَحُ الْجِلْدَ لَفْحَةً فَتَدَعُهُ أَشَدَّ سَوَادًا مِنَ اللَّيْلِ. وَالْبَشَرُ: أَعَالِي الْجُلُودِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: تَلُوحُ لِلنَّاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[5]]التَّكَاثُرِ: 7].

وَقُرِئَ: لَوَّاحَةً نَصْبًا عَلَى الِاخْتِصَاصِ لِلتَّهْوِيلِ.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[6]، أَيْ: يَلِي أَمْرَهَا وَيَتَسَلَّطُ عَلَى أَهْلِهَا تِسْعَةَ عَشَرَ مَلَكًا.

وَقِيلَ: صِنْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقِيلَ: صِفَةً. وَقِيلَ: نَقِيبًا.

وَقُرِئَ: "تِسْعَةَ عْشَرَ، بِسُكُونِ الْعَيْنِ لِتَوَالِي الْحَرَكَاتِ فِي مَا هُوَ فِي حُكْمِ اسْمٍ وَاحِدٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: تِسْعَةَ أَعْشُرٍ جَمْعِ عَشِيرٍ، مِثْلَ: يَمِينٍ وَأَيْمُنٍ جَعَلَهُمْ مَلَائِكَةً لِأَنَّهُمْ خِلَافُ جِنْسِ الْمُعَذَّبِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَلَا يَأْخُذُهُمْ مَا يَأْخُذُ الْمُجَانِسَ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرِّقَّةِ، وَلَا يَسْتَرْوِحُونَ إِلَيْهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ أَقْوَمُ خَلْقِ اللَّهِ بِحَقِّ اللَّهِ وَبِالْغَضَبِ لَهُ، فَتُؤْمَنُ هَوَادَتُهُمْ، وَلِأَنَّهُمْ أَشَدُّ الْخَلْقِ بَأْسًا وَأَقْوَاهُمْ بَطْشًا.

عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ: وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَدْفَعُ بِالدُّفْعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي جَهَنَّمَ أَكْثَرَ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "كَأَنَّ أَعْيُنَهُمُ الْبَرْقُ، وَكَأَنَّ أَفْوَاهَهُمُ الصَّيَاصِي يَجُرُّونَ أَشْعَارَهُمْ، لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ قُوَّةِ الثَّقَلَيْنِ، يَسُوقُ أَحَدُهُمُ الْأُمَّةَ وَعَلَى رَقَبَتِهِ جَبَلٌ، فَيَرْمِي بِهِمْ فِي النَّارِ بِالْجَبَلِ عَلَيْهِمْ".

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1] قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِقُرَيْشٍ: ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ، أَسْمَعُ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ يُخْبِرُكُمْ أَنَّ خَزَنَةَ النَّارِ تِسْعَةَ عَشَرَ وَأَنْتُمُ الدُّهْمُ، أَيَعْجِزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِرَجُلٍ مِنْهُمْ؟! فَقَالَ أَبُو الْأَشَدِّ بْنُ أُسَيْدِ بْنُ كِلْدَةَ الْجُمَحِيُّ –وَكَانَ شَدِيدَ الْبَطْشِ–: أَنَا أَكْفِيكُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ، فَاكْفُونِي أَنْتُمُ اثْنَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً﴾[2]، أَيْ: مَا جَعَلْنَاهُمْ رِجَالًا مِنْ جِنْسِكُمْ يُطَاقُونَ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ جَعَلَ افْتِتَانَ الْكَافِرِينَ بِعِدَّةِ الزَّبَانِيَةِ سَبَبًا لِاسْتِيقَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَزِيَادَةِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِهْزَاءً الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَمَا وَجْهُ صِحَّةِ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: مَا جَعَلَ افْتِتَانَهُمْ بِالْعِدَّةِ سَبَبًا لِذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْعِدَّةُ نَفْسُهَا هِيَ الَّتِي جُعِلَتْ سَبَبًا، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]: وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا تِسْعَةَ عَشَرَ، فَوَضَعَ: ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَوْضِعَ تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[4]، لِأَنَّ حَالَ هَذِهِ الْعِدَّةِ النَّاقِصَةِ وَاحِدًا مِنْ عَقْدِ الْعِشْرِينَ أَنْ يُفْتَتَنَ بِهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِحِكْمَتِهِ وَيَعْتَرِضَ وَيَسْتَهْزِئَ، وَلَا يُذْعِنَ إِذْعَانَ الْمُؤْمِنِ، وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْهِ وَجْهُ الْحِكْمَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَقَدْ جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ عِدَّةً مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يُفْتَتَنَ بِهَا، لِأَجْلِ اسْتِيقَانِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَيْرَةِ الْكَافِرِينَ وَاسْتِيقَانِ أَهْلِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

الْكِتَابِ؛ لِأَنَّ عِدَّتَهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ فِي الْكِتَابَيْنِ، فَإِذَا سَمِعُوا بِمِثْلِهَا فِي الْقُرْآنِ أَيْقَنُوا أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ، وَازْدِيَادُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا لِتَصْدِيقِهِمْ بِذَلِكَ كَمَا صَدَّقُوا سَائِرَ مَا أُنْزِلَ، وَلِمَا رَأَوْا مِنْ تَسْلِيمِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَصْدِيقِهِمْ أَنَّهُ كَذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1] وَالِاسْتِيقَانُ وَازْدِيَادُ الْإِيمَانِ دَالًّا عَلَى انْتِفَاءِ الِارْتِيَابِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ إِذَا جُمِعَ لَهُمْ إِثْبَاتُ الْيَقِينِ وَنَفْيُ الشَّكِّ. كَانَ آكَدَ وَأَبْلَغَ لِوَصْفِهِمْ بِسُكُونِ النَّفْسِ وَثَلْجِ الصَّدْرِ، وَلِأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضًا بِحَالِ مَنْ عَدَاهُمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَلِتُخَالِفَ حَالُهُمْ حَالَ الشَّاكِّينَ الْمُرْتَابِينَ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْكُفْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ ذَكَرَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ نِفَاقٌ، وَإِنَّمَا نَجَمَ بِالْمَدِينَةِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: وَلِيَقُولَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يَنْجِمُونَ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ.

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾[2] بِمَكَّةَ ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا﴾[3]، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِلَّا إِخْبَارٌ بِمَا سَيَكُونُ كَسَائِرِ الْإِخْبَارَاتِ بِالْغُيُوبِ، وَذَلِكَ لَا يُخَالِفُ كَوْنَ السُّورَةِ مَكِّيَّةً.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْمَرَضِ: الشَّكُّ وَالِارْتِيَابُ، لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ شَاكِّينَ وَبَعْضُهُمْ قَاطِعِينَ بِالْكَذِبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ عَلَّلَ جَعْلَهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ بِالِاسْتِيقَانِ وَانْتِفَاءِ الِارْتِيَابِ قَوْلَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ مَا قَالُوا؛ فَهَبْ أَنَّ الِاسْتِيقَانَ وَانْتِفَاءَ الِارْتِيَابِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَا غَرَضَيْنِ، فَكَيْفَ صَحَّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ الْمُنَافِقِينَ غَرَضًا؟

قُلْتُ: أَفَادَتِ اللَّامُ مَعْنَى الْعِلَّةِ وَالسَّبَبِ، وَلَا يَجِبُ فِي الْعِلَّةِ أَنْ تَكُونَ غَرَضًا، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِكَ: خَرَجْتُ مِنَ الْبَلَدِ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ، فَقَدْ جَعَلْتَ الْمَخَافَةَ عِلَّةً لِخُرُوجِكَ وَمَا هِيَ بِغَرَضِكَ؟!

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿مَثَلا﴾[1]: تَمْيِيزٌ لِهَذَا، أَوْ حَالٌ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾[2]]الْأَعْرَافِ: 73].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سَمَّوْهُ مَثَلًا؟ قُلْتُ: هُوَ اسْتِعَارَةٌ مِنَ الْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ، لِأَنَّهُ مِمَّا غَرُبَ مِنَ الْكَلَامِ وَبَدُعَ، اسْتِغْرَابًا مِنْهُمْ لِهَذَا الْعَدَدِ وَاسْتِبْدَاعًا لَهُ.

وَالْمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا الْعَدَدِ الْعَجِيبِ، وَأَيُّ غَرَضٍ قُصِدَ فِي أَنَّ جَعْلَ الْمَلَائِكَةِ تِسْعَةَ عَشَرَ لَا عِشْرِينَ سَوَاءً، وَمُرَادُهُمْ إِنْكَارُهُ مِنْ أَصْلِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَمَا جَاءَ بِهَذَا الْعَدَدِ النَّاقِصِ.

الْكَافُ فِي ﴿كَذَلِكَ﴾[3] نَصْبٌ، وَذَلِكَ: إِشَارَةٌ إِلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ مَعْنَى الْإِضْلَالِ وَالْهُدَى، أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ مِنَ الْإِضْلَالِ وَالْهُدَى يُضِلُّ الْكَافِرِينَ وَيَهْدِي الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي: يَفْعَلُ فِعْلًا حَسَنًا مَبْنِيًّا عَلَى الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ، فَيَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ حِكْمَةً وَيُذْعِنُونَ لَهُ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ كُلَّهَا حَسَنَةٌ وَحِكْمَةٌ فَيَزِيدُهُمْ إِيمَانًا، وَيُنْكِرُهُ الْكَافِرُونَ وَيَشُكُّونَ فِيهِ فَيَزِيدُهُمْ كُفْرًا وَضَلَالًا.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾[4] وَمَا عَلَيْهِ كُلُّ جُنْدٍ مِنَ الْعَدَدِ الْخَاصِّ مِنْ كَوْنِ بَعْضِهَا عَلَى عَقْدٍ كَامِلٍ وَبَعْضِهَا عَلَى عَدَدٍ نَاقِصٍ، وَمَا فِي اخْتِصَاصِ كُلِّ جُنْدٍ بِعَدَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴿إِلا هُوَ﴾[5].

وَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ كَمَا لَا يُعْرَفُ الْحِكْمَةُ فِي أَعْدَادِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَأَيَّامِ السَّنَةِ وَالشُّهُورِ وَالْبُرُوجِ وَالْكَوَاكِبِ وَأَعْدَادِ النُّصُبِ وَالْحُدُودِ وَالْكَفَّارَاتِ وَالصَّلَوَاتِ فِي الشَّرِيعَةِ أَوْ: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ لِفَرْطِ كَثْرَتِهَا إِلَّا هُوَ، فَلَا يَعِزُّ عَلَيْهِ تَتْمِيمُ الْخَزَنَةِ عِشْرِينَ؛ وَلَكِنْ لَهُ فِي هَذَا الْعَدَدِ الْخَاصِّ حِكْمَةٌ لَا تَعْلَمُونَهَا، وَهُوَ يَعْلَمُهَا.

وَقِيلَ: هُوَ جَوَابٌ لِقَوْلِ أَبِي جَهْلٍ: أَمَا لِرَبِّ مُحَمَّدٍ أَعْوَانٌ إِلَّا تِسْعَةَ عَشَرَ؟

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾[6] -إِلَى قَوْلِهِ-: "إِلَّا هُوَ" اعْتِرَاضٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى﴾[1] مُتَّصِلٌ بِوَصْفِ سَقَرَ؛ وَهِيَ ضَمِيرُهَا. أَيْ: وَمَا سَقَرُ وَصِفَتُهَا إِلَّا تَذْكِرَةً ﴿لِلْبَشَرِ﴾[2] أَوْ ضَمِيرُ الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[3]

﴿كَلَّا﴾[4]: إِنْكَارٌ بَعْدَ أَنْ جَعَلَهَا ذِكْرَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ ذِكْرَى؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ، أَوْ رَدْعٌ لِمَنْ يُنْكِرُ أَنْ تَكُونَ إِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا.

وَ"دَبَرَ" بِمَعْنَى أَدْبَرَ، كَقَبَلَ بِمَعْنَى أَقْبَلَ. وَمِنْهُ صَارُوا كَأَمْسِ الدَّابِرِ. وَقِيلَ: هُوَ مِنْ دَبَرَ اللَّيْلُ النَّهَارَ إِذَا خَلَفَهُ. وَقُرِئَ "إِذَا أَدْبَرَ".

﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾[5] جَوَابُ الْقَسَمِ أَوْ تَعْلِيلٌ لِكَلَّا، وَالْقَسَمُ مُعْتَرِضٌ لِلتَّوْكِيدِ. وَالْكُبَرُ: جَمْعُ الْكُبْرَى، جُعِلَتْ أَلِفُ التَّأْنِيثِ كَتَائِهَا، فَلَمَّا جُمِعَتْ فُعْلَةُ عَلَى فُعَلَ: جُمِعَتْ فُعْلَى عَلَيْهَا. وَنَظِيرُ ذَلِكَ: السَّوَافِي فِي جَمْعِ السَّافِيَاءِ. وَالْقَوَاصِعُ فِي جَمْعِ الْقَاصِعَاءِ، كَأَنَّهَا جَمْعُ فَاعِلَةٍ، أَيْ: لِإِحْدَى الْبَلَايَا أَوِ الدَّوَاهِي الْكُبَرِ.

وَمَعْنَى كَوْنِهَا إِحْدَاهُنَّ: أَنَّهَا مِنْ بَيْنِهِنَّ وَاحِدَةٌ فِي الْعِظَمِ لَا نَظِيرَةَ لَهَا. كَمَا تَقُولُ: هُوَ أَحَدُ الرِّجَالِ، وَهِيَ إِحْدَى النِّسَاءِ.

وَ﴿نَذِيرًا﴾[6]: تَمْيِيزٌ مِنْ إِحْدَى، عَلَى مَعْنَى: إِنَّهَا لِإِحْدَى الدَّوَاهِي إِنْذَارًا، كَمَا تَقُولُ: هِيَ إِحْدَى النِّسَاءِ عَفَافًا.

وَقِيلَ: هِيَ حَالٌ. وَقِيلَ: هُوَ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ السُّورَةِ، يَعْنِي: قُمْ نَذِيرًا، وَهُوَ مِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

. وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي نَذِيرٍ بِالرَّفْعِ؛ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ "لِأَنْ" أَوْ بِحَذْفِ الْمُبْتَدَأِ ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾[1] فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ بِالِابْتِدَاءِ. وَلِمَنْ شَاءَ: خَبَرٌ مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: لِمَنْ تَوَضَّأَ أَنْ يُصَلِّيَ، وَمَعْنَاهُ مُطْلَقٌ لِمَنْ شَاءَ التَّقَدُّمَ أَوِ التَّأَخُّرَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ، وَالْمُرَادُ بِالتَّقَدُّمِ وَالتَّأَخُّرِ: السَّبْقُ إِلَى الْخَيْرِ وَالتَّخَلُّفُ عَنْهُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2]]الْكَهْفِ: 29].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿لِمَنْ شَاءَ﴾[3] بَدَلًا مِنْ ﴿لِلْبَشَرِ﴾[4] عَلَى أَنَّهَا مُنْذِرَةٌ لِلْمُكَلَّفِينَ الْمُمَكَّنِينَ: الَّذِينَ إِنْ شَاءُوا تَقَدَّمُوا فَفَازُوا وَإِنْ شَاءُوا تَأَخَّرُوا فَهَلَكُوا.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[5]

﴿رَهِينَةٌ﴾[6] لَيْسَتْ بِتَأْنِيثِ رَهِينٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[7]]الطُّورِ: 21]، لِتَأْنِيثِ النَّفْسِ، لِأَنَّهُ لَوْ قُصِدَتِ الصِّفَةُ لَقِيلَ: رَهِينٌ، لِأَنَّ فَعِيلًا بِمَعْنَى مَفْعُولٍ يُسْتَوَى فِيهِ الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ. وَإِنَّمَا هِيَ اسْمٌ بِمَعْنَى الرَّهْنِ، كَالشَّتِيمَةِ بِمَعْنَى الشَّتْمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهْنٌ، وَمِنْهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

أَبْعَدَ الَّذِي بِالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ رَهِينَةِ رَمْسٍ ذِي تُرَابٍ وَجَنْدَلِ

كَأَنَّهُ قَالَ: رَهْنُ رَمْسٍ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَالْمَعْنَى: كُلُّ نَفْسٍ رَهْنٌ بِكَسْبِهَا، عِنْدٌ بِكَسْبِهَا عِنْدَ اللَّهِ غَيْرُ مَفْكُوكٍ.

﴿إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾[1]، فَإِنَّهُمْ فَكُّوا عَنْهُ رِقَابَهُمْ بِمَا أَطَابُوهُ مِنْ كَسْبِهِمْ، كَمَا يُخَلِّصُ الرَّاهِنُ رَهْنَهُ بِأَدَاءِ الْحَقِّ.

وَعَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهُ فَسَّرَ أَصْحَابَ الْيَمِينِ بِالْأَطْفَالِ، لِأَنَّهُمْ لَا أَعْمَالَ لَهُمْ يَرْتَهِنُونَ بِهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: هُمُ الْمَلَائِكَةُ.

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾[2]، أَيْ: هُمْ فِي جَنَّاتٍ لَا يُكْتَنَهُ وَصْفُهَا.

﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾[3]: يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْهُمْ. أَوْ يَتَسَاءَلُونَ غَيْرَهُمْ عَنْهُمْ، كَقَوْلِكَ: دَعَوْتُهُ وَتَدَاعَيْنَاهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ طَابَقَ قَوْلُهُ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾[4]، وَهُوَ سُؤَالٌ لِلْمُجْرِمِينَ قَوْلَهُ: ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾[5]، وَهُوَ سُؤَالٌ عَنْهُمْ؟ وَإِنَّمَا كَانَ يَتَطَابَقُ ذَلِكَ لَوْ قِيلَ: يَتَسَاءَلُونَ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ.

قُلْتُ: مَا سَلَكَكُمْ لَيْسَ بِبَيَانٍ لِلتَّسَاؤُلِ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ حِكَايَةُ قَوْلِ الْمَسْؤُولِينَ عَنْهُمْ، لِأَنَّ الْمَسْؤُولِينَ يُلْقُونَ إِلَى السَّائِلِينَ مَا جَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُجْرِمِينَ، فَيَقُولُونَ: قُلْنَا لَهُمْ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[6]، إِلَّا أَنَّ الْكَلَامَ جِيءَ بِهِ عَلَى الْحَذْفِ وَالِاخْتِصَارِ، كَمَا هُوَ نَهْجُ التَّنْزِيلِ فِي غَرَابَةِ نَظْمِهِ.

الْخَوْضُ: الشُّرُوعُ فِي الْبَاطِلِ وَمَا لَا يَنْبَغِي.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ يَسْأَلُونَهُمْ، وَهُمْ عَالِمُونَ بِذَلِكَ؟

قُلْتُ: تَوْبِيخًا لَهُمْ وَتَحْسِيرًا، وَلِيَكُونَ حِكَايَةُ اللَّهِ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ تَذْكِرَةً لِلسَّامِعِينَ. وَقَدْ عَضَّدَ بَعْضُهُمْ تَفْسِيرَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ بِالْأَطْفَالِ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوهُمْ لِأَنَّهُمْ وِلْدَانٌ لَا يَعْرِفُونَ مُوجِبَ دُخُولِ النَّارِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُرِيدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَرْبَعِ دَخَلَ النَّارَ، أَمْ دَخَلَهَا بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ وَبَعْضُهُمْ بِهَذِهِ؟

قُلْتُ: يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أَخَّرَ التَّكْذِيبَ وَهُوَ أَعْظَمُهَا؟

قُلْتُ: أَرَادُوا أَنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ كَانُوا مُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ تَعْظِيمًا لِلتَّكْذِيبِ. كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]]الْبَلَدِ: 17].

وَ﴿الْيَقِينُ﴾[2] الْمَوْتُ وَمُقَدِّمَاتُهُ، أَيْ: لَوْ شَفَعَ لَهُمُ الشَّافِعُونَ جَمِيعًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ، لَمْ تَنْفَعْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ، لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لِمَنِ ارْتَضَاهُ اللَّهُ، وَهُمْ مَسْخُوطٌ عَلَيْهِمْ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّفَاعَةَ تَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ، لِأَنَّهَا تَزِيدُ فِي دَرَجَاتِ الْمُرْتَضِينَ.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً كَلَا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾[3]

﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ﴾[4]: عَنِ التَّذْكِيرِ، وَهُوَ الْعِظَةُ، يُرِيدُ: الْقُرْآنَ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ الْمَوَاعِظِ.

وَ﴿مُعْرِضِينَ﴾[5]: نُصِبَ عَلَى الْحَالِ، كَقَوْلِكَ: مَا لَكَ قَائِمًا.

وَالْمُسْتَنْفِرَةُ: الشَّدِيدَةُ النِّفَارِ كَأَنَّهَا تَطْلُبُ النِّفَارَ مِنْ نُفُوسِهَا فِي جَمْعِهَا لَهُ وَحَمْلِهَا عَلَيْهِ.

وَقُرِئَ بِالْفَتْحِ: وَهِيَ الْمُنَفَّرَةُ الْمَحْمُولَةُ عَلَى النِّفَارِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَالْقَسْوَرَةُ: جَمَاعَةُ الرُّمَاةِ الَّذِينَ يَتَصَيَّدُونَهَا.

وَقِيلَ: الْأَسَدُ. يُقَالُ: لُيُوثٌ قَسَاوِرُ. وَهِيَ فَعُولَةٌ مِنَ الْقَسْرِ: وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْغَلَبَةُ، وَفِي وَزْنِهِ "الْحَيْدَرَةُ" مِنْ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: رِكْزُ النَّاسِ وَأَصْوَاتُهُمْ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، شَبَّهَهُمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ وَاسْتِمَاعِ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَشِرَادِهِمْ عَنْهُ، بِحُمُرٍ جَدَّتْ فِي نِفَارِهَا مِمَّا أَفْزَعَهَا.

وَفِي تَشْبِيهِهِمْ بِالْحُمُرِ: مَذَمَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَتَهْجِينٌ لِحَالِهِمْ بَيِّنٌ. كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[1]]الْجُمُعَةِ: 55]. وَشَهَادَةٌ عَلَيْهِمْ بِالْبَلَهِ وَقِلَّةِ الْعَقْلِ. وَلَا تَرَى مِثْلَ نِفَارِ حَمِيرِ الْوَحْشِ وَاطِّرَادِهَا فِي الْعَدْوِ إِذَا رَأَبَهَا رَائِبٌ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَكْثَرُ تَشْبِيهَاتِ الْعَرَبِ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَشِدَّةِ سَيْرِهَا بِالْحُمُرِ، وَعَدْوِهَا إِذَا وَرَدَتْ مَاءً فَأَحَسَّتْ عَلَيْهِ بِقَانِصٍ.

﴿صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾[2]: قَرَاطِيسَ تُنْشَرُ وَتُقْرَأُ كَالْكُتُبِ الَّتِي يُتَكَاتَبُ بِهَا أَوْ كُتُبًا كُتِبَتْ فِي السَّمَاءِ وَنَزَلَتْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ سَاعَةَ كُتِبَتْ مُنَشَّرَةً عَلَى أَيْدِيهَا غَضَّةً رَطْبَةً لَمْ تُطْوَ بَعْدُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَنْ نَتَّبِعَكَ حَتَّى تَأْتِيَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكُتُبٍ مِنَ السَّمَاءِ عُنْوَانُهَا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، نُؤْمَرُ فِيهَا بِاتِّبَاعِكَ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾[3]]الْإِسْرَاءِ: 93]. وَقَالَ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾[4]]الْأَنْعَامِ: 77]. الْآيَةَ..

وَقِيلَ: قَالُوا: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فَلْيُصْبِحْ عِنْدَ رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا صَحِيفَةٌ فِيهَا بَرَاءَتُهُ وَأَمْنُهُ مِنَ النَّارِ.

وَقِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ: بَلَغَنَا أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يُصْبِحُ مَكْتُوبًا عَلَى رَأْسِهِ ذَنْبُهُ وَكَفَّارَتُهُ، فَأْتِنَا بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَهَذَا مِنَ الصُّحُفِ الْمُنَشَّرَةِ بِمَعْزِلٍ. إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالصُّحُفِ الْمُنَشَّرَةِ: الْكِتَابَاتُ الظَّاهِرَةُ الْمَكْشُوفَةُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: "صُحْفًا مُنْشَرَةً" بِتَخْفِيفِهِمَا، عَلَى أَنَّ أَنْشَرَ الصُّحُفَ وَنَشَرَهَا: وَاحِدٌ، كَأَنْزَلَهُ وَنَزَّلَهُ. رَدَعَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿كَلا﴾[1] عَنْ تِلْكَ الْإِرَادَةِ، وَزَجَرَهُمْ عَنِ اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾[2]، فَلِذَلِكَ أَعْرَضُوا عَنِ التَّذْكِرَةِ لَا لِامْتِنَاعِ إِيتَاءِ الصُّحُفِ، ثُمَّ رَدَعَهُمْ عَنْ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾[3]، يَعْنِي تَذْكِرَةً بَلِيغَةً كَافِيَةً، مُبْهَمٌ أَمْرُهَا فِي الْكِفَايَةِ.

﴿فَمَنْ شَاءَ﴾[4] أَنْ يَذْكُرَهُ وَلَا يَنْسَاهُ وَيَجْعَلَهُ نُصْبَ عَيْنِهِ فَعَلَ، فَإِنَّ نَفْعَ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ. وَالضَّمِيرُ فِي: ﴿إِنَّهُ﴾ وَ﴿ذَكَرَهُ﴾[5] لِلتَّذْكِرَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾[6]]الْمُدَّثِّرِ: 49].

وَإِنَّمَا ذُكِرَ، لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى الذِّكْرِ أَوِ الْقُرْآنِ.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[7]، يَعْنِي: إِلَّا أَنْ يَقْسِرَهُمْ عَلَى الذِّكْرِ وَيُلْجِئَهُمْ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ مَطْبُوعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ، مَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ اخْتِيَارًا.

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾[8] هُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَتَّقِيَهُ عِبَادُهُ، وَيَخَافُوا عِقَابَهُ، فَيُؤْمِنُوا وَيُطِيعُوا، وَحَقِيقٌ بِأَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ إِذَا آمَنُوا وَأَطَاعُوا.

وَرَوَى أَنَسٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُتَّقَى، وَأَهْلٌ أَنْ يَغْفِرَ لِمَنِ اتَّقَاهُ".

وَقُرِئَ: ﴿يَذْكُرُونَ﴾[9] بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ مُخَفَّفًا وَمُشَدَّدًا.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [الْمُدَّثِّرِ] أَعْطَاهُ اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ وَكَذَّبَ بِهِ بِمَكَّةَ".

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

سورة التوبة

سورة القيامة

مَكِّيَّةٌ،
وَآيَاتُهَا أَرْبَعُونَ
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْقَارِعَةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[1]

إِدْخَالُ ﴿لا﴾[2] النَّافِيَةِ عَلَى فِعْلِ الْقَسَمِ مُسْتَفِيضٌ فِي كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ.

قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيْ يِ لَا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرّ

وَقَالَ غَوْثَةُ بْنُ سَلْمَى:

أَلَا نَادَتْ أُمَامَةُ بِاحْتِمَالِ لِتَحْزُنَنِي فَلَا بِكِ مَا أُبَالِي

وَفَائِدَتُهَا تَوْكِيدُ الْقَسَمِ، وَقَالُوا: إِنَّهَا صِلَةٌ مِثْلُهَا فِي ﴿لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[3]]الْحَدِيدِ: 29]. وَفِي قَوْلِهِ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

فِي بِئْرِ لَاحُوْرٍ سَرَى وَمَا شَعَرْ

وَاعْتَرَضُوا عَلَيْهِ بِأَنَّهَا إِنَّمَا تُزَادُ فِي وَسَطِ الْكَلَامِ لَا فِي أَوَّلِهِ، وَأَجَابُوا بِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي حُكْمِ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَّصِلٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَالِاعْتِرَاضُ صَحِيحٌ، لِأَنَّهَا لَمْ تَقَعْ مَزِيدَةً إِلَّا فِي وَسَطِ الْكَلَامِ، وَلَكِنَّ الْجَوَابَ غَيْرُ سَدِيدٍ.

أَلَا تَرَى إِلَى امْرِئِ الْقَيْسِ كَيْفَ زَادَهَا فِي مُسْتَهَلِّ قَصِيدَتِهِ. وَالْوَجْهُ أَنْ يُقَالَ: هِيَ لِلنَّفْيِ. وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يُقْسَمُ بِالشَّيْءِ إِلَّا إِعْظَامًا لَهُ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1]] الْوَاقِعَةِ: 75-766]. فَكَأَنَّهُ بِإِدْخَالِ حَرْفِ النَّفْيِ يَقُولُ: إِنَّ إِعْظَامِي لَهُ بِإِقْسَامِي بِهِ كَلَا إِعْظَامٍ، يَعْنِي أَنَّهُ يَسْتَأْهِلُ فَوْقَ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: إِنَّ "لَا" نَفْيٌ لِكَلَامٍ وَرَدَ لَهُ قَبْلَ الْقَسَمِ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، فَقِيلَ: لَا، أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرْتُمْ، ثُمَّ قِيلَ: أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[2]النِّسَاءِ: 655]، وَالْأَبْيَاتُ الَّتِي أَنْشَدْتَهَا: الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ فِيهَا مَنْفِيٌّ، فَهَلَّا زَعَمْتَ أَنَّ "لَا" الَّتِي قَبْلَ الْقَسَمِ زِيدَتْ مُوَطِّئَةً لِلنَّفْيِ بَعْدَهُ وَمُؤَكِّدَةً لَهُ، وَقَدَّرْتَ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ الْمَحْذُوفُ هَهُنَا مَنْفِيًّا، كَقَوْلِهِ: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[3]، لَا تُتْرَكُونَ سُدًى؟

قُلْتُ: لَوْ قُصِرَ الْأَمْرُ عَلَى النَّفْيِ دُونَ الْإِثْبَاتِ لَكَانَ لِهَذَا الْقَوْلِ مَسَاغٌ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُقْصَرْ.

أَلَا تَرَى كَيْفَ لَقِيَ ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[4]]الْبَلَدِ: 1] بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾[5]]التِّينِ: 4]. وَكَذَلِكَ ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾]6]الْوَاقِعَةِ: 75]. بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[7]؟!

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "لَأُقْسِمُ" عَلَى أَنَّ اللَّامَ لِلابْتِدَاءِ. وَأُقْسِمُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، مَعْنَاهُ: لَأَنَا أُقْسِمُ. قَالُوا: وَيُعَضِّدُهُ أَنَّهُ فِي الْإِمَامِ بِغَيْرِ أَلِفٍ.

﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1]: بِالنَّفْسِ الْمُتَّقِيَةِ الَّتِي تَلُومُ النُّفُوسَ فِيهِ؛ أَيْ فِي التَّقْوَى أَوْ بِالَّتِي لَا تَزَالُ تَلُومُ نَفْسَهَا وَإِنِ اجْتَهَدَتْ فِي الْإِحْسَانِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا لَائِمًا نَفْسَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ يَمْضِي قُدُمًا لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ.

وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي تَتَلَوَّمُ يَوْمَئِذٍ عَلَى تَرْكِ الِازْدِيَادِ إِنْ كَانَتْ مُحْسِنَةً.

وَعَلَى التَّفْرِيطِ إِنْ كَانَتْ مُسِيئَةً. وَقِيلَ: هِيَ نَفْسُ آدَمَ، لَمْ تَزَلْ تَتَلَوَّمُ عَلَى فِعْلِهَا الَّذِي خَرَجَتْ بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ.

وَجَوَابُ الْقَسَمِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[2]، وَهُوَ لَتُبْعَثُنَّ.

وَقَرَأَ قَتَادَةُ: "أَنْ لَنْ تُجْمَعَ عِظَامُهُ"، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَالْمَعْنَى: نَجْمَعُهَا بَعْدَ تَفَرُّقِهَا وَرُجُوعِهَا رَمِيمًا وَرُفَاتًا مُخْتَلِطًا بِالتُّرَابِ، وَبَعْدَمَا سَفَّتْهَا الرِّيَاحُ وَطَيَّرَتْهَا فِي أَبَاعِدِ الْأَرْضِ.

وَقِيلَ: إِنَّ عَدِيَّ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ خَتَنَ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ، وَهُمَا اللَّذَانِ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ فِيهِمَا: "اللَّهُمَّ اكْفِنِي جَارَيِ السُّوءِ" قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يَا مُحَمَّدُ، حَدِّثْنِي عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ أَمْرُهُ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: لَوْ عَايَنْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَمْ أُصَدِّقْكَ يَا مُحَمَّدُ وَلَمْ أُومِنْ بِهِ أَوَيَجْمَعُ اللَّهُ الْعِظَامَ، فَنَزَلَتْ: ﴿بَلَى﴾[3] أَوْجَبَتْ مَا بَعْدَ النَّفْيِ، وَهُوَ الْجَمْعُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: ﴿بَلَى﴾[4] نَجْمَعُهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَ﴿قَادِرِينَ﴾[1] حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي نَجْمَعَ، أَيْ: نَجْمَعَ الْعِظَامَ قَادِرِينَ عَلَى تَأْلِيفِ جَمِيعِهَا وَإِعَادَتِهَا إِلَى التَّرْكِيبِ الْأَوَّلِ إِلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ؛ أَيْ: أَصَابِعَهُ الَّتِي هِيَ أَطْرَافُهُ، وَآخِرُ مَا يَتِمُّ بِهِ خَلْقُهُ. أَوْ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ وَنَضُمَّ سُلَامَيَاتِهِ عَلَى صِغَرِهَا وَلَطَافَتِهَا بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ كَمَا كَانَتْ أَوَّلًا مِنْ غَيْرِ نُقْصَانٍ وَلَا تَفَاوُتٍ، فَكَيْفَ بِكِبَارِ الْعِظَامِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: بَلَى نَجْمَعُهَا وَنَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، أَيْ: نَجْعَلُهَا مُسْتَوِيَةً شَيْئًا وَاحِدًا كَخُفِّ الْبَعِيرِ وَحَافِرِ الْحِمَارِ لَا تَفَرُّقَ بَيْنَهَا، فَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا شَيْئًا مِمَّا يَعْمَلُ بِأَصَابِعِهِ الْمُفَرَّقَةِ ذَاتِ الْمَفَاصِلِ وَالْأَنَامِلِ مِنْ فُنُونِ الْأَعْمَالِ، وَالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وَالتَّأَنِّي لِمَا يُرِيدُ مِنَ الْحَوَائِجِ.

وَقُرِئَ: "قَادِرُونَ" أَيْ: نَحْنُ قَادِرُونَ.

﴿بَلْ يُرِيدُ﴾[2] عَطْفٌ عَلَى ﴿أَيَحْسَبُ﴾[3]، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ اسْتِفْهَامًا، وَأَنْ يَكُونَ إِيجَابًا عَلَى أَنْ يُضْرَبَ عَنْ مُسْتَفْهَمٍ عَنْهُ إِلَى آخَرَ، أَوْ يُضْرَبَ عَنْ مُسْتَفْهَمٍ عَنْهُ إِلَى مُوجَبٍ.

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[4]: لِيَدُومَ عَلَى فُجُورِهِ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَفِيمَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ الزَّمَانِ لَا يَنْزِعُ عَنْهُ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: يُقَدِّمُ الذَّنْبَ وَيُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ. يَقُولُ: سَوْفَ أَتُوبُ، سَوْفَ أَتُوبُ: حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ عَلَى شَرِّ أَحْوَالِهِ وَأَسْوَأِ أَعْمَالِهِ.

﴿يَسْأَلُ﴾[5]: سُؤَالَ مُتَعَنِّتٍ مُسْتَبْعِدٍ لِقِيَامِ السَّاعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[6]، وَنَحْوَهُ: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلا لا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[1]

﴿بَرِقَ الْبَصَرُ﴾[2] تَحَيَّرَ فَزِعًا، وَأَصْلُهُ مِنْ بَرِقَ الرَّجُلُ إِذَا نَظَرَ إِلَى الْبَرْقِ، فَدُهِشَ بَصَرُهُ.

وَقُرِئَ: "بَرَقَ" مِنَ الْبَرِيقِ، أَيْ لَمَعَ مِنْ شِدَّةِ شُخُوصِهِ.

وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ: بَلَقَ إِذَا انْفَتَحَ وَانْفَرَجَ. يُقَالُ: بَلَقَ الْبَابُ وَأَبْلَقْتُهُ وَبَلَّقْتُهُ: فَتَحْتُهُ.

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾[3]: وَذَهَبَ ضَوْؤُهُ، أَوْ ذَهَبَ بِنَفْسِهِ.

وَقُرِئَ: "وَخُسِفَ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[4] حَيْثُ يُطْلِعُهُمَا اللَّهُ مِنَ الْمَغْرِبِ.

وَقِيلَ: وَجُمِعَا فِي ذَهَابِ الضَّوْءِ وَقِيلَ: يُجْمَعَانِ أَسْوَدَيْنِ مُكَوَّرَيْنِ كَأَنَّهُمَا ثَوْرَانِ عَقِيرَانِ فِي النَّارِ.

وَقِيلَ: يُجْمَعَانِ ثُمَّ يُقْذَفَانِ فِي الْبَحْرِ، فَيَكُونُ نَارُ اللَّهِ الْكُبْرَى.

﴿الْمَفَرُّ﴾[5] بِالْفَتْحِ الْمَصْدَرُ، وَبِالْكَسْرِ: الْمَكَانُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا كَالْمَرْجِعِ.

وَقُرِئَ بِهِمَا ﴿كَلا﴾[6] رَدْعٌ عَنْ طَلَبِ الْمَفَرِّ ﴿لا وَزَرَ﴾[7]: لَا مَلْجَأَ، وَكُلُّ مَا الْتَجَأْتَ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَوْ غَيْرِهِ وَتَخَلَّصْتَ بِهِ، فَهُوَ وِزْرُكَ ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾[8] خَاصَّةً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[9]: مُسْتَقَرُّ الْعِبَادِ، أَيْ اسْتِقْرَارُهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْتَقِرُّوا إِلَى غَيْرِهِ وَيَنْصِبُوا إِلَيْهِ أَوْ إِلَى حُكْمِهِ تُرْجَعُ أُمُورُ الْعِبَادِ، لَا يَحْكُمُ فِيهَا غَيْرُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[1]]غَافِرٍ: 166]. أَوْ إِلَى رَبِّكَ مُسْتَقَرُّهُمْ، أَيْ: مَوْضِعُ قَرَارِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، أَيْ: مُفَوَّضٌ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَتِهِ، مَنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ النَّارَ.

﴿بِمَا قَدَّمَ﴾[2]: مِنْ عَمَلٍ عَمِلَهُ.

"وَ" بِمَا ﴿وَأَخَّرَ﴾[3] مِنْهُ لَمْ يَعْمَلْهُ أَوْ بِمَا قَدَّمَ مِنْ مَالِهِ فَتَصَدَّقَ بِهِ، أَوْ بِمَا أَخَّرَهُ فَخَلَفَهُ. وَبِمَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَبِمَا أَخَّرَ مِنْ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: بِأَوَّلِ عَمَلِهِ وَآخِرِهِ. وَنَحْوَهُ: فَيُنَبَّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ.

﴿بَصِيرَةٌ﴾[4]: حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ وُصِفَتْ بِالْبَصَارَةِ عَلَى الْمَجَازِ، كَمَا وُصِفَتِ الْآيَاتُ بِالْإِبْصَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾[5]]النَّمْلِ: 133]. أَوْ عَيْنٌ بَصِيرَةٌ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُنَبَّأُ بِأَعْمَالِهِ وَإِنْ لَمْ يُنَبَّأْ، فَفِيهِ مَا يُجْزِئُ عَنِ الْإِنْبَاءِ، لِأَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَيْهَا بِمَا عَمِلَتْ، لِأَنَّ جَوَارِحَهُ تَنْطِقُ بِذَلِكَ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6]]النُّورِ: 24.[

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[7]: وَلَوْ جَاءَ بِكُلِّ مَعْذِرَةٍ يَعْتَذِرُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيُجَادِلُ عَنْهَا.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: وَلَوْ أَرْخَى سُتُورَهُ، وَقَالَ: الْمَعَاذِيرُ: السُّتُورُ، وَاحِدُهَا مِعْذَارٌ، فَإِنْ صَحَّ فَلِأَنَّهُ يَمْنَعُ رُؤْيَةَ الْمُحْتَجِبِ، كَمَا تَمْنَعُ الْمَعْذِرَةُ عُقُوبَةَ الْمُذْنِبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ قِيَاسُ الْمَعْذِرَةِ أَنْ تُجْمَعَ مَعَاذِرَ لَا مَعَاذِيرَ؟ قُلْتُ: الْمَعَاذِيرُ لَيْسَ بِجَمْعِ مَعْذِرَةٍ، إِنَّمَا هُوَ اسْمُ جَمْعٍ لَهَا. وَنَحْوَهُ: الْمَنَاكِيرُ فِي الْمُنْكَرِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[1]

الضَّمِيرُ فِي بِهِ لِلْقُرْآنِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِذَا لُقِّنَ الْوَحْيَ نَازَعَ جِبْرِيلَ الْقِرَاءَةَ، وَلَمْ يَصْبِرْ إِلَى أَنَّ يُتِمَّهَا، مُسَارَعَةً إِلَى الْحِفْظِ وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يَتَفَلَّتَ مِنْهُ، فَأُمِرَ بِأَنْ يَسْتَنْصِتَ لَهُ مُلْقِيًا إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ وَسَمْعِهِ، حَتَّى يُقْضَى إِلَيْهِ وَحْيُهُ، ثُمَّ يُقَفِّيهِ بِالدِّرَاسَةِ إِلَى أَنْ يَرْسَخَ فِيهِ.

وَالْمَعْنَى: لَا تُحَرِّكْ لِسَانَكَ بِقِرَاءَةِ الْوَحْيِ مَا دَامَ جِبْرِيلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقْرَأُ ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[2] لِتَأْخُذَهُ عَلَى عَجَلَةٍ، وَلِئَلَّا يَتَفَلَّتَ مِنْكَ. ثُمَّ عَلَّلَ النَّهْيَ عَنِ الْعَجَلَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾[3] فِي صَدْرِكَ وَإِثْبَاتَ قِرَاءَتِهِ فِي لِسَانِكَ.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾[4] جَعَلَ قِرَاءَةَ جِبْرِيلَ قِرَاءَتَهُ: وَالْقُرْآنُ الْقِرَاءَةُ.

﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[5]: فَكُنْ مُقْفِيًا لَهُ فِيهِ وَلَا تُرَاسِلْهُ، وَطَأْمِنْ نَفْسَكَ أَنَّهُ لَا يَبْقَى غَيْرَ مَحْفُوظٍ، فَنَحْنُ فِي ضَمَانِ تَحْفِيظِهِ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[6] إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ، كَأَنَّهُ كَانَ يَعْجَلُ فِي الْحِفْظِ وَالسُّؤَالِ عَنِ الْمَعْنَى جَمِيعًا، كَمَا تَرَى بَعْضَ الْحُرَّاصِ عَلَى الْعِلْمِ. وَنَحْوَهُ: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[7]]طه: 114[.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿كَلا﴾[1] رَدْعٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنْ عَادَةِ الْعَجَلَةِ وَإِنْكَارٌ لَهَا عَلَيْهِ، وَحَثٌّ عَلَى الْأَنَاةِ وَالتُّؤَدَةِ، وَقَدْ بَالَغَ فِي ذَلِكَ بِإِتْبَاعِهِ قَوْلَهُ: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾[2]، كَأَنَّهُ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَا بَنِي آدَمَ لِأَنَّكُمْ خُلِقْتُمْ مِنْ عَجَلٍ وَطُبِعْتُمْ عَلَيْهِ تَعْجَلُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ثَمَّ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[3].

وَقُرِئَ بِالْيَاءِ وَهُوَ أَبْلَغُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾[4] إِلَى آخِرِهِ، بِذِكْرِ الْقِيَامَةِ؟

قُلْتُ: اتِّصَالُهُ بِهِ مِنْ جِهَةِ هَذَا لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ، إِلَى التَّوْبِيخِ بِحُبِّ الْعَاجِلَةِ، وَتَرْكِ الِاهْتِمَامِ بِالْآخِرَةِ.

الْوَجْهُ: عِبَارَةٌ عَنِ الْجُمْلَةِ. وَالنَّاضِرَةُ مِنْ نَضْرَةِ النَّعِيمِ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[5] تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا خَاصَّةً لَا تَنْظُرُ إِلَى غَيْرِهِ، وَهَذَا مَعْنَى تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[6]]الْقِيَامَةِ: 12.[﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ، إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[7]]الشُّورَى: 53.[﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[8]]آلِ عِمْرَانَ: 28.[﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[9]]الْبَقَرَةِ: 245.[﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[10]]هُودٍ: 888].

كَيْفَ دَلَّ فِيهَا التَّقْدِيمُ عَلَى مَعْنَى الِاخْتِصَاصِ؟!

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى أَشْيَاءَ لَا يُحِيطُ بِهَا الْحَصْرُ وَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْعَدَدِ فِي مَحْشَرٍ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ نَظَّارَةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ لِأَنَّهُمُ الْآمِنُونَ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، فَاخْتِصَاصُهُ بِنَظَرِهِمْ إِلَيْهِ لَوْ كَانَ مَنْظُورًا إِلَيْهِ: مُحَالٌ، فَوَجَبَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

حَمْلُهُ عَلَى مَعْنًى يَصِحُّ مَعَهُ الِاخْتِصَاصُ، وَالَّذِي يَصِحُّ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ النَّاسِ: أَنَا إِلَى فُلَانٍ نَاظِرٌ مَا يَصْنَعُ بِي، تُرِيدُ مَعْنَى التَّوَقُّعِ وَالرَّجَاءِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا

وَسَمِعْتُ سَرَوِيَّةً مُسْتَجْدِيَةً بِمَكَّةَ وَقْتَ الظُّهْرِ حِينَ يُغْلِقُ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ، وَيَأْوُونَ إِلَى مَقَائِلِهِمْ، تَقُولُ: عُيَيْنَتِي نُوَيْظِرَةٌ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّعُونَ النِّعْمَةَ وَالْكَرَامَةَ إِلَّا مِنْ رَبِّهِمْ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا لَا يَخْشَوْنَ وَلَا يَرْجُونَ إِلَّا إِيَّاهُ.

وَالْبَاسِرُ: الشَّدِيدُ الْعُبُوسِ، وَالْبَاسِلُ: أَشَدُّ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ غَلَبَ فِي الشُّجَاعِ إِذَا اشْتَدَّ كُلُوحُهُ ﴿تَظُنُّ﴾[1]: تَتَوَقَّعُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فِعْلٌ هُوَ فِي شِدَّتِهِ وَفَظَاعَتِهِ.

﴿فَاقِرَةٌ﴾[2] دَاهِيَةٌ تَقْصِمُ فَقَارَ الظَّهْرِ، كَمَا تَوَقَّعَتِ الْوُجُوهُ النَّاضِرَةُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا كُلُّ خَيْرٍ.

﴿كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[3]

﴿كَلا﴾[4] رَدْعٌ عَنْ إِيثَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: ارْتَدِعُوا عَنْ ذَلِكَ، وَتَنَبَّهُوا عَلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِنَ الْمَوْتِ الَّذِي عِنْدَهُ تَنْقَطِعُ الْعَاجِلَةُ عَنْكُمْ، وَتَنْتَقِلُونَ إِلَى الْآجِلَةِ الَّتِي تَبْقَوْنَ فِيهَا مُخَلَّدِينَ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿بَلَغَتِ﴾[5] لِلنَّفْسِ، وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ يَدُلُّ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ حَاتِمٌ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

وَتَقُولُ الْعَرَبُ: أَرْسَلَتْ، يُرِيدُونَ: جَاءَ الْمَطَرُ، وَلَا تَكَادُ تَسْمَعُهُمْ يَذْكُرُونَ السَّمَاءَ.

﴿التَّرَاقِيَ﴾[1] الْعِظَامُ الْمُكْتَنِفَةُ لِثُغْرَةِ النَّحْرِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ. ذَكَّرَهُمْ صُعُوبَةَ الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَرَاحِلِ الْآخِرَةِ حِينَ تَبْلُغُ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ وَدَنَا زُهُوقُهَا، وَقَالَ: حَاضِرُو صَاحِبِهَا –وَهُوَ الْمُحْتَضِرُ– بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾[2] أَيُّكُمْ يَرْقِيهِ مِمَّا بِهِ؟

وَقِيلَ: هُوَ كَلَامُ مَلَائِكَةِ الْمَوْتِ: أَيُّكُمْ يَرْقَى بِرُوحِهِ؟ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ؟

﴿وَظَنَّ﴾ الْمُحْتَضِرُ ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾[3] أَنَّ هَذَا الَّذِي نَزَلَ بِهِ هُوَ فِرَاقُ الدُّنْيَا الْمَحْبُوبَةِ.

﴿وَالْتَفَّتِ﴾[4] سَاقُهُ بِسَاقِهِ وَالْتَوَتْ عَلَيْهَا عِنْدَ عَلْزِ الْمَوْتِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: مَاتَتْ رِجْلَاهُ فَلَا تَحْمِلَانِهِ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا جَوَّالًا.

وَقِيلَ: شِدَّةُ فِرَاقِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ إِقْبَالِ الْآخِرَةِ، عَلَى أَنَّ السَّاقَ فِي الشِّدَّةِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: هُمَا سَاقَاهُ حِينَ تُلَفَّانِ فِي أَكْفَانِهِ ﴿الْمَسَاقُ﴾[5]، أَيْ: يُسَاقُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى حُكْمِهِ.

﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾[6]

﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى﴾[7]، يَعْنِي الْإِنْسَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[8]]الْقِيَامَةِ: 3].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[1]]الْقِيَامَةِ: 36]، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[2]]الْقِيَامَةِ: 66]، أَيْ: لَا يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، فَلَا صَدَّقَ بِالرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَلَا صَلَّى؟!

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: فَلَا صَدَّقَ مَالَهُ، بِمَعْنَى: فَلَا زَكَاةَ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ ﴿يَتَمَطَّى﴾[3] يَتَبَخْتَرُ. وَأَصْلُهُ يَتَمَطَّطُ، أَيْ: يَتَمَدَّدُ، لِأَنَّ الْمُتَبَخْتِرَ يَمُدُّ خُطَاهُ.

وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْمَطَا وَهُوَ الظَّهْرُ، لِأَنَّهُ يَلْوِيهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ فَقَدْ جُعِلَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ"، يَعْنِي: كَذَّبَ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَوَلَّى عَنْهُ وَأَعْرَضَ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى قَوْمِهِ يَتَبَخْتَرُ افْتِخَارًا بِذَلِكَ ﴿أَوْلَى لَكَ﴾[4] بِمَعْنَى وَيْلٌ لَكَ، وَهُوَ دُعَاءٌ عَلَيْهِ بِأَنْ يَلِيَهُ مَا يَكْرَهُ.

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[5]

﴿فَخَلَقَ﴾[6]: فَقَدَّرَ، ﴿فَسَوَّى﴾[7]، فَعَدَلَ ﴿مِنْهُ﴾[8] مِنَ الْإِنْسَانِ ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾: الصِّنْفَيْنِ.

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾[9] الَّذِي أَنْشَأَ هَذَا الْإِنْشَاءَ ﴿بِقَادِرٍ﴾[10] عَلَى الْإِعَادَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: "سُبْحَانَكَ بَلَى".

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [الْقِيَامَةِ] شَهِدْتُ لَهُ أَنَا وَجِبْرِيلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ".

[10] سورة ، الآية .

سُورَةُ الشُّورَىٰ

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

مَدَنِيَّةٌ،
وَآيَاتُهَا إِحْدَى وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[1]

هَلْ بِمَعْنَى ﴿قَدْ﴾[2] فِي الِاسْتِفْهَامِ خَاصَّةً، وَالْأَصْلُ: أَهَلْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ:

أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِي الْأَكَمِ.....

فَالْمَعْنَى: أَقَدْ أَتَى؟ عَلَى التَّقْرِيرِ وَالتَّقْرِيبِ جَمِيعًا، أَيْ: أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ قَبْلَ زَمَانٍ قَرِيبٍ ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ﴾[3] فِيهِ ﴿شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[4]، أَيْ: كَانَ شَيْئًا مَنْسِيًّا غَيْرَ مَذْكُورٍ نُطْفَةً فِي الْأَصْلَابِ.

وَالْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ: جِنْسُ بَنِي آدَمَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾[5]]النَّحْلِ: 4.[

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

﴿ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[1]: طَائِفَةٌ مِنَ الزَّمَنِ الطَّوِيلِ الْمُمْتَدِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّ ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[2]؟

قُلْتُ: مَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْإِنْسَانِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَلْ أَتَى عَلَيْهِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ غَيْرَ مَذْكُورٍ. أَوِ الرَّفْعُ عَلَى الْوَصْفِ لِحِينٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾[3]]لُقْمَانَ: 333].

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهَا تُلِيَتْ عِنْدَهُ فَقَالَ: لَيْتَهَا تَمَّتْ، أَرَادَ: لَيْتَ تِلْكَ الْحَالَةَ تَمَّتْ، وَهِيَ كَوْنُهُ شَيْئًا غَيْرَ مَذْكُورٍ وَلَمْ يُخْلَقْ وَلَمْ يُكَلَّفْ.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[4]

﴿نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾[5]: كَبُرْمَةٍ أَعْشَارٍ، وَبُرْدٍ أَكْيَاشٍ، وَهِيَ أَلْفَاظٌ مُفْرَدَةٌ غَيْرُ جُمُوعٍ، وَلِذَلِكَ وَقَعَتْ صِفَاتٍ لِلْأَفْرَادِ.

وَيُقَالُ أَيْضًا: نُطْفَةٌ مُشْجٍ.

قَالَ الشَّمَّاخُ:

طَوَتْ أَحْشَاءُ مُرْتَجَةٍ لِوَقْتٍ عَلَى مَشَجٍ سُلَالَتُهُ مَهِينُ

وَلَا يَصِحُّ أَمْشَاجٌ أَنْ يَكُونَ تَكْسِيرًا لَهُ، بَلْ هُمَا مَثَلَانِ فِي الْإِفْرَادِ، لِوَصْفِ الْمُفْرَدِ بِهِمَا. وَمَشَجَهُ وَمَزَجَهُ: بِمَعْنًى.

وَالْمَعْنَى مِنْ نُطْفَةٍ قَدِ امْتَزَجَ لَهَا الْمَاءَانِ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: هِيَ عُرُوقُ النُّطْفَةِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: أَمْشَاجٌ أَلْوَانٌ وَأَطْوَارٌ، يُرِيدُ: أَنَّهَا تَكُونُ نُطْفَةً، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿نَبْتَلِيهِ﴾[1] فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: خَلَقْنَاهُ مُبْتَلِينَ لَهُ، بِمَعْنَى: مُرِيدِينَ ابْتِلَاءَهُ، كَقَوْلِكَ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مَعَهُ صَقْرٌ صَائِدًا بِهِ غَدًا، تُرِيدُ: قَاصِدًا بِهِ الصَّيْدَ غَدًا.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: نَاقِلِينَ لَهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ ابْتِلَاءً عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نُصَرِّفُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً.

وَقِيلَ: هُوَ فِي تَقْدِيرِ التَّأْخِيرِ، يَعْنِي: فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا لِنَبْتَلِيَهُ، وَهُوَ مِنَ التَّعَسُّفِ.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]

شَاكِرًا وَكَفُورًا: حَالَانِ مِنَ الْهَاءِ فِي هَدَيْنَاهُ، أَيْ: مَكَّنَّاهُ وَأَقْدَرْنَاهُ فِي حَالَتَيْهِ جَمِيعًا. أَوْ دَعَوْنَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ: كَانَ مَعْلُومًا مِنْهُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ أَوْ يَكْفُرُ لِإِلْزَامِ الْحُجَّةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَا حَالَيْنِ مِنَ السَّبِيلِ؛ أَيْ: عَرَّفْنَاهُ السَّبِيلَ، إِمَّا سَبِيلًا شَاكِرًا، وَإِمَّا سَبِيلًا كَفُورًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[3] [الْبَلَدِ: 100].

وَوَصْفُ السَّبِيلِ بِالشُّكْرِ وَالْكُفْرِ مَجَازٌ.

وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ فِي "أَمَّا"، وَهِيَ قِرَاءَةٌ حَسَنَةٌ.

وَالْمَعْنَى: أَمَّا شَاكِرًا فَبِتَوْفِيقِنَا، وَأَمَّا كَفُورًا فَبِسُوءِ اخْتِيَارِهِ.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾[4]

وَلَمَّا ذَكَرَ الْفَرِيقَيْنِ أَتْبَعَهُمَا الْوَعِيدَ وَالْوَعْدَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "سَلَاسِلَ" غَيْرَ مُنَوَّنٍ. "وَسَلَاسِلًا" بِالتَّنْوِينِ.

وَفِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ النُّونُ بَدَلًا مِنْ حَرْفِ الْإِطْلَاقِ، وَيُجْرَى الْوَصْلُ مَجْرَى الْوَقْفِ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الْقِرَاءَةِ بِهِ مِمَّنْ ضُرِّيَ بِرِوَايَةِ الشِّعْرِ وَمَرِنَ لِسَانُهُ عَلَى صَرْفِ غَيْرِ الْمُنْصَرِفِ.

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1]

﴿الأَبْرَارَ﴾[2] جَمْعُ بَرٍّ أَوْ بَارٍّ، كَرَبٍّ وَأَرْبَابٍ، وَشَاهِدٍ وَأَشْهَادٍ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: هُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْذُونَ الذَّرَّ. وَالْكَأْسُ: الزُّجَاجَةُ إِذَا كَانَتْ فِيهَا خَمْرٌ، وَتُسَمَّى الْخَمْرُ نَفْسُهَا: كَأْسًا.

﴿مِزَاجُهَا﴾[3] مَا تُمْزَجُ بِهِ، ﴿كَافُورًا﴾[4] مَاءَ كَافُورٍ، وَهُوَ اسْمُ عَيْنٍ فِي الْجَنَّةِ مَاؤُهَا فِي بَيَاضِ الْكَافُورِ وَرَائِحَتِهِ وَبَرْدِهِ.

﴿وَعَيْنًا﴾[5]: بَدَلٌ مِنْهُ. وَعَنْ قَتَادَةَ: تُمْزَجُ لَهُمْ بِالْكَافُورِ وَتُخْتَمُ لَهُمْ بِالْمِسْكِ. وَقِيلَ: تُخْلَقُ فَهَا رَائِحَةُ الْكَافُورِ وَبَيَاضُهُ وَبَرْدُهُ، فَكَأَنَّهَا مُزِجَتْ بِالْكَافُورِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَ﴿عَيْنًا﴾[1] عَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ: بَدَلٌ مِنْ مَحَلِّ ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾[2] عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ مُضَافٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَشْرَبُونَ فِيهَا خَمْرًا خَمْرَ عَيْنٍ. أَوْ نُصِبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ وَصَلَ فِعْلَ الشُّرْبِ بِحَرْفِ الِابْتِدَاءِ أَوَّلًا، وَبِحَرْفِ الْإِلْصَاقِ آخِرًا؟ قُلْتُ: لِأَنَّ الْكَأْسَ مَبْدَأُ شُرْبِهِمْ وَأَوَّلُ غَايَتِهِ، وَأَمَّا الْعَيْنُ فَبِهَا يَمْزُجُونَ شَرَابَهُمْ فَكَانَ الْمَعْنَى: يَشْرَبُ عِبَادُ اللَّهِ بِهَا الْخَمْرَ، كَمَا تَقُولُ: شَرِبْتُ الْمَاءَ بِالْعَسَلِ ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾[3] يُجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ.

﴿تَفْجِيرًا﴾[4] سَهْلًا لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ ﴿يُوفُونَ﴾[5] جَوَابُ مَنْ عَسَى يَقُولُ: مَا لَهُمْ يُرْزَقُونَ ذَلِكَ، وَالْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ مُبَالَغَةٌ فِي وَصْفِهِمْ بِالتَّوَفُّرِ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ، لِأَنَّ مَنْ وَفَّى بِمَا أَوْجَبَهُ هُوَ عَلَى نَفْسِهِ لِوَجْهِ اللَّهِ كَانَ بِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ أَوْفَى.

﴿مُسْتَطِيرًا﴾[6] فَاشِيًا مُنْتَشِرًا بَالِغًا أَقْصَى الْمَبَالِغِ، مِنَ اسْتَطَارَ الْحَرِيقُ، وَاسْتَطَارَ الْفَجْرُ. وَهُوَ مِنْ طَارَ، بِمَنْزِلَةِ اسْتَنْفَرَ مِنْ نَفَرَ ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾[7] الضَّمِيرُ لِلطَّعَامِ، أَيْ: مَعَ اشْتِهَائِهِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ. وَنَحْوُهُ ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾[8]]الْبَقَرَة: 177.[﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾][9]آلِ عِمْرَانَ: 92].

وَعَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ: عَلَى حُبِّ اللَّهِ.

﴿وَأَسِيرًا﴾[10] عَنِ الْحَسَنِ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يُؤْتَى بِالْأَسِيرِ فَيَدْفَعُهُ إِلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَيَقُولُ: أَحْسِنْ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ عِنْدَهُ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ، فَيُؤْثِرُهُ عَلَى نَفْسِهِ. وَعِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ: يَجُوزُ الْإِحْسَانُ إِلَى الْكُفَّارِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَلَا تُصْرَفُ إِلَيْهِمُ الْوَاجِبَاتُ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: كَانَ أَسِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمُشْرِكَ، وَأَخُوكَ الْمُسْلِمُ أَحَقُّ أَنْ تُطْعِمَهُ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٍ: هُوَ الْأَسِيرُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: هُوَ الْمَمْلُوكُ وَالْمَسْجُونُ. وَسَمَّى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- الْغَرِيمَ: أَسِيرًا، فَقَالَ " غَرِيمُكَ أَسِيرُكَ فَأَحْسِنْ إِلَى أَسِيرِكَ.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾[1] عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلًا بِاللِّسَانِ مَنْعًا لَهُمْ عَنِ الْمُجَازَاةِ بِمِثْلِهِ أَوْ بِالشُّكْرِ، لِأَنَّ إِحْسَانَهُمْ مَفْعُولٌ لِوَجْهِ اللَّهِ، فَلَا مَعْنَى لِمُكَافَأَةِ الْخَلْقِ. وَأَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ لَهُمْ لُطْفًا وَتَفَقُّهًا وَتَنْبِيهًا، عَلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ.

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّهَا كَانَتْ تَبْعَثُ بِالصَّدَقَةِ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ، ثُمَّ تَسْأَلُ الرَّسُولَ مَا قَالُوا؟ فَإِذَا ذَكَرَ دُعَاءً دَعَتْ لَهُمْ بِمِثْلِهِ لِيَبْقَى ثَوَابُ الصَّدَقَةِ لَهَا خَالِصًا عِنْدَ اللَّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَيَانًا وَكَشْفًا عَنِ اعْتِقَادِهِمْ وَصِحَّةِ نِيَّتِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَمَّا إِنَّهُمْ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ، وَلَكِنَّ عَلِمَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ. وَالشُّكُورُ وَالْكُفُورُ: مَصْدَرَانِ كَالشُّكْرِ وَالْكُفْرِ.

﴿إِنَّا نَخَافُ﴾[2] يَحْتَمِلُ: إِنَّ إِحْسَانَنَا إِلَيْكُمْ لِلْخَوْفِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَا لِإِرَادَةِ مُكَافَأَتِكُمْ، وَإِنَّا لَا نُرِيدُ مِنْكُمُ الْمُكَافَأَةَ لِخَوْفِ عِقَابِ اللَّهِ -تَعَالَى- عَلَى طَلَبِ الْمُكَافَأَةِ بِالصَّدَقَةِ. وَوَصْفُ الْيَوْمِ بِالْعُبُوسِ مَجَازٌ عَلَى طَرِيقَيْنِ: أَنْ يُوصَفَ بِصِفَةِ أَهْلِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ، كَقَوْلِهِمْ: نَهَارُكَ صَائِمٌ.

رُوِيَ أَنَّ الْكَافِرَ يَعْبِسُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلَ الْقَطْرَانِ، وَأَنْ يُشَبَّهَ فِي شِدَّتِهِ وَضَرَرِهِ بِالْأَسَدِ الْعَبُوسِ أَوْ بِالشُّجَاعِ الْبَاسِلِ.

وَالْقَمْطَرِيرُ: الشَّدِيدُ الْعُبُوسِ الَّذِي يَجْمَعُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: يُقَالُ: اقْمَطَرَّتِ النَّاقَةُ: إِذَا رَفَعَتْ ذَنَبَهَا وَجَمَعَتْ قُطْرَيْهَا وَزَمَّتْ بِأَنْفِهَا فَاشْتَقَّهُ مِنَ الْقَطْرِ وَجَعَلَ الْمِيمَ مَزِيدَةً.

قَالَ أَسَدُ بْنُ نَاعِصَةَ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾[1]

﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[2]، أَيْ: أَعْطَاهُمْ بَدَلَ عُبُوسِ الْفُجَّارِ وَحُزْنِهِمْ نَضْرَةً فِي الْوُجُوهِ وَسُرُورًا فِي الْقُلُوبِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْيَوْمَ مَوْصُوفٌ بِعُبُوسِ أَهْلِهِ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾[3]: بِصَبْرِهِمْ عَلَى الْإِيثَارِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مَرِضَا، فَعَادَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي نَاسٍ مَعَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْحَسَنِ، لَوْ نَذَرْتَ عَلَى وَلَدِكَ، فَنَذَرَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَفِضَّةُ جَارِيَةٌ لَهُمَا إِنْ بَرآ مِمَّا بِهِمَا: أَنْ يَصُومُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَشُفِيَا وَمَا مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَاسْتَقْرَضَ عَلِيٌّ مِنْ شَمْعُونَ الْخَيْبَرِيِّ الْيَهُودِيِّ ثَلَاثَ أَصْوُعٍ مِنْ شَعِيرٍ، فَطَحَنَتْ فَاطِمَةُ صَاعًا وَاخْتَبَزَتْ خَمْسَةَ أَقْرَاصٍ عَلَى عَدَدِهِمْ، فَوَضَعُوهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِيُفْطِرُوا فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ سَائِلٌ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، مِسْكِينٌ مِنْ مَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ، أَطْعِمُونِي أَطْعَمَكُمُ اللَّهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ، فَآثَرُوهُ وَبَاتُوا لَمْ يَذُوقُوا إِلَّا الْمَاءَ،

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَأَصْبَحُوا صِيَامًا. فَلَمَّا أَمْسَوْا وَوَضَعُوا الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ يَتِيمٌ، فَآثَرُوهُ، وَوَقَفَ عَلَيْهِمْ أَسِيرٌ فِي الثَّالِثَةِ، فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَخَذَ عَلِيٌّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بِيَدِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وَأَقْبَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَلَمَّا أَبْصَرَهُمْ وَهُمْ يَرْتَعِشُونَ كَالْفِرَاخِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ قَالَ: مَا أَشَدَّ مَا يَسُوءُنِي مَا أَرَى بِكُمْ، وَقَامَ فَانْطَلَقَ مَعَهُمْ فَرَأَى فَاطِمَةَ فِي مِحْرَابِهَا قَدِ الْتَصَقَ ظَهْرُهَا بِبَطْنِهَا وَغَارَتْ عَيْنَاهَا.

فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَقَالَ: خُذْهَا يَا مُحَمَّدُ هَنَّأَكَ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ فَأَقْرَأَهُ السُّورَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ذِكْرِ الْحَرِيرِ مَعَ الْجَنَّةِ؟

قُلْتُ: الْمَعْنَى: وَجَزَاهُمْ بِصَبْرِهِمْ عَلَى الْإِيثَارِ وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ بُسْتَانًا فِيهِ مَأْكَلٌ هَنِيٌّ.

﴿وَحَرِيرًا﴾[1] فِيهِ مَلْبَسٌ بَهِيٌّ. يَعْنِي: أَنَّ هَوَاءَهَا مُعْتَدِلٌ، لَا حَرَّ شَمْسٍ يَحْمِي وَلَا شَدَّةَ بَرْدٍ تُؤْذِي.

وَفِي الْحَدِيثِ: هَوَاءُ الْجَنَّةِ سَجْسَجٌ، لَا حَرٌّ وَلَا قَرٌّ.

وَقِيلَ: الزَّمْهَرِيرُ: الْقَمَرُ.

وَعَنْ ثَعْلَبٍ: أَنَّهُ فِي لُغَةِ طَيِّئٍ، وَأَنْشَدَ:

وَلَيْلَةٍ ظَلَامُهَا قَدِ اعْتَكَرْ قِطَعْتَهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْجَنَّةَ ضِيَاءٌ فَلَا يُحْتَاجُ فِيهَا شَمْسٌ وَقَمَرٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا﴾[2] عَلَامَ عُطِفَتْ؟

قُلْتُ: عَلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، لِأَنَّهَا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْمَجْزِيِّينَ، وَهَذِهِ حَالٌ مِثْلُهَا عَنْهُمْ لِرُجُوعِ الضَّمِيرِ مِنْهَا إِلَيْهِمْ فِي عَلَيْهِمْ، إِلَّا أَنَّهَا اسْمٌ مُفْرَدٌ، وَتِلْكَ جُمْلَةٌ فِي حُكْمِ مُفْرَدٍ تَقْدِيرُهُ: غَيْرَ رَائِينَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا، وَدَخَلَتِ الْوَاوُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَيْنِ مُجْتَمَعَانِ لَهُمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَجَزَاهُمْ جَنَّةً جَامِعِينَ فِيهَا بَيْنَ الْبُعْدِ عَنِ الْحَرِّ وَالْقَرِّ وَدُنُوِّ الظِّلَالِ عَلَيْهِمْ.

---

[1]

[2] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "وَدَانِيَةٌ" بِالرَّفْعِ، عَلَى أَنَّ ظِلَالَهَا مُبْتَدَأٌ، وَدَانِيَةٌ خَبَرٌ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ. وَالْمَعْنَى: لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا، وَالْحَالُ أَنَّ ظِلَالَهَا دَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَجْعَلَ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾[1] وَ﴿لا يَرَوْنَ﴾[2] وَ﴿وَدَانِيَةً﴾[3] كُلَّهَا صِفَاتٍ لِجَنَّةٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿وَدَانِيَةً﴾[4] مَعْطُوفَةً عَلَى جَنَّةٍ، أَيْ: وَجَنَّةٌ أُخْرَى دَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا، عَلَى أَنَّهُمْ وُعِدُوا جَنَّتَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[5]] الرَّحْمَنِ: 46]، لِأَنَّهُمْ وُصِفُوا بِالْخَوْفِ: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾[6]]الْإِنْسَانِ: 10].

فَإِنْ قُلْتَ: فَعَلَامَ عُطِفَ: ﴿وَذُلِّلَتْ﴾[7]؟

قُلْتُ: هِيَ –إِذَا رَفَعْتَ ﴿وَدَانِيَةً﴾[8]– جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ، وَإِذَا نَصَبْتَهَا عَلَى الْحَالِ، فَهِيَ حَالٌ مِنْ دَانِيَةٍ، أَيْ: تَدْنُو ظِلَالُهَا عَلَيْهِمْ فِي حَالِ تَذْلِيلِ قُطُوفِهَا لَهُمْ. أَوْ مَعْطُوفَةٌ عَلَيْهَا عَلَى: وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا، وَمُذَلَّلَةٌ قُطُوفُهَا، وَإِذَا نَصَبْتَ ﴿وَدَانِيَةً﴾[9] عَلَى الْوَصْفِ، فَهِيَ صِفَةٌ مِثْلُهَا.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: جَنَّةٌ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا: كَانَ صَحِيحًا، وَتَذْلِيلُ الْقُطُوفِ: أَنْ تُجْعَلَ ذُلُلًا لَا تَمْتَنِعُ عَلَى قِطَافِهَا كَيْفَ شَاءُوا؛ أَوْ تُجْعَلَ ذَلِيلَةً لَهُمْ خَاضِعَةً مُتَقَاصِرَةً، مِنْ قَوْلِهِمْ: حَائِطٌ ذَلِيلٌ إِذَا كَانَ قَصِيرًا؟!

﴿قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا﴾[10] قُرِئَا غَيْرَ مُنَوَّنَيْنِ، وَبِتَنْوِينِ الْأَوَّلِ، وَبِتَنْوِينِهِمَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

وَهَذَا التَّنْوِينُ بَدَلٌ مِنْ أَلِفِ الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّهُ فَاصِلَةٌ، وَفِي الثَّانِي لِإِتْبَاعِهِ الْأَوَّلَ. وَمَعْنَى قَوَارِيرَ مِنْ ﴿فِضَّةٍ﴾[1] أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَهِيَ مَعَ بَيَاضِ الْفِضَّةِ وَحُسْنِهَا فِي صَفَاءِ الْقَوَارِيرِ وَشَفِيفِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى كَانَتْ؟

قُلْتُ هُوَ مِنْ – يَكُونُ – فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]]الْبَقَرَة: 1177]، أَيْ: تَكَوَّنَتْ قَوَارِيرَ، بِتَكَوُّنِ اللَّهِ تَفْخِيمًا لِتِلْكَ الْخِلْقَةِ الْعَجِيبَةِ الشَّأْنِ، الْجَامِعَةِ بَيْنَ صِفَتِي الْجَوْهَرَيْنِ الْمُتَبَايِنَيْنِ. وَمِنْهُ كَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[3].

وَقُرِئَ "قَوَارِيرُ مِنْ فِضَّةٍ" بِالرَّفْعِ عَلَى: هِيَ قَوَارِيرُ.

﴿قَدَّرُوهَا﴾[4] صِفَةٌ لِقَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ. وَمَعْنَى تَقْدِيرِهِمْ لَهَا: أَنَّهُمْ قَدَّرُوهَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ تَكُونَ عَلَى مَقَادِيرَ وَأَشْكَالٍ عَلَى حَسَبِ شَهَوَاتِهِمْ، فَجَاءَتْ كَمَا قَدَّرُوا.

وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلطَّائِفِينَ بِهَا، دَلَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾[5]]الْإِنْسَان: 155]. عَلَى أَنَّهُمْ قَدَّرُوا شَرَابَهَا عَلَى قَدْرِ الرَّيِّ، وَهُوَ أَلَذُّ لِلشَّارِبِ لِكَوْنِهِ عَلَى مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يَفْضُلُ عَنْهَا وَلَا يَعْجِزُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: لَا تَفِيضُ وَلَا تَغِيضُ. وَقُرِئَ: قُدِّرُوهَا عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَوَجْهُهُ: أَنْ يَكُونَ مِنْ قُدِّرَ، مَنْقُولًا مِنْ قَدَّرَ. تَقُولُ: قَدَّرْتُ الشَّيْءَ وَقَدَّرَنِيهِ فُلَانٌ: إِذَا جَعَلَكَ قَادِرًا لَهُ.

وَمَعْنَاهُ: جُعِلُوا قَادِرِينَ لَهُ كَمَا شَاءُوا. وَأَطْلَقَ لَهُمْ أَنْ يُقَدِّرُوا عَلَى حَسَبِ مَا اشْتَهَوْا، سُمِّيَتِ الْعَيْنُ زَنْجَبِيلًا لِطَعْمِ الزَّنْجَبِيلِ فِيهَا، وَالْعَرَبُ تَسْتَلِذُّهُ وَتَسْتَطِيبُهُ.

قَالَ الْأَعْشَى:

كَأَنَّ الْقَرَنْفُلَ وَالزَّنْجَبِي لَ بَاتَا بِفِيهَا وَأَرْيًا مَشُورَا

وَقَالَ الْمُسَيِّبُ بْنُ عَلَسٍ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَافَةَ الْخَمْـــرِ

و﴿سَلْسَبِيلا﴾[1] لِسَلَاسَةِ انْحِدَارِهَا فِي الْحَلْقِ وَسُهُولَةِ مَسَاغِهَا، يَعْنِي: أَنَّهَا فِي طَعْمِ الزَّنْجَبِيلِ وَلَيْسَ فِيهَا لَذْعُهُ، وَلَكِنَّ نَقِيضَ اللَّذْعِ، وَهُوَ السَّلَاسَةُ.

يُقَالُ: شَرَابٌ سَلْسَلٌ وَسَلْسَالٌ وَسَلْسَبِيلٌ، وَقَدْ زِيدَتِ الْبَاءُ فِي التَّرْكِيبِ حَتَّى صَارَتِ الْكَلِمَةُ خُمَاسِيَّةً. وَدَلَّتْ عَلَى غَايَةِ السَّلَاسَةِ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: السَّلْسَبِيلُ فِي اللُّغَةِ: صِفَةٌ لِمَا كَانَ فِي غَايَةِ السَّلَاسَةِ. وَقُرِئَ: سَلْسَبِيلٌ عَلَى مَنْعِ الصَّرْفِ، لِاجْتِمَاعِ الْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ: وَقَدْ عَزَوْا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ مَعْنَاهُ سَلْ سَبِيلًا إِلَيْهَا، وَهَذَا غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ عَلَى ظَاهِرِهِ. إِلَّا أَنْ يُرَادَ أَنَّ جُمْلَةَ قَوْلِ الْقَائِلِ: سَلْ سَبِيلًا، جُعِلَتْ عَلَمًا لِلْعَيْنِ، كَمَا قِيلَ: تَأَبَّطَ شَرًّا، وَذَرَّى حَبًّا، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَشْرَبُ مِنْهَا إِلَّا مَنْ سَأَلَ إِلَيْهَا سَبِيلًا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ مَعَ اسْتِقَامَتِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ تَكَلُّفٌ وَابْتِدَاعٌ، وَعَزْوُهُ إِلَى مِثْلِ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَبْدَعُ وَفِي شِعْرِ بَعْضِ الْمُحْدَثِينَ:

سَلْ سَبِيلًا فِيهَا إِلَى رَاحَةِ النَّفْ سِ بِرَاحٍ كَأَنَّهَا سَلْسَبِيلُ

وَ﴿عَيْنًا﴾[2] بَدَلٌ مِنْ ﴿زَنْجَبِيلا﴾[3]. وَقِيلَ: تُمْزَجُ كَأْسُهُمْ بِالزَّنْجَبِيلِ بِعَيْنِهِ. أَوْ يَخْلُقُ اللَّهُ طَعْمَهُ فِيهَا.

وَ﴿عَيْنًا﴾[4] عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: مُبْدَلَةٌ مِنْ ﴿كَأْسًا﴾[5]، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَأْسَ عَيْنٍ. أَوْ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الِاخْتِصَاصِ. شُبِّهُوا فِي حُسْنِهِمْ وَصَفَاءِ أَلْوَانِهِمْ وَانْبِثَاثِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ بِاللُّؤْلُؤِ الْمَنْثُورِ.

وَعَنِ الْمَأْمُونِ: أَنَّهُ لَيْلَةَ زُفَّتْ إِلَيْهِ بُورَانُ بِنْتُ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ، وَهُوَ عَلَى بِسَاطٍ مَنْسُوجٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَقَدْ نَثَرَتْ عَلَيْهِ نِسَاءُ دَارِ الْخِلَافَةِ اللُّؤْلُؤَ. فَنَظَرَ إِلَيْهِ مَنْثُورًا عَلَى ذَلِكَ الْبِسَاطِ، فَاسْتَحْسَنَ الْمَنْظَرَ، وَقَالَ: لِلَّهِ دَرُّ أَبِي نُوَاسٍ، وَكَأَنَّهُ أَبْصَرَ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ:

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: شُبِّهُوا بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ إِذَا نُثِرَ مِنْ صَدَفِهِ، لِأَنَّهُ أَحْسَنُ وَأَكْثَرُ مَاءً.

﴿رَأَيْتَ﴾[1] لَيْسَ لَهُ مَفْعُولٌ ظَاهِرٌ وَلَا مُقَدَّرٌ لِيَشِيعَ وَيَعُمَّ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِذَا أَوْجَدْتَ الرُّؤْيَةَ، ثَمَّ وَمَعْنَاهُ: أَنَّ بَصَرَ الرَّائِي أَيْنَمَا وَقَعَ لَمْ يَتَعَلَّقْ إِدْرَاكُهُ إِلَّا بِنَعِيمٍ كَثِيرٍ وَمُلْكٍ كَبِيرٍ.

وَ﴿ثَمَّ﴾[2] فِي مَوْضِعِ النَّصْبِ عَلَى الظَّرْفِ، يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ.

وَمَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ: "مَا ثَمَّ" فَقَدْ أَخْطَأَ؛ لِأَنَّ ﴿ثَمَّ﴾[3] صِلَةٌ لِمَا، وَلَا يَجُوزُ إِسْقَاطُ الْمَوْصُولِ وَتَرْكُ الصِّلَةِ.

﴿كَبِيرًا﴾[4]: وَاسِعًا وَهَنِيئًا.

يُرْوَى: أَنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ عَامٍ، يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ.

وَقِيلَ: لَا زَوَالَ لَهُ. وَقِيلَ: إِذَا أَرَادُوا شَيْئًا كَانَ. وَقِيلَ: يُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَيَسْتَأْذِنُونَ عَلَيْهِمْ.

قُرِئَ: "عَالِيهِمْ" بِالسُّكُونِ، عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ: ﴿ثِيَابُ سُنْدُسٍ﴾[5]، أَيْ: مَا يَعْلُوهُمْ مِنْ لِبَاسِهِمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ.

وَعَالِيَهُمْ بِالنَّصْبِ، عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾[6] أَوْ فِي: ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾[7]، أَيْ: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ عَالِيًا لِلْمُطَوِّفِ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ. أَوْ حِسْبَتَهُمْ لُؤْلُؤًا عَالِيًا لَهُمْ ثِيَابٌ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: رَأَيْتَ أَهْلَ نَعِيمٍ وَمُلْكٍ عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ.

وَعَالِيَتُهُمْ: بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ عَلَى ذَلِكَ. وَعَلَيْهِمْ.

وَخُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ: بِالرَّفْعِ، حَمْلًا عَلَى الثِّيَابِ بِالْجَرِّ عَلَى السُّنْدُسِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "وَإِسْتَبْرَقَ" نَصْبًا فِي مَوْضِعِ الْجَرِّ عَلَى مَنْعِ الصَّرْفِ لِأَنَّهُ أَعْجَمِيٌّ، وَهُوَ غَلَطٌ؛ لِأَنَّهُ نَكِرَةٌ يَدْخُلُهُ حَرْفُ التَّعْرِيفِ، تَقُولُ: الْإِسْتَبْرَقُ، إِلَّا أَنْ يَزْعُمَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ أَنَّهُ قَدْ يُجْعَلُ عَلَمًا لِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الثِّيَابِ.

وَقُرِئَ: وَاسْتَبْرَقَ، بِوَصْلِ الْهَمْزَةِ وَالْفَتْحِ: عَلَى أَنَّهُ مُسَمًّى بِاسْتَفْعَلَ مِنَ الْبَرِيقِ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ مُعَرَّبٌ مَشْهُورٌ تَعْرِيبُهُ، وَأَنَّ أَصْلَهُ: اسْتَبَرَهْ.

﴿وَحُلُّوا﴾[1] عَطْفٌ عَلَى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: ذَكَرَ هَهُنَا أَنَّ أَسَاوِرَهُمْ مِنْ فِضَّةٍ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهَا مِنْ ذَهَبٍ.

قُلْتُ: هَبْ أَنَّهُ قِيلَ: وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَمِنْ فِضَّةٍ، وَهَذَا صَحِيحٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، عَلَى أَنَّهُمْ يُسَوَّرُونَ بِالْجِنْسَيْنِ: إِمَّا عَلَى الْمُعَاقَبَةِ، وَإِمَّا عَلَى الْجَمْعِ، كَمَا تَزَاوَجَ نِسَاءُ الدُّنْيَا بَيْنَ أَنْوَاعِ الْحُلِيِّ وَتَجْمَعُ بَيْنَهَا، وَمَا أَحْسَنَ بِالْمِعْصَمِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ سُوَارَانِ: سُوَارٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَسُوَارٌ مِنْ فِضَّةٍ.

﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾[3] لَيْسَ بِرِجْسٍ كَخَمْرِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ كَوْنَهَا رِجْسًا بِالشَّرْعِ لَا بِالْعَقْلِ، وَلَيْسَتِ الدَّارُ دَارَ تَكْلِيفٍ. أَوْ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْصَرْ فَتَمَسُّهُ الْأَيْدِي الْوَضِرَةُ، وَتَدُوسُهُ الْأَقْدَامُ الدَّنِسَةُ، وَلَمْ يُجْعَلْ فِي الدِّنَانِ وَالْأَبَارِيقِ الَّتِي لَمْ يُعْنَ بِتَنْظِيفِهَا. أَوْ لِأَنَّهُ لَا يَئُولُ إِلَى النَّجَاسَةِ لِأَنَّهُ يَرْشَحُ عَرَقًا مِنْ أَبْدَانِهِمْ لَهُ رِيحٌ كَرِيحِ الْمِسْكِ، أَيْ: يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿إِنَّ هَذَا﴾[4].

وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ لَهُمْ: مَا جُوزِيتُمْ بِهِ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَشُكِرَ بِهِ سَعْيُكُمْ، وَالشُّكْرُ مَجَازٌ.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[5]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

تَكْرِيرُ الضَّمِيرِ بَعْدَ إِيقَاعِهِ اسْمًا لِإِنَّ: تَأْكِيدٌ عَلَى تَأْكِيدٍ لِمَعْنَى اخْتِصَاصِ اللَّهِ بِالتَّنْزِيلِ، لِيَتَقَرَّرَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ إِذَا كَانَ هُوَ الْمُنْزِلَ لَمْ يَكُنْ تَنْزِيلُهُ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ نُزِّلَ إِلَّا حِكْمَةً وَصَوَابًا، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا نَزَّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا إِلَّا أَنَا لَا غَيْرِي، وَقَدْ عَرَفْتَنِي حَكِيمًا فَاعِلًا لِكُلِّ مَا أَفْعَلُهُ بِدَوَاعِي الْحِكْمَةِ، وَلَقَدْ دَعَتْنِي حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ إِلَى أَنْ أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْأَمْرَ بِالْمُكَافَةِ وَالْمُصَابَرَةِ، وَسَأُنْزِلُ عَلَيْكَ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ وَالِانْتِقَامِ بَعْدَ حِينٍ.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[1] الصَّادِرِ عَنِ الْحِكْمَةِ وَتَعْلِيقِهِ الْأُمُورَ بِالْمَصَالِحِ، وَتَأْخِيرِهِ نُصْرَتَكَ عَلَى أَعْدَائِكَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ أَحَدًا قِلَّةَ صَبْرٍ مِنْكَ عَلَى أَذَاهُمْ وَضَجَرًا مِنْ تَأَخُّرِ الظَّفَرِ، وَكَانُوا مَعَ إِفْرَاطِهِمْ فِي الْعَدَاوَةِ وَالْإِيذَاءِ لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ يَدْعُونَهُ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنْ أَمْرِهِ وَيَبْذُلُونَ لَهُ أَمْوَالَهُمْ وَتَزْوِيجَ أَكْرَمِ بَنَاتِهِمْ إِنْ أَجَابَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَانُوا كُلُّهُمْ كَفَرَةً، فَمَا مَعْنَى الْقِسْمَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[2]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ رَاكِبًا لِمَا هُوَ إِثْمٌ دَاعِيًا لَكَ إِلَيْهِ أَوْ فَاعِلًا لِمَا هُوَ كَفْرٌ دَاعِيًا لَكَ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ إِمَّا أَنْ يَدْعُوهُ إِلَى مُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى فِعْلٍ هُوَ إِثْمٌ أَوْ كُفْرٌ، أَوْ غَيْرُ إِثْمٍ وَلَا كُفْرٍ، فَنَهَى أَنْ يُسَاعِدَهُمْ عَلَى الِاثْنَيْنِ دُونَ الثَّالِثِ.

وَقِيلَ: الْآثِمُ عُتْبَةُ، وَالْكَفُورُ: الْوَلِيدُ، لِأَنَّ عُتْبَةَ كَانَ رَكَّابًا لِلْمَآثِمِ، مُتَعَاطِيًا لِأَنْوَاعِ الْفُسُوقِ، وَكَانَ الْوَلِيدُ غَالِبًا فِي الْكُفْرِ شَدِيدَ الشَّكِيمَةِ فِي الْعُتُوِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَعْنَى أَوْ: وَلَا تُطِعْ أَحَدَهُمَا، فَهَلَّا جِيءَ بِالْوَاوِ لِيَكُونَ نَهْيًا عَنْ طَاعَتِهِمَا جَمِيعًا؟

قُلْتُ: لَوْ قِيلَ: وَلَا تُطِعْهُمَا، جَازَ أَنْ يُطِيعَ أَحَدَهُمَا، وَإِذَا قِيلَ: لَا تُطِعْ أَحَدَهُمَا، عُلِمَ أَنَّ النَّاهِيَ عَنْ طَاعَةِ أَحَدِهِمَا: عَنْ طَاعَتِهِمَا جَمِيعًا أَنْهَى. كَمَا إِذَا نُهِيَ أَنْ يَقُولَ لِأَبَوَيْهِ: أُفٍّ، عَلِمَ أَنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْ ضَرْبِهِمَا عَلَى طَرِيقِ الْأَوْلَى.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾[3]: وَدُمْ عَلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾[1]: وَبَعْضَ اللَّيْلِ فَصَلِّ لَهُ. أَوْ يَعْنِي صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَأَدْخَلَ "مِنْ" عَلَى الظَّرْفِ لِلتَّبْعِيضِ، كَمَا دَخَلَ عَلَى الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾[2]]نُوحٍ: 4.[

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا﴾[3]: وَتَهَجَّدْ لَهُ هَزِيعًا طَوِيلًا مِنَ اللَّيْلِ: ثُلُثَيْهِ، أَوْ نِصْفَهُ، أَوْ ثُلُثَهُ.

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلا نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلا﴾[4]

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾[5] الْكَفَرَةَ ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾[6] يُؤْثِرُونَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[7]]الْأَعْلَى: 16.[

﴿ وَرَاءَهُمْ﴾[8]: قُدَّامَهُمْ أَوْ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ لَا يَعْبَئُونَ بِهِ ﴿يَوْمًا ثَقِيلا﴾[9] اسْتُعِيرَ الثَّقِيلُ لِشِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ، مِنَ الشَّيْءِ الثَّقِيلِ الْبَاهِظِ لِحَامِلِهِ. وَنَحْوَهُ: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[10]]الْأَعْرَافِ: 1877].

الْأَسْرُ: الرَّبْطُ وَالتَّوْثِيقُ. وَمِنْهُ: أُسِرَ الرَّجُلُ إِذَا أُوثِقَ بِالْقَدِّ وَهُوَ الْإِسَارُ. وَفَرَسٌ مَأْسُورُ الْخَلْقِ. وَتُرْسٌ مَأْسُورٌ بِالْعَقِبِ.

وَالْمَعْنَى: شَدَدْنَا تَوْصِيلَ عِظَامِهِمْ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، وَتَوْثِيقَ مَفَاصِلِهِمْ بِالْأَعْصَابِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ: جَارِيَةٌ مَعْصُوبَةُ الْخَلْقِ وَمُجَدْوَلَتُهُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية . سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ و﴿بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾[1] فِي شِدَّةِ الْأَسْرِ، يَعْنِي: النَّشْأَةَ الْأُخْرَى.
وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: بَدَّلْنَا غَيْرَهُمْ مِمَّنْ يُطِيعُ. وَحَقُّهُ أَنْ يَجِيءَ بِإِنَّ، لَا بِإِذَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[2]]مُحَمَّدٍ: 38[، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾[3]]النِّسَاءِ: 133[.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[4]

﴿هَذِهِ﴾[5]: إِشَارَةً إِلَى السُّورَةِ أَوْ إِلَى الْآيَاتِ الْقَرِيبَةِ.
﴿فَمَنْ شَاءَ﴾[6]: فَمَنِ اخْتَارَ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ وَحُسْنَ الْعَاقِبَةِ.
وَاتِّخَاذُ السَّبِيلِ إِلَى اللَّهِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ وَالتَّوَسُّلِ بِالطَّاعَةِ.
﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾[7] الطَّاعَةَ ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[8] بِقَسْرِهِمْ عَلَيْهَا.
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾[9] بِأَحْوَالِهِمْ وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ، ﴿حَكِيمًا﴾[10] حَيْثُ خَلَقَهُمْ مَعَ عِلْمِهِ بِهِمْ. وَقُرِئَ: تَشَاءُونَ بِالتَّاءِ.
فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّ: ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[11]؟

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .
[11] سورة ، الآية .

قُلْتُ: النَّصْبُ عَلَى الظَّرْفِ، وَأَصْلُهُ: إِلَّا وَقْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ، لِأَنَّ "مَا" مَعَ الْفِعْلِ كَأَنَّ مَعَهُ.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ﴾[1] هُمُ الْمُؤْمِنُونَ.

وَنُصِبَ ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾[2] بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ. أَعَدَّ لَهُمْ، نَحْوَ: أَوْ عَدَّ وَكَافَأَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَلِلظَّالِمِينَ، عَلَى: وَأَعَدَّ لِلظَّالِمِينَ.

وَقَرَأَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: وَالظَّالِمُونَ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَغَيْرُهَا أَوْلَى لِذَهَابِ الطِّبَاقِ بَيْنَ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفَةِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا فِيهَا، مَعَ مُخَالَفَتِهَا لِلْمُصْحَفِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ [هَلْ أَتَى] كَانَ جَزَاؤُهُ عَلَى اللَّهِ جَنَّةً وَحَرِيرًا".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

ssوياتـ ـسكّاب

محتويات الكتاب

كتاب تفسير الكشّاف

الجزء الثّامن عشر 19 – 52

محتويات الكتاب 61 – 64

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع